رواية

عبّاد يحيى

جريمة في رام الله



المتوسط

المؤلف: عبّاد يحيى / عنوان الكتاب: جريمة في رام الله
طبعة خاصة بفلسطين: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

التوزيع: الرقمية



ISBN: 978-88-99687-58-8



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

جريمة
في رام الله

إلى وسام

٢٠ تشرين ثاني ٢٠١٢

أعلنت الشرطة مقتل المواطنة ر. س البالغة من العمر ٢٩ سنة إثر طعنها في ساعة مبكرة من فجر اليوم في شارع فرعي في حي الماسيون في مدينة رام الله، ولا تزال التحقيقات جارية لكشف ملابسات الحادث، ولم تعلن الشرطة اعتقال أيّ مشتبه بهم.

رؤوف

(١)

١٣ شباط ٢٠٠٩

نــادي الأســير: إصابــة ٥٠ أســيرًا
في ســجن ريمــون بحساســية شــديدة
تــؤدّي إلى تقــشر الجلــد.

جريدة الأيّام

طوال حياتي كنت أظن أن المصائب والمآسي، أشياء تقع للآخرين، وليس لي، حتّى عرفتُ دنيا.

وعرفتُ دنيا، تعني اللحظة التي شعرتُ فيها بضرب خفيف على كتفي، وأنا شبه نائم في مقعدي في التاكسي الذي أقلّني من جامعة بيرزيت صوب دوّار المنارة في رام الله.

نظرتُ خلفي برقبة متشنّجة من دقائق الغفوة المنهكة، فإذا بيد فتاة تضرب على كتفي حاملة ثلاثة شواقل. أخذتُ الشواقل دون النظر إلى صاحبة اليد، وأعطيتُها للسائق، حاولتُ العودة إلى غفوتي السيّئة، فعبرتْ رأسي صورة غريبة ليدها.

فتحتُ عيني أنظر إلى زجاج السيّارة الأمامي كمَن أدرك شيئًا غاب عنه طويلاً، تنبّهتُ إلى أن يدها شفّافة، ليست بيضاء أو صافية، بقدر ما هي شفّافة، وتبدّت أمام عيني عروق خضراء وزرقاء باهتة في ظهر يديها.

شعرتُ أنني بحاجة للنظر مرّة أخرى ليدها؛ لأتأكد ممّا رأيتُ. وللأسف

لم يكن هنالك باق من الأجرة يعيده السائق لها، فأسرق فرصة إعادته للنظر إلى يدها مرّة أخرى.

استولت عليّ حاجة ملحّة للنظر إلى يدها للتأكد ممّا رأيتُ.

لم أفكّر كثيرًا، أدرتُ رأسي ورقبتي للخلف متحمّلاً وخزة التشنّج الحادّة، وبالتفاتة ١٨٠ درجة، كان وجهي الملفوف مقابلاً لوجهها المنحني على هاتفها المحمول، ولا أدري كيف نطق فمي بكلمة واحدة دون أي قدرة على غيرها: "إيدك..."

تنبّهتْ، ورفعتْ رأسها تنظر إليّ.

نظرتُ في وجهها، واستحكم التشنّج وعلق رأسي ورقبتي.

نظرتُ في وجه دنيا، فاختلفت بوجهي الدنيا.

لم أستطع إعادة رأسي إلى وضعه السابق، وجه دنيا والتشنّج منعاني من عودة طبيعية. ضحكتْ دنيا حين شعرتْ أنني أعاني خطبًا ما، وسألتْني:" شو مالك؟"

كانت بي أشياء لا أستطيع شرحها لدنيا، وأنا بتلك الوضعية البائسة، فقلت لها بتعنٍّ وتردّد: "ممكن نحكي لمّا ننزل؟"

فردّت باستغراب: "شو نحكي؟"

لم أكن أعرف تحديدًا ماذا سنحكي، فوجمتُ. هزّتْ رأسها، وقالت: "طيّب".

عادت للتنقّل بين أزرار هاتفها المحمول الصغير. كان من طراز نوكيا، كلنا كنا من طراز نوكيا في تلك الأيّام، كانت الهواتف المحمولة ذكية بما يكفي لتعلّقنا بها، وهي بالكاد تحوي خدمة اتّصال ورسائل قصيرة وبعض ألعاب بالأبيض والأسود. لم نكن نتخيّل ذكاء الهواتف القادم خلال سنوات قليلة.

أجبرتُ رقبتي المتصلّبة على العودة إلى وضعية النظر إلى الأمام، في انتظار أن نصل إلى موقف تاكسيات بيرزيت - رام الله، قريبًا من مقرّ الشرطة، على مرمى خطوتين من دوّار المنارة.

حسبتُ الوقت الباقي لوصولنا بأقل من ثلاث دقائق، وسأنزل لأَقف وجهًا لوجه مع الجالسة خلفي، حتّى نحكي. ماذا سنحكي؟ سألتُ نفسي، ولم تتوفّر لديّ أية إجابة.

مضت الدقائق الثلاث كأنها رسالة قصيرة من كلمة واحدة.

نزلتُ قبلها بحكم ترتيب مقعدي في التاكسي، مشيتُ خطوتين بعيدًا عن بابه في انتظار نزولها، كأنني أنتظرها وأعرفها، وحالت حوائل بين جلوسنا متجاورين.

نزلتْ دنيا، ويا ليتها ما نزلتْ، كان نزولًا مضطربًا، بسبب ضيق المسافة بين الباب والمقاعد أمامها، مدّتْ ساقها اليمنى، ثمّ ظهرها، ثمّ نزلتْ بشكل عكسي، واستدارتْ ونظرتْ إليّ.

أول ما فكّرتُ فيه أن دنيا يجب أن تأتي من مكان بعيد، بعيد جدًا، كأنها نقطة ظهرت من العدم، مقبلة من الأفق، وتظل تكبر مع اقترابها وتبيّن معالمها شيئًا فشيئًا. تمشي بهدوء مع إضاءة مناسبة، وتبلغني على دفعات مع فسحة وافية من الوقت للتعامل مع كومة الأشياء القادمة نحوي. لا أن تنزل من تاكسي من طراز "فورد" مُعدّ لنقل البضائع لا البشر، ومع سائق يفكّر فقط في سماع خبطة الباب حتّى ينطلق طلبًا لشحنة أخرى.

نظرتُ إلى دنيا مدركًا أن فمي سيخونني، ولساني سينسحب إلى حلقي كفأر جبان.

وهذا ما حصل.

نظرتْ إليَّ دنيا لثوان، وحرّكت يدها وكأنها تتساءل أو تقول: "تفضّل.. ماذا تريد؟"

لم أقل شيئًا.

ثوان أو ربّما ثانيتان فقط.

أدارت ظهرها، ومشت صوب دوّار المنارة، ولم ألحق بها.

لم ألحق بدنيا يومها، بمعنى أنني لم أمش في إثرها أو أنادي عليها، ولكنني دخلتُ مرحلة يمكن تسميتها بـ "الجري خلف دنيا".

في ذلك اليوم بدأتُ مشيًا طويلاً في شوارع رام الله، طويلاً جدًا دون أي هدف، كان الجوّ مناسبًا لمشي طويل، لا برد ولا أمطار في شباط البارد، ولا شمس ترهقني وتنهكني. لم يكن ذاك المشي الطويل يتوقّف إلا أمام أي دكان لشراء الماء ومواصلة المشي.

انتهيتُ مساءً أمام الشقّة التي أسكنها مع ثلاثة آخرين، الشقّة المتفلّتة من حي أمّ الشرايط محاولةً الاقتراب من حي الماسيون، في بناية تحوي ١٢ شقّة مثلها، تشابه ساكنوها في شيء واحد وأكيد، أنهم قادرون على دفع مبلغ ١٥٠٠ شيقل كإيجار شهري، يضمن لهم البقاء في تلك المساحة الموازية بين الحيّين. لديهم ما يكفي حتّى لا يكونوا في أمّ الشرايط، وليس لديهم ما يكفي ليكونوا في الماسيون.

أما أنا ورفاق الشقّة الثلاثة؛ فلدى كل منا ما يحتاج لثلاثة آخرين حتّى نسكن في تلك الشقّة. الانتقال للسكن في رام الله كان استعدادًا نفسيًّا وعمليًّا لمرحلة ما بعد الجامعة، وأنا أقترب من إنهاء الفصل قبل الأخير، محاولة للشعور بأنني أتقدّم. أو هكذا كان مفترضًا دون أي توقّع لما سيحدث بعدها من رسوب لفصلين متتالين، واضطراري للبقاء في الجامعة.

لا أدري لماذا! ولكن عودتي إلى تلك الشقّة في ذلك اليوم كانت ثقيلة. دخلتُ بمزاج غريب، استفزّتني الكثير من التفاصيل، تراكم ملصقات حملة إعلانية لشركة الاتّصالات التي يعمل بها صلاح، على الطاولة الخشبية في

الصالة، عبوة مياه انطفأت في قاعها سجائر كثيرة، درجة وضوح شاشة التلفاز الذي يبثّ حديثًا طويلاً مع الناطق باسم حركة فتح. شعرتُ بأكوام البكتيريا والجراثيم في زوايا كل شيء، لمحتُ باب الحمّام مواربًا، فعبرتْ رأسي صور لأكوام فطريات تتوالد حول حوض الاستحمام، لون الصدأ الذي يغزو كل أبيض فيه حتّى لو لم يكن حديدًا، تأكدتُ أن فرشاة أسناني مليئة بأوساخ خرجت من أبدان الساكنين معي. حتّى حرارة البيت أزعجتْني، وشممتُ رائحة عطنة جدًا، تشنّج معها وجهي، رائحة أناس كثيرين يتشاركون شقّة سيئة التهوية.

لم أسلّم على نائل وصلاح، ومضيتُ إلى غرفتي، أغلقتُ الباب، وتنفّستُ.

نظرتُ للسرير الذي بدا كومة أغطية وملابس وأوراق. زوايا شاشة الحاسوب الضخمة اسودّت من الغبار ودخان السجائر. السجّادة التي لم تغادر أرض الغرفة منذ أشهر مليئة بالحروق وكتل الشعر. وخزانة الملابس بصقة أقمشة كبيرة.

بدأتُ بالترتيب وسط ضحكات قادمة من الصالة، وعبارات استغراب يحاول صلاح ونائل أن يُسمعاني إيّاها.

دبّت فيّ حاجة ملحّة لتبديل هيئة الغرفة، نقلتُ السرير، ووضعتُه قبالة النافذةُ لا تحتها، ونفضتُ السجّادة، ورتّبت المكتب، وغيّرتُ موقعه، ونظّفتُ الحاسوب من الغبار، وملأتُ كيسًا هائلاً بالأوراق والنفايات، وأخرجتُ الملابس من الخزانة، وطرحتُها أرضًا، وبدأتُ بتجهيزها لجولة غسيل هائلة.

حملتُ كومة الملابس، وخرجتُ من الغرفة، فوجدتهما يتبادلان مقترحات أفلام اليوم، كما في كل يوم، يُنفقان وقتهما كله منذ عودتهما من عملهما في الأكل ومشاهدة الأفلام، كانا يعتاشان على قرصنة الأفلام، ولم يكن تخيّل

حياتهما دونها. تناسيتُ وقتها أنني مثلهم تماماً، شعرتُ بقدرة على النظر إليهم بعين مَن لا يشبههم. أما رفيق السَّكَن الثالث؛ فأنا لا أذكر اليوم إن كان اسمه "منتصر" أم "معتصم"، كان صديق نائل، يشارك في إيجار البيت، ولكنْ؛ بالكاد نراه، لم يثر فينا أي ريبة، عامل قد ينام في ورش البناء، كما فهمْنا منه.

انشغلتُ في تنظيف الملابس، وعدتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ بابها، وفكّرتُ للمرّة الأولى بالعثور على مفتاح الغرفة لإقفالها تمامًا. لم نعرف إغلاق غرفنا بالمفتاح، لم يكن فيها ما يستدعي الحرص والتخبئة، حتّى إنه لم تكن بيننا أسرار.

انفتحت أبوابنا على بعضنا رويدًا رويدًا، بعد أن اطمأننا لبعضنا، وشعرنا أن ما يجمعنا أكثر بكثير ممّا نعتقد، صرنا نرى أنفسنا متشابهين. شباب يحاولون الوقوف في هذه المدينة. منشغلون بالشواغل نفسها، وتملؤنا الهواجس نفسها، ونحلم بالأشياء نفسها. كنا "إخوة" من نواح عدّة، يجمعنا ما بدا أنه طريق مشترك، ثمّ وجبات طعام شعبية نجتمع حولها أو نحاول طبخها في أيّام العطل في شقّتنا المشتركة. وأظن الحواجز بيننا اختفت تمامًا بعد عدّة أسابيع من سَكَننا معًا. حصل ذلك في يوم جمعة بعد عودة صلاح ونائل من الصلاة، كانا يُصلّيان لأنهما نشأا في بيوت يصلّي أهلها، أما أنا؛ فلم أكن أصلّي لأنني لم أنشأ في بيت يصلّي أهله، أو نشأتُ في بيت لا يصلّي أهله، لا فرق، لم أشعر أن الصلاة عندهما تزيد عن عادة، ولم يشعرا أن عدم صلاتي يزيد عن عادة أيضًا.

كنتُ أحاول الاستيقاظ حين دخلا الشقة بعد صلاتهما تلك، وبدأ التساؤل الاعتيادي عمّا سنأكل، واستقرّ الأمر على طلب وجبات من مطبخ شعبي قريب.

اتّصل نائل، وطلب الطعام، ودخل صلاح غرفته، وأغلق بابها، وأنا أتمطّى

وأحاول النهوض. أقل من ساعة، وكان طعامنا ساخنًا على الطاولة، اجتمعنا في الصالة نادي على نائل، ولا يرد، كان في غرفته، ولا يسمعنا، وبعفوية دارجة بيننا، توجّهنا إلى غرفته وفتحنا الباب فجأة.

وجدنا نائل في حال يُرثى لها، غارقًا في متابعة فيلم جنسي بعد دقائق من عودته من الصلاة.

ضحكنا طويلاً، ونسينا الجوع، وقضينا تلك الظهيرة نتبادل الآراء والأمزجة في الأفلام الجنسية. أغرب ما اعترف به صلاح حينها أنه يحبّ مشاهدتها بصوت مرتفع جداً! حين تحدّثنا في الجنس، صرنا أصدقاء، هكذا ذابت الحواجز بيننا. هكذا صرنا أكثر من مجرّد شركاء سَكَن، وارتفع أي حرج بيننا.

هذا كله تبدّد، وشعرتُ أن جدرانًا تُبنى بيني والعالم. بحثتُ عن مفتاح الباب حتّى عثرتُ عليه، وأوصدتُ الباب، وأدرتُ المفتاح، بدا لي أن هنالك سرًا في الغرفة يجب ألا يخرج منها.

صاروا غيرهم، وصرتُ غيري.

ليلتها تحوّل السقف فوق سريري لشاشة غير مَرئية، عبر فيها كل شيء، صور الطفولة القديمة، ومشاهد لنظرات طفولية لبنات القرية، وقريباتنا الصغيرات القادمات مع أمّهاتهنّ لزيارة أمّي، والمدرسة والسنوات التي تحوّلت لفجوة، لا أستطيع تذكّرها مهما حاولتُ. أتفرّج على نفسي أمضي من مكان لآخر، ومن جهة لأخرى دون أن أعثر على أي رابط أو تفسير لتلك النقلات، ثمّ الجامعة، وتردّد السنة الأولى، والتمسّك بأصدقاء يشبهونني، والمرور بأشياء مهمّة دون الالتفات لها، والبرود في التعامل مع كل شيء، وتجنّب كل غريب، والميل التام نحو المألوف الذي أعرفه.

تفرّجتُ ليلتها على نفسي، لأول مرّة، صرتُ قادرًا على الخروج مني، والنظر إلى حياتي معروضة على السقف نفسه الذي نمتُ تحته دون أن

أفكّر بالنظر. أغمضتُ عينيّ على المشهد الأخير، المنتهي بلحظات قبل النقر على كتفي في التاكسي، نمتُ بقلب آخر، وذهن آخر.

كل ما حدث في الأيّام التالية، كان ذهابي إلى الجامعة، وتجوّلي فيها طويلاً من مبنى لآخر، ومن قاعة درس لأخرى بحثًا عمّا كنتُ أجهله.

لم أكن متأكدًا من أنني أبحث عن دنيا، فلم يكن لديّ ما أضيفه على صمتي أمامها حين قال وجهها: "تفضّل.. احكي".

كنتُ أمشي وأبحث في أرجاء الجامعة، ولكن الأهمّ هو ما كان يجري داخلي من بحث طويل في زوايا ذهني ونفسي.

(٢)

٥ آذار ٢٠٠٩
انفجــار ســيّارة مفخّخة في ســوق
في بابــل بالعــراق يوقــع ١٢ قتيلًا
رويترز

لعدّة أيّام لم يتوقّف هاتفي المحمول عن الرنين. انتخابات مجلس طَلَبَة الجامعة حديث الجميع، والفصيل الذي شاركتُ أبناءه لبس كوفيّاته وحمل راياته في السنوات الماضية، بل وشاركتُ في بعض مكائده الداخلية، يبحث عن كل المناصرين والعناصر استعدادًا للانتخابات.

كنتُ مع ذلك التنظيم بحكم الانتماء العائلي. والدي صار في شبابه ممثّل الحزب في القرية لسنتين فقط، على الأغلب بعد حَدَث طارئ غيّب كل القيادات الممكنة، فلم يبقَ إلا أبي. "التنظيم مهمّ، مثل العائلة" هذا تفسيره الوحيد لانتمائه الباهت والقابل للتوريث، يوفّر وظيفة لأبي في المجلس القروي، يتقاضى عليها راتبًا دون فعل شيء منذ عشرات السنوات. لم يكن يربطنا بالتنظيم شيء سوى ذاك الصيت البعيد، وراتب أبي، ولذلك وفي سنتي الجامعية الأولى لبستُ كوفيّة التنظيم، ربّما لأشعر بأن كل مَن يلبسونها إخوتي.

تحاشيتُ الجميع في الجامعة، وشعرتُ لأول مرّة أن لا قيمة لكل ما يفعلونه هناك، الشعارات على اليافطات والجدران والألسن والعَرَق على وجوههم وصراخهم المستمرّ، واستذكارهم لتاريخ التنظيم وإنجازاته وتضحياته،

وبريق الأعين والإعجاب بحرارة خطاب هذا أو هذه، والهتافات الموزونة، والأحلام الشخصية المختلطة بالسياسة وشؤون الوطن.

حماستي لكل تلك الأجواء في المرّات السابقة حلّ محلّها برود عجيب، بل واستنكار لكل هذه الطاقات المهدورة.

تجنّبتُ خوض أي حديث مع مَن يُفترض أنهم أصدقائي، شعرتُ أن أقفالًا وُضعتْ على فمي، ولا رغبة بي بمخاطبة أحد، شيء يشبه توتّر المريض الراغب بالابتعاد عن أي شيء قد يتطلّب منه ولو جزءًا يسيرًا من طاقته.

إلا أن أسوأ ما حصل في تلك الأيّام القليلة هو أنني لم أعد قادرًا على التعاطي مع فكرة الدراسة، أن هنالك محاضرات وامتحانات ومعدّلات وشهادة مأمولة، بدأتُ أشعر بانعدام جدوى هذه الأشياء، ولم أكن متأكدًا أين الجدوى تحديدًا، ولكنني كنتُ في قلب اضطراب هائل في داخلي، يقابله هدوء عجيب في حركتي وأفعالي.

تنبّه نائل وصلاح، وسألاني كثيرًا عمّا حصل، وما الذي جرى لي، لم تكن لدي أية إجابة، وشعرا أنني بحاجة لابتعادهما عني، وهذا ما حصل بالتدريج، صرتُ كأنني أسكن في غرفة مجهولة في محيط مجهول.

رسبتُ في امتحانين نصفيين، وفقدتُ اتّصالي بكل شيء حولي. ولم أعد أشعر بشيء إلا حاجتي لفعل شيء ما غير محدّد، مع قناعة بأن أحوالي تتدهور، صرتُ كمَن يشاهد فيلمًا، هو بطله الذي يمشي نحو منحدر شنيع.

أستيقظ وأظلّ في الفراش أفكّر، كأنني في حلم لم أفلح بالاستيقاظ منه، حلم ضيّق عميق كدرجات رطوبة عالية.

بعد يومين متواصلين لم أغادر فيهما سريري إلا لقضاء حاجتي، أدركتُ أمرًا سيغدو مصيريًّا، أدركتُه على شكل سؤال محدّد:

"لماذا لم أقل شيئًا لدنيا؟"

تسلّلتْ إلى داخلي، ثمّ كبرتْ قناعةٌ بأنني لا أطيق العيش في هذه الشقّة ومع هؤلاء، صلاح ونائل. صرتُ بحاجة للسَّكَن وحدي في مكان أشكّله بنفسي، وأعيش فيه كما أريد، مكان يخصّني وحدي. كأن شيئًا استجدّ عليّ، وصارت مداراته غير ممكنة، ولا أريد له الانكشاف أمامهما في كل حين. كأنني صرتُ بحاجة لحيِّز أوسع، لشيء يكبر معي أسرع ممّا كنتُ أتوقّع. كأنني شعرتُ بي لأول مرّة.

ولكن ذلك غير ممكن بما يتوفّر معي من مال بسيط، هو ما يرسله لي أخي من خلال أبي من مصروف شهري يكفي لأعيش حياة معقولة، كانت حاجاتي مؤمّنة بالكامل، والحاجات تعني كل ما يتعلّق بالمعيشة والدراسة، وهذا يعني أن أيّ تغيّر في طريقة عيشي كانت غير ممكنة مع ذاك المصروف المحدّد.

ولتلبية الحاجة الجديدة، السَّكَن وحدي، بدأتُ التفكير بالعمل، وتلك الفكرة أحكمت على عقلي، لم أعد قادرًا على التفكير في شيء سوى العمل، لم يكن يُخرجني من سريري وتوهاني الصباحي سوى التفكير بالعمل، أيّ عمل ممكن، مهما يكن، وزاد شعوري بعدم جدوى ما أفعله في الجامعة، من حاجتي للعمل. كان العمل هو المال وهو قدرتي على السَّكَن في شقّة وحدي وفعل أيّ شيء. صار الباب الذي تقبع الحياة خلفه، ولا بد لي من دخوله.

فكّرتُ في كل الأعمال الممكنة، وكنتُ أرى في نفسي قبولًا لأي عمل مهما كان، ما دام سيؤمّن في جيبي مالًا إضافيًّا.

بدأتُ البحث، أفتح الصحف، وأتجوّل في الشوارع في انتظار أن أجد فرصة في إعلان أو شيء شبيه. كنتُ أريد العمل بأية طريقة، ولم أكن أعرف شيئًا عن كيفية البحث. فكّرتُ باستشارة نائل وصلاح، ولكنني تراجعتُ. فكّرتُ بالاستعانة ببعض أصدقاء الجامعة، ولكنني تردّدتُ. أدركتُ أن بي رغبة لنسيانهم.

كدتُ أنسى أنني في الجامعة، وأن كل ما دفعه أخي قسطًا للفصل الأخير ذهب هباء مع رسوبي في المواد. حتّى جاءني اتّصال من وحدة الإرشاد في الجامعة، وطلبوا مني الحضور بأسرع وقت للحديث، حاولتُ فَهْم ما يريدون، فاستلمت الهاتفَ السيدةُ مديرة الوحدة، وطلبتْ أن نجلس لنتحدّث، قلتُ لها إنني في حالة لا تسمح لي بالقدوم للجامعة، فقالت ما توقّعتُ تمامًا، المحاضرون نقلوا لرئيس القسم أخبار الأوراق البيضاء التي أسلّمها في نهاية الامتحانات، عدا عن تلك التي لا أحضرها أصلاً، وهي تحاول المساعدة، فهذا واجبها.

ظلّتْ تطرح أسئلة، وأراوغها حتّى تعبتُ، قلتُ لها إنني أعاني مشاكل مادّية، سألتْني إن كنتُ غير قادر على سداد أقساطي الجامعية، ثمّ قالت إن بإمكانها تدبّر قرض لي أو مساعدة مالية في حال كنتُ مستحقًا لها، قلتُ إنني بحاجة لما هو أكثر من منحة لدراسة فصل واحد. طلبتْ أن أفاتح عائلتي بالأمر، خفتُ من تواصلها معهم بأي طريقة، فأخبرتُها أن عائلتي جزء من المشكلة، والتواصل معهم سيفاقمها. بدا وكأنها تراجعتْ قليلاً، ثمّ ألحت في طلب حضوري للوحدة لحديث أكثر، وعدتُها بالمحاولة.

بدأتُ علاقة جديدة مع الكذب، صار عمليًا ومبررًا.

فترتْ وتيرة بحثي عن عمل، وبدأتْ مسافة متزايدة تفصلني عن كل شيء حولي، كأنني مصاب بمرض يُبطئ من قدرتي على التفاعل مع محيطي، وأتعاطى أدوية تخدّر مواطن الإحساس والاستجابة فيّ، ولكنْ؛ في داخلي تضاعفت حساسيتي للأشياء كلها، أراقب وأتأمّل، أبحث عن أيّ موضع في مكان عام أو منزو للتفكير.

شعرتُ بتفاهتي وتفاهة كل شيء، إن رأيتُ شخصين يتشاجران أقتنع بسخافتهما، وعدم وجود شيء يستحقّ ارتفاع الصوت أو التلويح باليد، وإن رأيتُ غيرهما يتضاحكان، أتأكد من سخافتهما حين لم يُدركا قبح هذه

الدنيا وزيفها، أستخفّ بكل شيء، بالشبّان الذين يلعبون كرة القَدَم في ملاعب الجامعة، وبالطالبات المشغولات بالتحضير للامتحانات، وبالأساتذة المتهمكين في السعي خلف الدرجات العلمية، وبالجدّ والهزل، وبالحياة وبأخبار الموتى، وبكل شيء.

كل ما حولي بدأ يتحوّل إلى كذبة ما، كذبة كبيرة فرّخت كذبات أصغر فأصغر. كنتُ أتلقّى ما يحصل لي باستسلام كامل، كنتُ الفاعل والمفعول به.

لم يعلم أهلي بأيّ شيء حول رسوبي في فصل كامل. لم يعلموا أن ابنهم يقضي أيّامه ملقى على السرير في غرفة مغلقة، يشاهد عشرات الأفلام التي تزيده هذيانًا، وإن خرج من الغرفة فإمّا للبحث عن عمل لا يدري ما هو، أو لسير طويل في طرقات الجامعة بحثًا عن سبب صمته في لحظة، لم يعرف مثلها في عمره.

كنتُ أنا مَن أتحكّم في اقتراب عائلتي وابتعادهم عن حياتي، وكانوا مستسلمين لإدارتي هذه العلاقة، ربّما هذا ما يحدث مع أب عجوز، يصلح ليكون جدًّا، ويفسح المجال لابنه الأكبر للقيام بأدوار الأبوة تجاه ابنه الأصغر، والأخ الأكبر حين ينجب أولاده هو، سيتخلّى عن أيّ أدوار أبوة حيال أخيه الأصغر.

كانت علاقتي مع عائلتي محصّلة تقاعد والدي من الأبوّة، واستقالة أخي الأكبر من منصب لم يطلبه. أمّي كأيّ ريفية تنتهي عوالمها عند حدود قريتنا، وبناتها الأربع، أخواتي يملأنَ حياتها بأولاد الثلاث المتزوّجات، وترقّب زواج الأخيرة، ولا أصبح موضوعًا لأسئلتها إلا حين أدخل المجال الحيويّ للقرية، وما دمتُ خارجها، فأنا كأخي الذي يعمل في الخليج بعيد جدًا، حتّى لو كانت المسافة بين القرية ورام الله أقلّ من عشرين كيلو مترًا.

(٣)

١١ أيار ٢٠٠٩

البابـا بندكتـوس يـزور القـدس
ويصـلّي للسـلام

وكالات

اتّصلتْ بي السيدة من وحدة الإرشاد، وأخبرتني أنها تدبّرت لي مساعدة مالية للدراسة تمكّنني من تسجيل الحدّ الأدنى من الموادّ للفصل الصيفي، ثمّ ذكّرتني بأنني لم أنجز أي ساعة من ساعات الخدمة المجتمعية الإلزامية، وقالت إنها تعلم أن هذا ليس الوقت الأنسب بالنسبة لي، إلا أن هنالك إعلانًا قد يكون مفيدًا ماليًّا، هنالك مركز للأبحاث واستطلاعات الرأي يرتّب لشيء مع الجامعة، وبالإضافة إلى احتساب الساعات لصالح الطلاب كخدمة اجتماعية، فإنهم ربّما يدفعون مصروفًا يوميًّا للعاملين معهم، وهذا يناسبني كون عبئي الدراسي قليلاً.

لم أفكّر كثيرًا، اطّلعتُ على الإعلان حول التعاون مع المركز في وحدة الخدمة المجتمعية، وأرسلتُ طلبًا بتوصية من السيدة في وحدة الإرشاد.

مدير المركز بعلاقاته الواسعة مع إدارة الجامعة وبترتيب استطلاع يخص برنامجًا جامعيًّا، أقنعهم بالإعلان عن حاجة المركز لمتطوّعين، وتطوّعهم لديه يعني تأديتهم لساعات الخدمة المجتمعية المطلوبة في الجامعة كمتطلّب للتخرّج.

سجّلتُ كمتطوّع، ولم أسجّل للفصل الصيفي في الجامعة، أقنعتُ

نفسي بإمكانية حصولي على عمل في المركز، إن تطوّعتُ لديهم، وبذلك أتخلّص من عبء الساعات الإلزامية قبل تخرّجي من الجامعة. عمليًّا لم أكن أفكّر في الجامعة ولا التخرّج. عملتُ على مشروع الاستطلاع ذاك أسبوعًا واحدًا، ثمّ قالت لي مساعدة المدير إنه يمكنني العمل معهم، إذا أحببتُ جامعًا للبيانات براتب بسيط، ولكنه جيد بالنسبة لي كطالب.

وافقتُ فورًا دون تفكير.

كانت الآراء لا تزال مهمّة، ويمكن الاستثمار بقوّتها، والقول إن الناس يريدون هذا ويرفضون ذاك. في تلك الفترة تعلّمتُ الكثير، أنا لستُ ككثيرين من أبناء جيلي أرفض الاعتراف بقيمة تجاربي، ولذلك أقول إنني تعلّمتُ، رغم رداءة تلك الوظيفة وتزييف ما يؤدّيه المركز من مهامّ. تعلّمتُ من مدير المركز، من انعدام نزاهته ومن تجربته، كان يبيع سلطة الأرقام للمسؤولين والأحزاب والناس، ولذلك يزوّرها لصالح مَن يدفع، كان نموذجًا لفَهْم كيف صارت السياسة هنا مجرّد مؤامرات داخلية.

بعد سنوات من احتكار تمثيل الشعب، كان المدير يبيع ما يزعم أنه رأي الشارع وموقفه، كل تلك البضاعة بدأت قيمتها تتزعزع، وقوّة رأي الناس تبدّلتْ مع الوقت، ولم يعد المركز قادرًا على احتكاره، ولذلك اتّجه للعمل في مجالات أوسع، لا تقلّ تزييفًا. وهذا يعني أنني عملتُ في خريف تلك الصناعة، بعدها صار الناس يقولون كل ما يريدونه في أي وقت وفي كل مكان. دخلنا عصر الطفرة.

بعد أسبوعين من العمل جامعًا للبيانات، اهتديتُ لطريقة تزيد المبلغ التافه الذي يعطيني إيّاه المركز كمكافأة أشبه بالمصروف، والخطّة ببساطة أن أعمل أكثر، فعملي هناك من نوعية الأعمال التي تحتمل كمّيّة هائلة من الشغل، جمع بيانات وأسئلة للناس ومعهم، والأهمّ ساعات طويلة أقضيها منهمكًا في ما كنتُ مقتنعًا أنه ضرورة حياتي الأهمّ، العمل، الحقيقة الوحيدة في بحر الأكاذيب.

واففتْ مساعدة مدير المركز، وكلّفتْني بأعمال كثيرة، كنتُ الأمهر في تحويل كلام الناس إلى الأرقام، ولديّ مهارة في استخراج إجابات متماسكة منهم، هكذا كانت تقول المساعدة، وهي تؤنّب بقية العاملين والعاملات في المركز.

أيّامي لم تكن إلا جولات طويلة في رام الله، كبائعي الترمس والتمر الهندي والكعك والقهوة، وساعات خلف الهاتف في المركز، وأخرى في المقاهي وأي مكان أجمع فيه آراء الناس، وأسمع طويلاً مواقفهم من أشياء لا تعنيني، ولم يخطر لي على بال يومًا أن أنشغل بها. أيّ نظام انتخابي يفضّلون، وهل يثقون بحركات الإسلام السياسي، وما موقفهم من العلمانية، وهل هم مطمئنّون للخطّة الاقتصادية للحكومة، وهل يزعجهم حجم إنفاقها على الأمن، ومَن هي الشخصية السياسية المفضّلة لديهم.

لم أنتبه حينها إلى أن لا رأي لي في كل تلك الأسئلة، بل لم أفكّر في تكوين رأي عمّا أسأل الناس عنه في اليوم عشرات المرّات. كان ذهني مشغولاً، كان غرفة مستأجرة بدفعة ضخمة، تسكنها دنيا فقط.

(٤)

٣٠ تموز ٢٠٠٩

الشرطة الفلسطينية: ٣١٢ فلسطينيًّا، معظمهم فتيات، حاولوا الانتحار منذ مطلع العام، مات منهم ٨.

المكتب الإعلامي للشرطة

باستلامي الراتب الثاني، كان في جيبي ما ينفخها من النقود. عندها بدأ البحث عن شقّة صغيرة، أسكنها وحدي.

ما سيستقرّ في جيبي من نقود نهاية كل شهر لا يترك لي مساحة خيارات واسعة.

كان المنطق يقول إنني سأترك تخوم أمّ الشرايط، وأغرق في بطنها، هناك حيث يمكنني العثور على شقّة تناسب قدراتي المالية.

وهذا ما كان، تنقّلتُ من بناية لأخرى مدّة أسبوع حتّى عثرتُ على شيء معقول. ما كان في ذهني كان يضيّق خياراتي، ويوسّعها في الوقت نفسه. مكان لا يعرفني فيه أحد، بحجم مناسب وسعر معقول. اكتشفتُ أن هذا الحيّ وما حوله حافل بالكثير من البشر الذين يشبهونني، من يبحث عن موازنة مستمرّة بين ما في جيوبهم من مال شحيح، والرغبة بالمرور دون أن ينظر إليهم أحد، ولا يحدّثهم، ولا يعرفهم.

المشكلة كانت في أصحاب البنايات والعقار، هم يعرفون الكثير عن

هذا الحي المتضخّم بسرعة هائلة، وطبقاته السفلية العديدة وكل ما تفتحه من خيارات وإمكانيات، ولذلك كانوا يتاجرون بالحاجات الخفية للساكنين، والحال نفسه على ضفة شارع القدس الأخرى، وصولًا إلى مخيم قلنديا. بنايات هائلة هي بنت الحاجة الاقتصادية والسياسية والإدارية، تصبح ملاذات لفعل الكثير ممّا لا يصلح في غيرها. والمستفيد دومًا هم مَن يملكون الأرض وما عليها.

فهمتُ الكثير من نظرات وكلمات أصحاب الشقق، كان الحديث يُشعرني بالضيق، ويُعرّي حاجاتي أمامي وأمامهم، ولكنني لم أعبأ بالأمر حين وجدتُ شقّة مناسبة. صالة وغرفة نوم وحمّام ومطبخ مفتوح على الصالة وبرندة مغلقة بالألمنيوم والزجاج.

شبّاك واحد تعبر منه الشمس. لو أغلقتُه، لما عرفت إن كان الوقت نهارًا أم ليلًا.

هذا ما يتناسب وقدرتي المالية.

كأنني كنتُ على قناعة غير معلنة، بأنني مع راتب بسيط وشقّة أستأجرها وحدي، أقدر على الحديث مع دنيا، أو أن الحديث مع دنيا يتطلّب أن أكون موظّفًا وبشقّة أسكنها وحدي. هذه مؤهّلات ضرورية للحديث مع دنيا، ولو أنني كنتُ أملكها حين نزلنا من التاكسي يومها لما صَمَتُّ، ولقلتُ أي شيء، هكذا بدا لي الأمر حينها دون تفسير.

أخبرتُ صلاح ونائل بنيّتي مغادرة الشقّة، لم يدر أيّ حوار، كانت علاقتنا انتهت قبل ذلك بكثير، حين صرتُ أتصرّف وكأنني نزيل في فندق رديء، والغرفة هي غرفتي، أما الصالة؛ فهي أشبه ببهو أرى فيه نزلاء آخرين من دول بعيدة، لا أعرفهم.

حملتُ الأغراض البسيطة في غرفتي، وهممتُ بنقلها إلى شاحنة صغيرة

تنتظر تحت البناية، حاول صلاح مساعدتي، فرفضتُ بطريقة فجّة، ثمّ حاول السلام عليّ، ثمّ احتضاني، ارتبكتُ، كأن ما كان بيننا بالنسبة له أكبر بكثير منه بالنسبة لي.

دخلتُ شقّتي الجديدة مع الغروب، وضّبتُ حاجياتي فيها، فبدتْ فارغةً إلا من السرير والمكتب والحاسوب والسجّادة، اشتريتُ أدوات التنظيف البسيطة، وحاولتُ تنظيف الحمّام قليلًا، ثمّ ارتميتُ على السرير في العتمة، خالجتْني سعادة مَن حقّق خطوة لازمة لحياة يتخيّلها، ولكنْ؛ بصورة مشوّشة غير واضحة تمامًا، شعرتُ أنني عثرتُ على وتد ثابت وسط سيولة الأشهر الماضية.

نظرتُ في العتمة مستقبِلاً أول ليلة لي في مكاني الخاص، ثمّ انكشف أمام عيني شيء واضح، شعرتُ أنه حقيقي جدًا، همستُ إثره بصوت مسموع مخاطبًا دنيا:

"بحبك"

(٥)

١٩ آب ٢٠٠٩

رئيس الوزراء الفلسطيني سلام فياض يدشّن ٢٠ مشروعًا تنمويًّا في الضفة

جريدة الحياة

أجّلتُ الفصل الدراسي الذي كان يُفترض أن يكون الأخير...

كان واضحًا أن العمل مع المركز لا يمكنه تأمين ما أطمح له من مال يناسب ملء البيت بقطع أثاث أساسية، ويضمن نقلة بسيطة في مستوى معيشتي من شخص يُنفق عليه أهله، إلى شخص عامل. ولكن العمل مع المركز كان أهمّ من الجامعة حينها، فصرتُ بحاجة لسنة أخرى في الجامعة، ولكنني لم أنشغل بالأمر.

استفدتُ من العمل كثيرًا، كنتُ مضطرًا لقراءة بعض الأوراق، وأحيانًا كتيبات وكُتُب بسيطة، ثمّ أصبح الأمر مفيدًا مع الدخول إلى مكتبة المركز التي يستعرضها المدير مع ضيوفه، ويفاخر بها، هناك كنتُ أستفيد من إنترنت مجاني وقراءة مجانية واسعة، وهذا كله كان يبدو جزءًا من العمل الذي أتقاضى عليه أجرًا.

عقلي ينمو، ومفرداتي تختلف. أشعر أنني أكثر تأهيلاً لشيء مهمّ. كان هذا ما أشعر به حين أطوي كتابًا، وأنهيه، أو أقرأ تحليلاً طويلاً عن قضية لم تكن تخطر لي على بال. ومع الوقت يتسلّل لعقلي شعور بأنني مختلف،

مختلف عن بقية الشبّان حولي. كان تحسين عقلي وأفكاري ممكنًا وواعدًا، والعمل جاريًا عليه، هذا ما أفكّر فيه بين الكُتُب وداخل المركز. ولكنْ؛ أمام المرآة وفي الشارع أفكّر بجسدي.

أنظر إلى جسدي في المرآة، وأفكّر في هيئتي، أتمنّى لأول مرّة لو أنني أجمل قليلاً، وأوسم. أفكّر بالاشتراك في ناد رياضي، كما يفعل الجميع، ثمّ ألحظ أن العمل يفعل بي فعله، المشي الطويل سعيًا وراء آراء الناس. فقدتُ الكثير من الوزن، بسبب التنقّل والمشي، وبسبب انشغال خاطري بأشياء كثيرة غير محدّدة. كانت ذروة صيف قاتلة. كنتُ لساعة أو ساعتين في فترات متقطّعة أذهب إلى الجامعة، وأجوب طرقاتها ومبانيها بحثًا عمّا لم أجده يومًا، صدفة تضعني وجهًا لوجه أمام دنيا. متجنّبًا أفكارًا منطقية جدًا عن عدم تسجيلها للفصل الصيفي كما يفعل غالبية طلبة الجامعة، أو أنها تخرّجتْ!

تحوّلتْ دنيا من وجه أرغب بكُلّيّتي أن أجده قبالتي، إلى شيء موزّع على كل حاجاتي وأفعالي.

ولكنني وفي كل مرّة كنتُ أسير فيها في الجامعة بحثًا عنها، كنتُ أشعر براحة غامرة حين أغادر الجامعة دون أن أجدها.

كنتُ في تلك الأيّام غير متأكد من قدرتي على أن أقول لها شيئًا حين أراها.

لم أكن متأكد أن تغيرًا حقيقيًا طرأ عليّ، يجعلني قادرًا على فعل أي شيء مختلف عن لقائي الأول بها.

بدأتْ علاقتي الجدّيّة مع المال حين بدأ العمل يغدو جديًّا أكثر، وبدأتُ بالتجربة أتعلّم الاقتصاد في صرف ما بين يدي، بمجرّد دفع أجار الشقّة أشعر بالإنجاز، وأبدأ في تقسيم المبلغ بين يدي على الأيّام، أكل وشرب وكهرباء

وتكلفة اتّصال هاتفي، بالكاد كنتُ أستخدم هاتفي المحمول أيّامها، ثمّ الطوارئ من ملابس وغيرها.

كنتُ وحيدًا تمامًا، ولكنني لا أشعر بالوحدة، كان هذا الشعور غريبًا عني، لم أختبره، ربّما لأنني لم أكن أملك وقتًا لأشعر به، وكان الانشغال التامّ بكيفية زيادة مواردي هو همّي الأكبر.

من محلات لبيع قطع الأثاث المستعمل المجدَّد، أو تلك التي يسرقها البائعون من داخل إسرائيل أو تلك التي تعرّضت لضربة ما، وفقدت مجمل سعرها، من المحلات التي تملأ أمّ الشرايط، بدأتُ بتأثيث الشقة. أثاث متواضع بالطبع، ولكنه يفي بالغرض، ويطرد الشعور بأنني أدخل شقّة مهجورة. كل قطعة كنتُ أضعها في الشقة أشعر أنها إنجاز صغير، خطوة على طريق طويل، لم أكن متأكدًا أين سيوصل. كنتُ دليلاً على أن المضي الحثيث في الطريق لا يحتاج غاية واضحة، لأنه يغدو مبرّر نفسه في أحيان كثيرة.

التفاني في العمل، كان طلبًا للمال، إلا أنه في نظر مدير المركز ومساعدته شيء نادر، صرتُ موثوقًا، بل إنني كنتُ أدرّب بعض طلاب الجامعة القادمين للتطوّع في المؤسّسة بناء على اتفاقية التعاون الفاسدة بين مدير المركز وإدارة الجامعة.

مضتْ أسابيع، لم أعد قادرًا على تحديد ما يمضي من وقت، الشقّة صارت معقولة بأثاثها، لم تعد الجدران تتناقل صدى الأصوات، حلّت محل الصدى كنبة وطاولة مع كرسيين وثلاجة وغسّالة وخزانة ملابس وسجّادة ومدفأة كهربائية.

إلا أنني أعرف جيدًا أنني كنتُ مشغولاً بفكرة دخول أي كان إلى الشقة، كان لديّ ذاك القلق من ألا تكون شقّة لائقة، ولكنْ: لم أكن قادرًا على مصارحة نفسي، بأنني أريدها لائقة بمَن أو لمَن.

أفكّر في تلك العلاقة الغريبة مع قطع الأثاث ورغبتي بتوضيبها وترتيبها،

أفهم أنني كنتُ أحاول السيطرة على حياتي وترتيبها على شكل يجعلني إنسانًا مؤهّلًا لكثير ممّا أتمنّاه وأريده، وكان ما أريده وأتمناه غائمًا حينها، إلا أنه اتّضح بعد حين.

مضت الأيّام سريعة، عمل وزيارات خاطفة للجامعة، واتّصال متقطّع من وحدة الإرشاد في الجامعة، أتجنّب الإجابة عليه، ثمّ تغيير لرَقْم هاتفي المحمول حتّى أقطع الطريق على كل متّصل من الماضي الذي أتركه، ثمّ ابتعاد نفسيّ عن عائلتي المشغولة بتوافه الحياة، بأخي في الخليج، والبحث المحموم عن عروس له، وبضع زيارات لتناول الغداء مع أمّي وأبي، دون أسئلة تتجاوز ما يمكن الإجابة عنه بكلمة واحدة.

تحوّل أهلي إلى كومبارس يؤدّون أدوارًا ثانوية جدًا في حياتي.

حدث في تلك الأيّام شيء أظنّه مهمًا.

دعا مدير المركز موظّفيه إلى عشاء احتفالي بمناسبة تجديد حديقة منزله، وإضافة بركة سباحة إليها.

فكّرتُ بالاعتذار أو عدم الذهاب، إلا أن مساعدة المدير ألحّت عليّ، وقالت إننا سنستمتع، ولمّحتْ إلى أنني يجب أن أظلّ في "وجه المدير" فربّما يفكّر في توظيفي في المركز. شعرتُ أنها تنقل لي خبرة خاصة، ويجب ألا أهملها، فوافقتُ على الذهاب.

اشتريتُ قميصًا، وطلبتُ من صاحب محل الملابس أن أكويه في المحل بعد ملاحظتي وجود مَكوى تحت مكتبه، لم يكن لديّ مَكوى، كنتُ ألبس بلايز لا تحتاج إلى كيّ، وأحرص عند نشرها أن تظلّ في وضع مستو معقول عند ارتدائها.

حاولتُ أن أكون لائقًا بوضع لا أعرف عنه شيئًا، وعرفتُ من المساعدة عنوان المنزل، قالت إن البيت قديم، وبسقف قرميدي أحمر، ولن أتوه عنه،

ويمكنني أن أسأل، ثمّ عرضتْ عليّ أن تقلّني بسيارتها "المتواضعة" على حدّ وصفها. شكرتُها، وقلتُ لها ألا داعي لذلك، ربمّا فكّرتُ في أن المكان الذي أسكن فيه "أقلّ من متواضع"، وبما أني والمساعدة لا نعرف شيئًا عن مقدار "تواضع" أحوال أي منا، لم أشعر أن هذا وقت مناسب لأعرف أو لتعرف أكثر.

وجدتُ البيت بسهولة، وكنتُ أشعر بضيق كبير، وأتمنّى أن تكون المساعدة هناك لتخفّف من توتّري، من خلف سور حجري، اتّصلتُ عليها، فردّتْ بصوت مرتفع تسأل أين أنا، فقلتُ لها أظنّ أنني عند الباب، فضحكتْ، وقالت: "طيّب، رنّ الجرس". ثمّ علتْ ضحكات في الخلفية، تخيّلتُ من ضجيجها أن هنالك جمعًا هائلًا من البشر، فزاد توتّري.

ثمّ انفتح الباب، ولم يكن هنالك من أحد خلفه، يفتح عن بُعد، كما فهمتُ، مشيتُ قليلًا لأواجه في فسحة أمام البيت المكعّب الجميل طاولة كبيرة حولها الجميع. ألقيتُ التحية، فرحّب بي المدير، وقال تفضّل، وكانت المساعدة قد حجزت لي كرسياً قبالتها. جلستُ، وعادوا إلى حديثهم.

أخذتُ أنظر في الأرجاء لتخفيف التوتّر، والمدير يتحدّث عن البيت والحديقة الجديدة وبركة السباحة. كان استعراضًا طويلًا لأشياء بدا واضحًا أنه يعتزّ بها. بعد دقائق قليلة، شعرتُ أنه يستمتع باستعراض ما يملك أمام أشخاص لا يملكون. شعرتُ ببدايات انزعاج من سلوكه، إلا أن احتفاء جميع الحاضرين جعلني أراجع مشاعري، وألوم نفسي على ذاك التفسير. وبدأتُ أبتسم مثل الجميع، ولكنني لم ألق أيّ سؤال يزيد من متعته في الحديث كما كان يفعل الحاضرون.

بدأتُ أفقد اتّصالي بالمجموعة، كانوا في حال، وصرتُ في حال أخرى، كنتُ ألوذ بدنيا كعادتي، أهرب من الدنيا إليها، تخيّلتني أحدّثها عمّا يوتّرني، عن الادّعاء الزائف والمظاهر الكاذبة والأشياء الحقيقية، وهي بالطبع توافقني، وتزداد إعجابًا بي حين أعبّر عن أفكارها، وأكشف لها أي نوع من الرجال أنا. كدتُ أغيب تمامًا عن الجلسة.

لحظات، وهدأت ضجّة توزيع المشروبات، ورفع المدير كأس الويسكي خاصّته، وتمنّى للجميع عشاء طيّبًا، لم أرفع زجاجتي، واكتفيتُ بهز رأسي.

ثمّ وبحذر شديد بدأتُ بالشرب من الزجاجة، في اللحظة التي سألتْني فيها مساعدة المدير سؤالًا، وأجابتْ عليه: "بدك كاسة؟ وإلا .. آه إنت بتحبّ تشرب من العلبة متلي".

كنتُ مثلها دون أن أدري.

شربتُ بحذر وبطء كبيرين. زجاجة واحدة، ثمّ مرّرتْ لي زوجة المدير الزجاجة الثانية. نظرتُ إلى الزجاجة الثانية طويلاً، هذه المرّة الأولى التي كانت قريبة بهذا الشكل، كنتُ أرى هذه الزجاجات على حوافّ الطريق، وأنا أنتظر سيارات الأجرة لتقلّنا من القرية إلى رام الله، ورؤيتها على أطراف شوارع القرية كان يستدعي ردّ فعل محدّدًا من العجائز تحديدًا، شتيمة لأولاد الحرام الذين يتكاثرون في القرية، ثمّ استدراك وقول إنهم بالتأكيد قادمون من القرى القريبة، وليسوا من أهل البلد، القرى القريبة لم تكن قريبة إلى قريتنا، بل إلى بضع قرى مسيحية يتوفّر فيها المشروب، ويسهل حصول شبابها وأطفالها عليه.

لا أدري على وجه التحديد متى أصبح شرب الكحول في قريتنا محظورًا، أو سريًّا، أبي الذي شرب حتّى داخ شابًا، لم يكن يحذّرني من شيء مقدار تحذيري من الشرب، كنتُ مطيعًا حتّى تلك الليلة.

كأن شيئًا كان يعبرني، وكنتُ بحاجة لما يسهّل عبوره، هنالك شيء يحدث، وأنا بحاجة لما يخفّف من وطأة حدوثه.

قاومتُ حاجتي لدخول الحمّام. وشعرتُ بخفّة بسيطة جدًا، لعلّني كنتُ بحاجتها لإكمال ذاك العشاء ومجاملاته وابتساماته.

بدأتُ أشعر أنها لحظات مناسبة للقطع مع ما كنتُ أعيشه، كأنني كنتُ أنتظر شيئًا ليحدث، ثمّ أنجز قرارات القطيعة، وهذا ما حدث.

صرتُ مؤهّلاً لأشياء جديدة، بل محتاجًا لها لأغدو مؤهّلاً لغيرها.

عدتُ إلى شقّتي خفيفًا، ولكنْ: زحمًا بحاجة لدخول الحمّام قبل أيّ شيء. فرّغتُ مثانتي، وبقيتُ واقفًا قبالة المرآة الصغيرة لدقائق، ثمّ ارتميتُ على السرير بملابسي. فكّرتُ بزوجة المدير قليلاً، ثمّ غلبني النوم.

قد تكون هذه بداية غير متوقّعة لمَن أصبح في ما بعد ساقيًا في بار مشهور في المدينة.

(٦)

٣ تشرين أول ٢٠٠٩

كشف في أثيوبيا:

جَدّ الإنسان لا يشبه الشمبانزي

رويترز

إن كنتَ لم تشاهد من الفتاة التي تبحث عنها إلا يدها ووجهها لمدّة لا تتجاوز الدقيقة والنصف، ثمّ شاهدتَها من الخلف تمضي في زحام من البشر، وهي تلبس لباسًا محايدًا يشبه الكثير من الملابس التي ترتديها النساء والفتيات، وكانت تضع على رأسها قبّعة تغطّي شعرها، فبلا شكّ ستدخل في دوّامة عند محاولة البحث عنها.

وستدخل في دوّامة أعقد حتّى لو لم تحاول البحث عنها.

ستغدو كل فتاة من الخلف احتمالًا لها.

ستظلّ تمنع نفسكَ، وتحتال عليها عند مرور أي فتاة أمامكَ، وعند سيركَ في أي طريق تشاركُكَ إيّاه نساء كثيرات.

صار المشي خلف أي فتاة مؤلمًا، يظلّ يجرّها إلى خاطري، ويفرضها عليّ.

كل الفتيات والنساء في شوارع رام الله، كُنَّ دنيا محتملة، ولا حلّ للهواجس ولا علاج لها إلا إسراع الخطوات، وتجاوزهنّ، ثمّ النظر بطرف العين للتأكد ممّا جعله التكرار مؤكدًا..

ليست دنيا.

وشعرتُ أن العمل مع شخص في تلك الحالة فرصة نادرة. وافقتُ، وبدأت العمل معه بخبرة صفر. تمامًا كما بدأتُ العمل مع المركز قبل أشهر بخبرة صفر. وقرّرتُ الاحتفاظ بالعملين، عمل نهار وعمل ليل، هكذا أتحكّم بالوقت الذي تداهمني فيه الحسرات.

لا ينام رأسي، يهمد بدني على الفراش، وأغفو، ولكن رأسي يقظ يفكّر، أعرف ذلك حين أستيقظ، يستولي عليّ شعور جميل، شعور متّصل بها، أتأكد من أن رأسي قضى ليلته معها، سعادة خفيفة لا أعرف كيف أفسّرها، ومع مضي دقائق الاستيقاظ تبدأ السعادة بالتلاشي، تمامًا كنسيان تدريجي لحلم. تختفي دنيا؛ ليحل محلها اختفاؤها.

باستثناء تلك الأيّام التي أستيقظ فيها على وقع خفيف من التفكير الليلي بدنيا، فإن كل أيّامي جري في جري، أستيقظ للأسئلة والانشغال والعمل خلفها.

ذاك التمطّي والتمهّل الصباحي وإيقاظ العضلات عضلة عضلة وراحة البال، أشياء لا أعرفها، أنهض كأنني في طابور عسكري، لأشهر طويلة منهكة، كنتُ أشعر أنني متأخّر دومًا.

متأخّر عن ماذا؟ لم أكن أعرف. وأقرب الإجابات أنني متأخّر عمّا أردتُ أن أكونه حين التقيتُ دنيا، ومتأخّر أيضًا عمّا أريد أن أكونه، إن حصل وعثرتُ عليها مرّة أخرى.

لذلك ومهما كانت الساعة مبكرة، السادسة أو الخامسة صباحًا، فأنا متأخّر.

الخروج باكرًا من الشقّة صوب أي شيء، كان يزيد من عواقب التفكير، والسير صباحًا في الطرقات، ومراقبة الناس يستيقظون مجبرين طلبًا لحياتهم، كل هذا الطقس اليومي الحافل من المشي والنظر والتفكير صار عالمي.

صرتُ أفسّر كل شيء في الدنيا من تلك المعطيات الصباحية. كنتُ صباحيًّا تمامًا، صباحيّ الكدّ والتعب، وأعرف أن البشر نوعان: مَن يضطرون للاستيقاظ قبل الشمس؛ ليطاردوا رزقهم، ومَن ينتظرهم رزقُهم ككلب أليف قرب أسرّتهم حتّى يستيقظوا.

كنتُ أستيقظ للمطاردة الأزلية، دون أن يكون "الرزق" هو ما ألهث خلفه.

هذا كله قبل أن أصبح كائنًا ليليًّا، جرّاء عملي في مطعم أبي وليم، قبل أن أصبح من توابع الليل الطويل، حتّى كدتُ أنسى أن هنالك نهارًا، كنتُ أفتتحه مع الشمس يوميًّا.

تعلّمتُ من بقية العاملين في المطعم، فكلّهم باستثنائي وشابّين يعملان في التنظيف، ذوو خبرة، وأبو وليم أوصاهم بالاهتمام بي، وسريعًا أخذتُ طريقي إلى البار، قلتُ لأبي وليم أريد أن أصبح "بار تيندر"، فضحك كثيرًا، ووافق، وطلب من الساقي تعليمي، عمليًّا كان الساقي يدرّب مَن سيستولي على وظيفته خلال فترة قياسية.

وبين حين وآخر كان أبو وليم يعلّمني شيئًا عن مزج الشراب وأنواعه، ولم تكن طلبات الزبائن متنوّعة، على رأي أبي وليم: "المزاج هنا مبتدئ، يرتبك إن تعامل مع أكثر من مذاق واحد". ولذلك كنتُ أقرب إلى ساق تقليديّ، يسكب من عبوات محدّدة في كؤوس محدّدة مع إضافة ثلج أو عصائر أو مشروب غازيّ أو ماء. ومع ذلك كله أراقب الناس، وأتساءل بسذاجة حارقة، إن كانت دنيا ستدخل من باب المطعم يومًا.

كان ما يمكن قوله لدنيا حينها كثيرًا، وهذا كان يعني ببساطة، أن ما عليّ فعله كثير أيضًا.

ولم يكن ما كان ممكنًا قوله لدنيا، إلا توقّعات افترضتُها لما قد تحبّ دنيا أو تريد أن تسمعه. صرتُ أتخيّل ما تريده دنيا، وأحاول أن أكونه.

بدأتُ أكون ما تريده دنيا، بل ما أظنّ أن دنيا تريده. دون أن أعرف منها إلا صمتها وصمتي في لحظات خاطفة.

نحن حصيلة خياراتنا، ما نعيشه ومَن نقابلهم، حصيلة الأمكنة التي نتحرّك فيها ونرتادها، ولذلك صرتُ حصيلة المطعم والعاملين فيه والزبائن، ضاق عالمي، ولو واصلتُ على تلك الوتيرة، لصار أضيق وأضيق. الكوّة الوحيدة المشرعة على فضاء واسع كانت دنيا.

أراقب الناس، وأتنبّه إلى طريقتهم في التعامل مع حبيباتهم، وأقنع نفسي أنني قادر على معاملة دنيا بما يليق بها، سأعرف الطُّرُق المختصرة إلى ما تحبّ، وأعبرها، سأكون لها كما لم يكن ذَكَر لأنثى، ولا رجل لامرأة. سأعطيها حياة أشبه بحلم. سأكون لها بكُلّيّتي.

صرتُ أنبذ الناس، أعيش داخل نفسي، في عالم من دنيا وأنا، أبغي صنعه؛ ليكون كما تحبّ.

تغيّرت طريقتي في الكلام. صرتُ أكثر نضجًا وتأدبًا. وكذلك طريقتي في اللبس. أشعر بميل سرّيّ نحو صورة رجل أربعينيّ بهندام أنيق وشيب خفيف، يعرف كيف يمشي قرب امرأة، ويهزّ برفق قلبها مع كل حركة بالغة التهذيب وكل لفتة لا يُدركها المبتدئون.

هذّبتْني دنيا، وأعادتْ تشكيلي دون أن تعلم. كنتُ كأرض تجهّزتْ بكامل خصوبتها واستعدادها تنتظر المطر. والمطر لم يكن إلا دنيا.

ذاك الاعتقاد الحاسم بأنها في مكان ما تعبر طريقًا طويلًا سينتهي عندي، لم يكن يزحزحه شيء.

كل ما هو خارجي مشكوك فيه ومؤقّت وزائف، ولا حقيقة إلا في داخلي، حقيقة أن اليد التي نقرت كتفي ستظهر وتستقرّ على صدري، ستكون هي وصاحبتها لي، وأكون لها.

أحدّثها عن رواية قرأتُها خلال ساعات العمل، عن فيلم لا يزال يدور في خاطري، عن رأيي بالأشياء، عن موقفي من كل شيء. أحدّثها لا تمتمة ولا همسًا، بل حديثًا واضحًا، يمكن لمَن حولي سماعه.

أحكي لها نكاتًا أعجبتْني، وأعتذر ضاحكًا بعد سرد النكات الوقحة. أتخيّلها تلبس الألوان التي تعجبني، وأبدي رأيي بها، تسأل وأجيب، أسألها عن الأكلة التي تحبّ أن أعدّها لها، وأقرّر أنني أبرع مَن طبخ لحبيبته.

من موقعي خلف البار، شاهدتُ كيف ينتهي الحديث بين مَن يُفترض أنهم عشّاق بعد لقاء أو لقاءين، يضطجع الملل على الطاولة بينهما، كطبق كبير بارد، لا يرغب به أحد. تنتهي النظرات والكلمات خلال دقائق، ثمّ يغيب كل منهما في نظرات طويلة إلى آخرين وأخريات على طاولات بعيدة. لاحظتُ التنهدات المفاجئة التي يطلقونها كأنهم انتهوا من شيء ما تمنّوا لو أنه لم ينته، وهذا الشيء ليس إلا جولة تفكير طويلة، يتخيّلون فيها حياة أخرى وأشخاصًا آخرين غير الجالسين أمامهم على الطاولة نفسها، يسرحون بما ضاع، واحتمالات تعويضه. يتساءلون بقلق، وتفضحهم عيونهم، عن حياة طويلة مع مَن ينتهي الحديث معهم في دقيقتين. يتنفّسون تنفّس مَن أدرك أن ما يتمنّاه ليس ما يحصل الآن، وليس مع الجالس قبالتهم.

لو جاءت دنيا، فلن نعرف لا مللاً ولا سأمًا، سأملأ كل شيء بكل جميل، سأحدّثها عن كل شيء، وسأسمع منها، ستتحوّل الأحاديث العادية جدًا عند الناس إلى قصص مثيرة وأسرار دفينة حين نتحدّثها، سينتهي الوقت قبل أن تفرغ رغبتنا، سنقول كل شيء كأنها أول مرّة.

سأحدّثها بكل حديث جال في خاطري، ولم أُطلع عليه أحد، سأحدّثها

بالكلام الذي لا يمكن أن يكون إلا لها. سأحدّثها عن غيابها وعني في غيابها. سأحدّثها كأنني لا أريد منها إلا الحديث، سأحدّثها حتّى ينتهي صوتي، صوتي الذي أبلعه منذ أشهر.

هكذا عشتُ معها لعدّة أشهر، ونسيتُ الدنيا.

فوجئتُ بأحد زملاء الجامعة أمامي في المطعم، يسلّم عليّ، ويهنئني بالعام الجديد، ويسأل عن أخباري بلهفة، حين رأيتُه وعرفتُ أنه تخرّج، أدركتُ أن ثمّة سنة تُطوى بكل سهولة، وأن الزمن لا يزال يمشي، ولا يستسلم لجدولي المزدحم الذي يصل نهار الأسئلة والآراء بليالي سكب الكؤوس.

منذ بدأتُ أجري خلف دنيا، فقدتُ الشعور بأي شيء سوى الجري والاعتقاد غير المفهوم بأنني أقترب.

(٨)

٦ شباط ٢٠١٠

نادي برشلونة يفوز على نادي خيتافي بنتيجة ٢-١ ضمن الجولة ٢١ من الدوري الإسباني

بدا واضحًا لأبي وليم أن الأمور أعقد ممّا تخيّل، هذه ليست سوقًا مفتوحة، وحجم المشاكل التي تراكمت منذ وصولي أشاع أجواء التوتّر والحدّة على كل شيء، لم تكن نزهة براتب، كان عملاً متعبًا وليلاً طويًلا من الوقوف، وفضّ مشاجرات السكارى، والحذر من كونهم ذوي مراكز وسلطات، ثمّ إقفال الحسابات والنوم المتقطّع، ومع هذا كله مَن لا أتقن التعامل معهم من الزبائن. ولم تمض أسابيع كثيرة حتّى عرفتُ أنواعًا جديدة من التعب.

لم يتوانَ أبو وليم في المساعدة ومحاولة جعل البار مكانًا مريحًا لي، كنتُ ورقته الرابحة كما يقول زبائننا الدائمون، وكما يقول زملاء العمل حين ينصحونني بطلب زيادة أو يوسّطونني حين توجّههم بطلب إليه. حين تكاثرتْ عليّ أوجاع الرقبة والكتفين استنتج أبو وليم أن السبب هو قصر العارضة الرخامية خلف البار؛ حيث أتحرّك وأعمل، وسارع لافتتاح ورشة صغيرة، لجعلها مناسبة لطولي، وبما يضمن أوجاعًا أقل.

وقف أمام الجميع، وقال بفخر: "صارت مناسبة للمعلّم". هكذا يناديني في أوقات الربح والراحة النفسية. لم أعد مضطرًا لشدّ كتفي ورقبتي لأسفل.

صارت وقفتي أفضل، وشعرتُ ليلتها حين تمدّدتُ على الفراش أن دنيا أيضاً تشكر أبا وليم على حركته بالغة الرقّة والعناية.

في فترة قياسية بدأتُ أفقد شعوري بالزمن. كان يمكنني قبل أن أرتمي للنوم أن أفكّر للحظات في ما أفعله وماذا أريد منه، وأنام من فرط التعب قبل أن أضع حتّى إجابة واحدة.

في الشقّة وضعتُ أشياء أقنعتُ نفسي أن دنيا تحبّها، بالكاد كنتُ أصرف شيئًا من المال المتوفّر في حساب مصرفي فتحتُه حتّى أتوقّف عن تخبئة النقود في خزانة الملابس.

كنتُ ألبس، وأحلق ذقني، أو أتركها، وأنظّف نفسي، وأشتري عطرًا. هذا كله من أجل دنيا، كل شيء كان لدنيا، دون أن تكون هي. والمشي إلى المطعم من أطول طريق علّها تعبر الطرقات، أو علّ المفارق وخطوط عبور المشاة تتعطّف عليّ بصدفة، فألتقيها.

والزيارات المتقطّعة للجامعة كانت دون وعي تبحث عنها. كنتُ أحافظ على نظافة الشقّة كمَن ينتظر زائرًا، وأنظر في المرآة لأتأكد إن كانت هيئتي ملائمة، وأراقب وزني، مؤمنًا أن كل هذا ممّا تريده دنيا.

حتّى إنني كنتُ أتحدّث معها، عن تعب قَدَمَيّ من الوقوف الطويل في المطعم، وعن اتّصال أمي القصير جدًا صباحًا، وعن اضطراري لزيارة أهلي للسلام على أخي العائد في إجازة قصيرة من الخليج. أحدّثها عن افتقاري لأي قدرة على مجاملة الناس، ومنذ انتقلتُ للعمل في المطعم لم أعد قادرًا حتّى على العبارات البسيطة التي كنتُ أقولها ردًا على مجاملة هنا أو حديث هناك.

كنتُ أتحدّث إليها في خاطري دومًا، أقول كلامًا كثيرًا كثيرًا، أقوله بطلاقة هائلة، ثمّ فجأة أتذكّر صمتي أمامها، فأعرف من أين يأتي كلام الليل هذا كله.

غام الزمن أمامي، وفي ذهني، لا أدري كيف مضت الأيّام وتوالت، كنتُ دومًا بحاجة لمنبّه خارجي يوقظني، وهذا كان التقاءً بمحض الصدفة بصديق قديم أو مَن يعرفونني وأنا أجول في الطرقات، أو أي شيء ذي علاقة بالجامعة يذكّرني أنني انقطعتُ عنها، أو اتّصالات الأهل وأخي، حين أتذكّر أنني في ورطة، فهم لا يعلمون شيئًا عمّا أفعل، أيّام من التنكّر والمناورة ودنيا فقط. عالمي كان يصغر ويضيق بطريقة لا أفهمها الآن، حتّى إنني لا أعرف شيئًا عمّا يدور حولي، إلا عند ورود منبّه مزعج، وهذا لم يتأخّر.

اتّصل والدي بنبرة مختلفة، يقول إنه في رام الله، ويريد رؤيتي. ذهبتُ إليه، انتظرني قريبًا من مواقف سيارات الأجرة التابعة للقرية. خريطة حركة أبي في رام الله ثابتة، ولا يغيّرها، ولذلك فهو بالكاد يعرف شيئًا بعيدًا عن دائرته التي لم تتغيّر منذ شبابه.

شعرتُ بمرور الوقت حين رأيتُه، كانت أسابيع قليلة تفصلني عن المرّة الأخيرة لزيارته وأمّي، إلا أنه بدا أكبر بكثير. وأنا أقترب منه شعرتُ بوخز في صدري، وفكّرتُ لأول مرّة منذ سنوات باحتضانه أو تقبيله إلا أنني وصلتُ إليه قبل أن أحسم تفكيري، سلّمتُ عليه باليد كما دومًا، وسألتُه إن كان تناول فطوره، فضحك لأنه يعرف أنني أعرف أنه تناوله قبل ساعات، سألتُه إلى أي مكان يحبّ أن نذهب، فقال إنه يريد أن يسألني عن شيء بسيط، ويمكننا أن نتمشّى في الشارع أو داخل موقف سيارات النقل العمومي.

تحدّث أبي لدقائق عن الحياة والمسؤولية والحذر والعمل السياسي عديم الجدوى اليوم وعن الوضع الراهن وعن خبرته وخلاصتها، دون أن أفهم مغزى حديثه، فقاطعتُه مستفسرًا عن سبب هذا الحديث. فقال بهدوء:

- "احنا بعد اللي صار مع صلاح حابّين نتأكد إن الأمور عندك ما فيها مشاكل.."

"مَن صلاح؟" سألتُ نفسي، ثمّ تذكّرتُ أنه يقصد صلاح زميل السَّكَن السابق، أبي لا يعرف شيئا عن انتقالي للسَّكَن وحيداً.

قلت: "ماله صلاح؟"

بدت ملامح الحيرة على أبي وقال: "ما بتعرف!!"

تنبّهتُ إلى أن شيئًا مهمًا حصل، وخشيتُ أن تكون له تبعات على ما يعرف أبي وعائلتي من أحوالي، فقلت:

"هو من فترة طلع من الشقّة، وما رجع".

بدت علامات استغراب على وجهه بدّدها تنهّده بارتياح، وقال متخفّفًا من حذره ومبرّرًا قلقه: "إحنا بس قلقنا عليك، فقلت بحكي معك".

بدا وكأن الحديث انتهى، ولكنني لم أعرف ما حدث مع صلاح. فقلتُ: "أنا فعلاً ما بعرف شو صار مع صلاح؟"

ردّ أبي وكأن الأمر لا يحمل أية أهمّيّة: "قالوا بالأخبار إنهم اعتقلوه مع خلية خطّطت لعمليات كبيرة في إسرائيل.."

عبرت ذهني صورة لصلاح متلذّذًا بمشهد جنسي في فيلم شاهدناه معًا، تذكّرتُ الفيلم Butterfly Effect ٢ أعجبه المشهد بطريقة غريبة، وظل يعيد مشاهدته مرارًا دون ملل.

شاردًا ومنسحبًا إلى ذكرياتي، سلّمتُ على والدي، وبدا وكأنه قال إنه اطمأنّ، ولا شيء يُزعجه.

مضيتُ سريعًا إلى المركز، أبحث في الإنترنت عن اسم صلاح، علّني أجد شيئًا عمّا حصل معه، وفوجئتُ بأن الأمر أكبر بكثير من تبسيط أبي.

صلاح متّهم بقيادة خلية أمنية، تنسّق مع تنظيم في الخارج، ومنذ سنوات، يُدخِلون الأموال، ويشترون الذخيرة والسلاح، ويؤمّنون مواقع في مناطق مختلفة من ريف الضفة.

فيديوهات من التلفزة الإسرائيلية عن خطورة الخلية واحتراف أفرادها والخسائر الهائلة التي كان يمكن أن تقع لو نفّذت عملياتها.

كلام كبير وخطير. تفجير في ملعب كرة قَدَم! بل ومحاولات لتجهيز صاروخ يُطلق على طائرة في مدرج مطار بن غوريون!!

كنتُ مذهولًا تمامًا، علاقتي مع صلاح عادية، زملاء سَكَن بالصدفة، وأعرف عن ذوقه في صدور النساء ومؤخّراتهنّ أكثر من أي شيء آخر، حتّى إنني لا أعرف اسمه الثلاثي، ولا شيئًا عن حياته. أنا بالكاد أعرفه.

موظّف في شركة اتّصالات، شابٌ ككل شباب هذه البلد، شابٌ مثلي أنا!

هل هذا هو نفسه الذي تضعه الصحافة الإسرائيلية على رأس هَرَم شَبَكَيَ مليء بالوجوه المتجهّمة؟!

حتّى عمره لم أكن أعرفه، يقولون هنا إنه في ٣١ من العمر، وأنا ظننتُه في أواسط العشرينيات!

فكّرتُ بالاتّصال بنائل. لم أكن متأكدًا إن كان رَقْمه معي، أو أنه لا يزال محتفظًا به، فكّرتُ بالذهاب للشقّة، ثمّ تردّدتُ. الجيش داهمها كما تقول الأخبار، وصادر الحواسيب.

حاسوب صلاح تحديدًا. هل سيجد فيه الجيش شيئًا سوى الأفلام الجنسية التي يحبّ صلاح مشاهدتها بصوت مرتفع جدًا!

لن يفارقني صلاح منذ ذاك الصباح، حياتنا كانت متشابهة، الخطّة المسبقة لسيرنا كانت متشابهة، كان يمكن أن أكون مكانه.

ما استبدّ بعقلي وتفكيري هو انشغال صلاح بكل هذه الأشياء الهائلة في وقت توقّف فيه الجميع عن فعل شيء، الأحوال هادئة، الناس أُنهكوا في السنوات الماضية، والكل يتوسّل وقتًا مستقطعًا، بل ويتلهّف عليه. صلاح الذي كان صفحة بيضاء مشرعة، يغيم في ذهني، ويغرق في الغموض.

لماذا يُقدِم صلاح على فعل كهذا؟ لماذا أسأل هذا السؤال كأن كل ما يجري حولي لا يعنيني؟ كم سيقضي صلاح في السجن؟ لماذا يضحّي بكل شيء؟ ومن أجل ماذا؟ ثمّ ما هو "كل شيء" هذا الذي يضحّي به صلاح؟

لم تكن هذه الأسئلة لتخطر على بالي، وأنا أحيط رقبتي بكوفية التنظيم قبل أشهر في الجامعة، كان كل شيء رخيصًا أمام فعل شيء كالذي فعله صلاح، كان يمكن أن أخطب في الطلاب مبجّلًا أمثال صلاح مرفقًا باسمه كل صفات البطولة والشجاعة والعَظَمَة. لماذا لم يعد ذلك كله مفهومًا بالنسبة لي! هل تكفي بضعة أشهر ليتحوّل أهمّ فعل في الوجود إلى فعل بلا معنى!

كم مضى عليّ، وأنا ألاحق دنيا!

(٩)

٢٦ شباط ٢٠١٠

"يمّا ما سمحو لنا ندخّل الأواعي لأنو الألوان مش مسموحة، أنا آسفة سامحني، ما بعرف بهاي الشغلات، اتصلت على أخت الأسير أحمد السعدي، وقالت لي إنو بس اللون البني والرمادي مسموحين، بالزيارة الجاية رح أجيبلك كل شي. الكل بخير ومشتاقينلك، يا بطل، وعملت لأخوتك وأبوك الطبخة اللي بتحبها متل ما طلبت مني بالزيارة. إنت بتؤمر، يا روحي"

أمّ أسير متحدّثة عبر راديو أجيال

كنتُ أفكّر في اليوم عشرات المرّات بالبحث عن أهل صلاح لسؤالهم عنه، وأظلّ أنظر في الصور التي جمعتُها له من مواقع الأخبار والصحف، أخبار تتحدّث عن عدّة مؤبّدات في السجن، وأخرى تتوقّع أن يمتدّ التحقيق لأشهر. لم يكن صلاح شيئًا يذكر خلال سَكَننا معاً، ولكن ما أقرؤه عنه يجعله قريبًا بطريقة أخرى. كأنه يعرض أمامي خطّة أخرى لعيش هذه الحياة.

أفكّر في أهله، كان مُعيلهم، كيف يتدبّرون أمورهم اليوم؟ هل أرسل لهم شيئًا من المال؟ ربمّا يوقعني الأمر في مشاكل خطيرة.

منذ لقائي والدي ودخولي في أسئلة صلاح، صار اتّصال أهلي يوميًّا، كأن ما ادّعاه أبي من اطمئنان عليّ بعد لقائنا لم يكن إلا بداية القلق الحقيقي. اتّصال لدقيقة على الأكثر، وأسئلة روتينية مملّة. وصرتُ لا إراديًّا أتأفّف وأنزعج بمجرّد رؤية رَقْم أبي أو أمّي على الهاتف.

وبعد جولة تأفّف من اتّصال صباحيّ وارد من رَقْم أبي، خرجتُ إلى ساحة تنزيل البضائع خلف المطعم؛ لأردّ عليه، فإذا به أخي، فوجئتُ من عودته غير المعلنة من الخليج هذه المرّة، وفي هذا الوقت، وحاولتُ إبداء سعادتي بعودته واتّصاله، إلا أن لهجته الحادّة والجدّيّة أقلقتْني، وتحديدًا حين طلب مني القدوم للبيت سريعًا، سألتُ بتوتّر ما الذي حدث، فقال تعال ونتحدّث، سألت عن صحّة أبي وأمّي، فقال إنهما بخير، ويجب أن أحضر سريعًا، وإن احتجتُ لمَن يقلّني، فسيرسل تاكسياً لأخذي، فقلتُ لا. بدّلتُ ملابسي، وتوجّهتُ إلى القرية.

بدا واضحًا أن لقاء أبي العابر قبل أيّام لم ينته بمغادرته.

هنالك كان أبي وأمّي وأخي العائد من الخليج جالسين في غرفة الضيوف، التي لا تجلس فيها العائلة دون ضيوف إلا إن كان الأمر مصيريًّا. سلّمتُ عليهم، واحتضنني أخي بانفعال غير حقيقي، وجلستُ، وهنا بدأ أخي بالحديث:

"من ١٠ شهور وأنت تارك الجامعة. شو بتعمل؟"

كان السؤال مباغتًا، تنفّستُ، وفكّرتُ في أنه قد يكون يعرف كل شيء، ولا حاجة للكذب. والأهمّ أنني أدركتُ بالضبط كم مضى على مغادرتي الجامعة ودخولي في دوّامة.

"بشتغل".

كأن هذه كانت كلمة سرّ لانفجار غضبه.

"ليش بتشتغل؟ ووين بتشتغل؟ واللي أنا بدفعلك إيّاه كل شهر ليش؟"

انفلتت الأمور، بدأت أمّي بالبكاء والتمتمة بعبارات تحسّر.

وبدأ أبي يدقّ عصاه بالأرض، ويتململ.

تمالكتُ نفسي، وقلتُ إنني شعرتُ بحاجتي للعمل، لفعل شيء له قيمة، وأنا أحقّق نتائج جيدة.

هنا بدأ أخي في ذِكْر الصيت القبيح لوظيفتي ومكان عملي، صار خبيرًا، ويعرف جيدًا، وأخذ وهو يخفّف من حدّة حديثه يُقنعني أنني متوهّم، وأن عليّ ترك كل شيء والعودة للجامعة.

قلتُ له إن هذا لن يحدث.

خلال دقائق ضاع أي منطق، وبدا أن سُبُل التفاهم بيننا انقطعتْ.

أخذ أخي يدور في الغرفة، وهو يصرخ ويحكي كلامًا كثيرًا، يدعمه أبي بعبارة أو تأكيد، وتدخل أمي الجوقة بدعاء وبكاء. استمرّ أخي في الحديث لأكثر من نصف ساعة دون أي توقّف، لم أكن قادرًا على فَهْم ما يقول، توتّر هائل يتصاعد في الغرفة، وأشعر أن دمًا كثيرًا يسخن بسرعة فائقة.

ما اتّضح لي ولأول مرّة خلال جولة الصراخ الطويلة أن أهلي اختلفوا دون أن أدري، صاروا أكثر قلقًا وغضبًا، أبي وأمّي يصلّيان، وأخي أيضًا، ولغتهم اختلفتْ، يحضر الله فيها كثيرًا.

نهضت أمّي لإعداد القهوة، تبعها أبي وأخي، شعرتُ أنني ضيف فعلًا في غرفة الضيوف.

"بشتغل".

كأن هذه كانت كلمة سرّ لانفجار غضبه.

"ليش بتشتغل؟ ووين بتشتغل؟ واللي أنا بدفعلك إيّاه كل شهر ليش؟"

انفلتت الأمور، بدأت أمّي بالبكاء والتمتمة بعبارات تحسّر.

وبدأ أبي يدقّ عصاه بالأرض، ويتململ.

تمالكتُ نفسي، وقلتُ إنني شعرتُ بحاجتي للعمل، لفعل شيء له قيمة، وأنا أحقّق نتائج جيدة.

هنا بدأ أخي في ذِكْر الصيت القبيح لوظيفتي ومكان عملي، صار خبيرًا، ويعرف جيدًا، وأخذ وهو يخفّف من حدّة حديثه يُقنعني أنني متوهّم، وأن عليّ ترك كل شيء والعودة للجامعة.

قلتُ له إن هذا لن يحدث.

خلال دقائق ضاع أي منطق، وبدا أن سُبُل التفاهم بيننا انقطعتْ.

أخذ أخي يدور في الغرفة، وهو يصرخ ويحكي كلامًا كثيرًا، يدعمه أبي بعبارة أو تأكيد، وتدخل أمي الجوقة بدعاء وبكاء. استمرّ أخي في الحديث لأكثر من نصف ساعة دون أي توقّف، لم أكن قادرًا على فَهْمِ ما يقول، توتّر هائل يتصاعد في الغرفة، وأشعر أن دمًا كثيرًا يسخن بسرعة فائقة.

ما اتّضح لي ولأول مرّة خلال جولة الصراخ الطويلة أن أهلي اختلفوا دون أن أدري، صاروا أكثر قلقًا وغضبًا، أبي وأمّي يصلّيان، وأخي أيضًا، ولغتهم اختلفتْ، يحضر الله فيها كثيرًا.

نهضت أمّي لإعداد القهوة، تبعها أبي وأخي، شعرتُ أنني ضيف فعلًا في غرفة الضيوف.

تمتماتهم كانت واضحة، أمّي تقول إن الحلّ ربمّا في الزواج، وإلا لماذا أنا مستعجل على العمل والتعب وجمع المال. علا صراخ أبي وأخي. رتّبتُ الأمر في ذهني، أكثر ما يؤلم أبي أنني تركتُ الجامعة، هذا ظاهر حديثه، أما أخي؛ فيكاد ينفجر من طريقتي بالكلام، من المسار الذي اخترتُه لنفسي، لديه مشكلة في السيطرة على حياتي، وماذا أفعل وأمّي وأبي يوافقانه؟!.

قبل ساعة كنتُ أعيش بلا أب فعلي، أبي البيولوجي تقاعد، وأبي الوظيفي استقال حين رُزق بأبناء، وأمّي انحشرت في حدود القرية. الآن أنا بأبوين وأمّ يريدون وصاية كاملة.

ضحكتُ مع نفسي بتوتّر. كانت المرّة الأولى والأخيرة التي أضطر فيها لمواجهة عائلتي. كنتُ محظوظا دوماً بعائلة مخفّفة موجودة وغير موجودة، وكان ما يحاولون فعله في ذلك اليوم بمثابة عملية تبنّي طفل متأخّرة بأكثر من عشرين سنة، أما ما كنتُ أحاول فعله؛ فهو إعادتهم إلى الحالة الأولى.

عادوا مع قهوة ونبرة مخفّفة، ولكنْ؛ بمضمون أشدّ، تخيّلتُه الحوار التقليدي الذي يضطر كثيرون وكثيرات مثلي لخوضه عند ولادتهم الثانية، خروجهم من رحم العائلة إلى حياتهم. حاولتُ أن أكون هادئًا.

مطالبهم، العودة للجامعة والعودة إلى البيت، فالأوضاع هادئة بعد سنوات التوتّر مع الاحتلال والقرية قريبة من رام الله والمواصلات مؤمنة دومًا، أما عناصر الترغيب؛ فهي وعد بزيادة مخصّصاتي الشهرية التي يعطيني إيّاها أخي، وبعد التخرّج، فلي كل ما أريد.

أهلي تغيّروا، لستُ وحدي مَن يتغيّر.

فكُرتُ بدنيا، بل ظهرتْ أمام عيني، وجهها يكاد يلمس وجهي، شعرتُ بأنها قريبة، ولا يمكنني التخلّي عنها. لا يمكن لأهلي أن يكونوا الحائل بيني وبينها، أن يقفوا جدارًا في مسار الجري قبيل نهايته! أحسستُ بأنفاسها على وجهي، قريبة جدًا، أقرب من قبلة وشيكة.

قلتُ لهم بكل الحزم الذي لملمتُه من عقلي وجسدي ووجه دنيا، إن لي حياتي وأنا أتدبّر أمرها. وليطمئنّوا عليّ.

كانوا خائفين، ويعتقدون أنني أخفي الكثير، أو أمضي إلى ما هو أسوأ بالنسبة لهم من حالي يومها.

عاد الصراخ.

وقفتُ، قلتُ إن لدي عملًا، ويجب أن أخرج.

قال أخي إنني إن خرجتُ، فأنا أختار ألا أعود..

كانت عبارة قوية، تصلح في فيلم أو مشهد تمثيلي، وتليق بولادة جديدة.

خرجتُ، ولم أعد.

وظلّت أمي في اتصالنا الهاتفي الوحيد كل أسبوعين أو أكثر مع أمّي تظل خلاله تحاول إقناعي بالعودة للجامعة، تريد أن تسمع مني وعدًا بالعودة قريبًا، وتطمئنني بأن أبي سيرضى عني بمجرّد عودتي للجامعة، وتذكّرني في كل مرّة بأن أبي تخلّى عن كل شيء حتّى أتعلّم أنا وإخوتي. باع أبي الجزء الأثمن من أرض ورثها عن أبيه لتسهيل دراستنا.

تُذكّرني أمّي بأن أبي لم يبقَ له أرض، استولت المستوطنات القريبة على جزء منها، وباع الباقي؛ ليعلّمنا. لم يوجعه شيء أكثر من تعطّل دراستي، أنا أفرّط بالشهادة التي يفكّر هو بها دومًا، الشهادة التي ستمكّنني من الوظيفة، الوظيفة التي قد يمكّنني راتبها بعد سنوات من شراء شقّة في رام الله، أزرع على نوافذها زهورًا تافهة، أو أقترض مبلغًا كبيرًا لأشتري قطعة أرض. هكذا يرى أبي المسار الطويل دون أن يلحظ أي سخرية فيه، لا هو ولا أمّي.

حين دخل أبي التنظيم توقّف عن الفلاحة، كان النضال للدفاع عن الأرض وانتزاع الحقّ فيها، في إحدى محصّلاته ابتعادًا عن العلاقة اليومية معها،

ومن ثمّ؛ تحويلها من مصدر حياة إلى رصيد مجمّد، نحتاجه في الضرورات، وننتظر أن تزيد السنوات من قيمته، وكانت الضرورة الأهمّ تعليمنا.

في صالة بيتنا لوحة زيتية كبيرة لعائلة ممتدّة عائدة من أرضها بثلاثة حمير تئنّ تحت شوالات منتفخة، وأطفال يتعربشون السناسل، يمكن أن تكون تلك اللوحة الزيتية آخر صورة لعائلة أبي، لم يبقَ لنا من الفلاحين إلا اسمهم. كأنها صورة لأجداد بعيدين، مع أننا كنّا مَن في الصورة قبل سنوات قليلة فقط.

زيتوننا تقطفه عائلات من قرى أخرى على نسب محدّدة، وحين يجلبون الزيت إلى البيت أشعر بملامح ارتياح على وجه أبي، ليست سعادة، بل ارتياحًا يشبه ملامح الوجه بعد شرب الماء، بعد ملء نقص ما. ربمّا كان ذاك الرغبة الدفينة غير الواعية والمتوارية في التحوّل إلى مالك أرض، يعمل فيها آخرون.

في المحصّلة كل شيء اختفى، الأرض والملك والنقص والرغبة، على عتبات جامعة تركتُها بحثًا عمّا اعتقدتُ أنه أهمّ وأجدى. تصرّف أبي بالأرض التي أعطاها إيّاه أبوه، وتصرّفتُ أنا بالجامعة التي أعطاني إيّاها أبي، كنا متعادلين غير أنني كنتُ أقطع السلسلة، ولا أنوي توريث أحد شيئًا. على الأقل هذا ما كنتُ أريده وتواطأتْ معه دنيا في عقلي.

قلتُ إنني لم أعد إلى البيت بعد ذاك اليوم، ولكنْ؛ في الحقيقة لم تعد نسخة تلك الأيّام مني إلى أبي وبيته، أما النسخة التي استجدّت بعد سنتين تقريبا؛ فكانت محلّ ترحيب، وعادت لتكفّر عمّا مضى، ولتنعم برضى أبي قبل أسابيع قليلة من وفاته، شيء كان بلا قيمة عند النسخة الأولى، ولكنه أثمن ما فعلتُ، عند النسخة الأخيرة.

(١٠)

١١ آذار ٢٠١٠
السيدة الفرنسية الأولى كارلا
بروني تؤكد أن الرئيس الفرنسي
نيكولا ساركوزي لا يمكن أن
يخونها أبدًا

يو بي آي

أدركتُ على مراحل متلاحقة أنه لم يبقَ في حياتي غير دنيا، صارت كل شيء، وبدأتُ أحمّلها أحمالًا هائلة ممّا أشعر به، وأحسّه، ثمّ أعاتب نفسي على تحميلها أكثر ممّا تحتمل، ثمّ أعتذر لها.

أغضب منها حين أشعر بالتعب يفتك بي. ألومها لأنها لا تبذل جهدًا للتخفيف عني، أقتنع أنها وحدها لي ومعي، فأعتذر منها، وأقول لها إن هذا يكفي، لا أريد سواك، أنا مستغنٍ بك عن كل شيء. أغار عليها ممّا لا أعرفه، وأعاتبها، أشكو لها فأرتاح، وأشكو لها فأتعب.

في المسافة بين المطعم والشقّة، تتجمّع في قلبي مشاعر الدنيا كلها، في عشر دقائق من المشي، أشعر بالغبطة والحزن، بالفقد وبالهجر وبالترك، بالنشوة وبالفرح وبالمتعة، بالشوق وبالانتظار وبالأمل وبالرغبة، وبالخسران والأسى، وبالغباء وبالسذاجة وبالعته، وبالثقة وباليقين وبالقوّة. أشعر أنني فهمتُ الحياة، أدركتُ كم هي معقّدة، بعد أن كانت بسيطة واضحة. أشعر أنني فهمتُ وعرفتُ ونضجتُ وكبرتُ، ثمّ في طرفة عين، أشعر بالجهل وبالوَهْم، وبالضحالة.

لم أكن مؤهّلًا لسؤال نفسي كيف كنُت قبل دنيا، وكيف صرتُ بعدها، كان هذا ما يحدث أمامي وفي داخلي، ولكنْ؛ دون السؤال عنه، إلا أنني كنتُ أشعر مع مضي الأيّام دون وقوف دنيا أمامي لأقول لها شيئًا، أن الحياة بعد دنيا باتتْ أعقد وأصعب.

في الأيّام الأخيرة، كأن كل المشاعر والحالات التي خبرها قلبي وعقلي جُمعتْ في قِدر كبير، وأُوقدَتْ تحتها نار هادئة، حتّى ذابتْ واختلطتْ، وسال منها شعور وحيد مركّب، هو حزن من نوع خاص، حزن غير مبرّر، يترسّب على سحنتي في ليالي نهايات الأسابيع.

في آخر تلك الليالي، ينسى الناس أنفسهم أو يتركونها على سجيّتها، ويبدأ عبث كنتُ فضوليًّا تجاهه في أول أيّامي، ثمّ صار عاديًّا، السهارى يفكّرون بختام للياليهم، ويبحثون عمّن يشبهونهم، أو يشبهون أحوالهم، حاجتهم لشركاء يزجون معهم بقية الليل، ويفرغون فيهم ما فاض من طاقة طلبًا لمتعة، كأن نصيب الناس قد وُزّع، ولم يحظوا بشيء، وهم في ما تبقّى من وقت يحاولون تحصيل شيء لأنفسهم.

أول الأمر ظننتُها منهم، تلك التي جلستْ قبالتي وشربتْ وشربتْ، ولم تُزحزح نظرها عني. حصلتْ أمور شبيهة إلا أنني كنتُ حازمًا في بترها قبل أن تنمو، ومَن كنّ قبالتي استسلمنَ سريعًا، هذا جعلني أدرك أنني لم أكن مقصودًا لذاتي. أما هذه؛ فلم تتزحزح.

غنجُها لم يكن مألوفاً، ولهجتها غريبة عليّ، أكبر مني بعشر سنوات على الأقل. كان إصرارها أقوى من تفلّتاتي، والأهمّ أن كل إشاراتها لم تكن تحمل أي إمكانية لتفسيرٍ غير رغبتها، بخلاف إشارات السكارى هنا، مهجوسة قلقة لا تقول شيئًا، والكل يخشى من تبعثر اعتداده بنفسه، إن رفضتْه إحداهنَ، فكيف الحال بالنساء والفتيات، هنّ أكثر تحفّظًا، حتّى مع مشروبات ثقيلة، أُنزلها من الرفوف العليا.

ظلّت تقترب، وتحاول تحويل كلامنا من سؤال وإجابة إلى حوار، ثمّ بدنها الذي يقول كل شيء، وظللتُ متماسكًا كما يليق بساقٍ محترف.

في اللحظة التي وضعتْ يدها على يدي، وأنا أعدّل من وضع الكرسي القريب، شعرتُ لأول مرّة منذ دنيا أن هنالك إناثًا في هذا العالم. كأنهنّ اختفينَ خلف دنيا، ولم يعدنَ موجودات، سوى خواطر عابرة أو صور تكميلية لملء فراغ المشاهد والحياة. أما كموضوع للشعور والإحساس؛ فلم يحدث ذلك قط.

سحبتُ يدي بهدوء ولطف، ولأنها لم تقل شيئًا، لم أقل شيئًا، وانسحبتُ إلى مكاني لاستكمال العمل. ظلّتْ حرارة يدها عالقة بيدي حتّى غسلتُها مرارًا، وأنا أنظّف بعض الكؤوس. حاولتُ طوال تلك السهرة تجنّب النظر إليها، ولكن حركة العينين لا تغدو إرادية في حالات كتلك، وكلما انزاحتْ عيناني نحوها كنتُ أجدها ناظرة إلي.

فجأة انتقلتْ إلى طاولة بعيدة، وانشغلتْ في حديث مع آخرين.

وهي بعيدة، تمنّيتُ أن تعود، وحين كنتُ أسأل نفسي إن كنتُ أنوي فعل شيء، إن عادتْ، لم أكن متأكدًا من شيء، كل ما كنتُ أفكّر فيه هو أنني بحاجة لاقترابها مرّة أخرى، مرّة أخرى.

لم أفهم تلك الحاجة إلا حين عادتْ قبل مغادرتها بدقائق، ربّما انتبهتْ إلى تلفّتي المستمرّ إليها، اقتربتْ من مدخل المشرب، ومدّتْ يدها لمصافحة كأننا أصدقاء قدامى، سلّمتُ عليها متماشيًا مع اللحظة الغريبة، وشعرتُ بحرارة لمستها الأولى مرّة أخرى، وأدركتُ لماذا كنتُ أريد أن تعود.

ببساطة..

لأتأكد كم هي بعيدة عن دنيا، وكم هي لا تشبهها، وكم دنيا أجمل.

هكذا

تكثيف لما تكرّر طوال الفترة الماضية، فكل مَن تقترب مني كانت مشروع مقارنة مع دنيا. القميص الرمادي ذاك على جسد دنيا أجمل، رائحة العطر الذي تنبعث عند اقتراب إحداهنّ ستكون من دنيا أضوع، ما تبقّى من لون شفتي الصبية على الكأس، كان سيغدو لوحة أحفظها بدلًا من غسل الكأس لو كانتا شفتي دنيا. ولم أفكّر لوهلة في أن الوقت مع دنيا بالتأكيد أمتع.

منذ عرفتُ دنيا، لم أترك مكانًا لغيرها في حياتي، كانت كل محاولة منهنّ، أو انشغال لحظيّ مني بإحداهنّ، تنتهي بهذيان وخواطر، حين تقترب ذات شعر أملس شلال، أقول إن شعر دنيا بانفلاته وتمرّده أجمل، وحين تقترب ذات شعر منفلت متمرّد، أقول إن شعر دنيا أليف مسالم وأجمل. حين أسمع ضحكة حادّة أقول إن ضحكة دنيا الأرقّ أجمل، وحين أسمع ضحكًا رقيقًا أقول إن جرأة ضحك دنيا أجمل. حين تتحدّث إليّ إحداهنّ، أقول إن منطق دنيا أجمل، لفظها للحروف، وتعبيرها عن الأفكار، وحركة يديها وهي تشرح، كل شيء أجمل.

وفي الليل المتأخّر أو الصباحات المبكّرة، حين يستبدّ بي جسدي وحاجاته، أفكّر بدنيا، كانت ستفعل لي كل غير متوقّع شاهدتُه في الأفلام ومشاهدها الجنسية، بل في الأفلام الإباحية، ولكنها ستفعله بأناقة خاصة، وستكلّله بكثير من الحبّ.

سيكون حبًا يجعل كل شيء جسديّ ممكنًا.

وحين أعاتب نفسي، وأخاف على دنيا من صورة ممثّلات بورنو شاهدهنّ ملايين البشر عبر شاشاتهم يفعلنَ كل شيء، أقتنع أنها رغم ذلك ستكون مختلفة، ستكون أول مَن يفعل كل ما تقدر تلك الممثّلات عليه، ولكنْ؛ بحبّ كامل تصبح النشوات والرغبات الغريبة معه شيئًا أرقّ من الهمس.

سيكون بإمكانها ما يستحيل على غيرها، أن تفعل أكثر الأفعال مجونًا وفجورًا، وهي في كامل نقائها وطهرها.

صارت دنيا صورة لكل ما أتمنّاه، منزّهة عن كل ما أكره، وحين يتغيّر ما أتمنّاه أو يختلف ما أكره، كنتُ أعدّل عليها، وأقتنع أن ما يحدث، يحدث من تلقاء نفسه، ولا علاقة لي به. كانت شيئًا أصنعه من حيث مطابقته لما أريد، وشيئًا أفاجأ به من حيث حدوثه دون تخطيط ولا جهد.

دنيا لا تكذب، دنيا لا تهزأ بي وبمشاعري، دنيا تعرف متى أريد أن أتكلّم ومتى أفضّل الصمت، تعرف متى تُطلق الضحكة من فمي، ومتى تصرّف الدموع من عيني، دنيا تعرف كيف تمنحني الوقت حين أحتاجه، وكيف تسرق الثواني حين أريد. دنيا ...

كانت دنيا كل ما تمنّيتُه، ولكنها لم تكن إلا شيئًا في رأسي.

كانت حاجزًا بيني وبين الأخريات، حاجزًا يمنعني عن أي صبية أو امرأة، وامتثل جسدي طويلاً، ولم يفكّر باجتيازه.

وكانت جبنًا حيلة للتملّص والتخلّص من الأخريات والتجارب معهنّ، وأسئلة من نوع: هل أستحقّ تلك؟ وهل يمكنني جذب انتباه تلك؟ كنتُ أختبئ خلف دنيا حتّى لا أواجه شيئًا.

كأنها صارت خيالًا اخترعتُه لأواجه الحياة...

وكانت الموجود الوحيد في حياتي الثابت الذي تدور دنياي حوله.

وأنا عائد من المطعم فجرًا نحو البيت، في شوارع خالية إلا من سائقي سيرفيس يبدأ نهارهم قبل بقية الناس، في لحظات كنتُ أظن فيها أنني لا أفكّر بشيء، تذكّرتُ ابنة عمّي.

ذكرى تعود لعدّة سنوات. ذكرى مراهقة حملتْها ريح مفاجئة كما تعبث الريح ببقايا أوراق وأكياس في الشوارع فجرًا.

في بدايات الانتفاضة، في الأيّام التي لم نكن نعتقد فيها أن الأمور ستتدهور أكثر. جاءت مع والدتها من الأردن؛ لتسجّلها والدتها كفلسطينية تستحقّ هوية خضراء مثلنا. رغم أنها تجاوزت السّنّ المسموح لتسجيلها. كان عمّي، الممنوع من دخول فلسطين مصرًا على طريقة ما لتسجيلها. والمفترض أن تمكث زوجة عمّي وابنتها في بيتنا أسبوعين، إلا أن تصاعد أحداث الانتفاضة على وقع تزايد الشهداء جعل الأسبوعين شهورًا تفجّر فيها كل شيء.

تغيب من ذهني تفاصيل كثيرة أدّت بعائلة عمّي إلى مصير مفاجئ، زوجته طلبت الطلاق، وقرّرتْ ألا تعود إليه، وابنتها رفضتْ مغادرة بيتنا، ورفضت العودة إلى أبيها، وضربتْ والدتها على مرآى أهل القرية كلهم حين جاءت لأخذها بعد طلاقها من عمّي.

خولة.. لم تكن طفلة أبدًا، ولا حتّى مراهقة، جسد طفلة مع علامات مراهقة، ولكن كل شيء في عينيها يقول أشياء أخرى.

حين كانت تأتي تصرّفًا غير مألوف لدينا، لا لعمرها ولا لكونها بنتًا، كانت أمّي تعذرها بالقول إنها نشأت في بيئة مختلفة.

في يوم صيفي جاءت إلى ملعب المدرسة التي يلعب فيه شباب البلدة عصرًا لتبحث عني، وتنادي عليّ من بين عشرات الفتية والشبّان.

تملّكني خجل هائل، ذبتُ على التراب الخفيف والجميع ينظرون إليّ. جاءت بملابس رياضية وحذاء رياضي، تنادي عليّ، وتطلب مني أن تدخل للّعب!

لا أدري كيف أمسكتُ بيدها، ومشيتُ فيها من بين أكوام الفتية والشبّان، وعلى طول شوارع القرية وصولًا للبيت. لم أقل لها شيئًا سوى: "امشي" حين تحاول سؤالي عمّا أفعل، ولماذا أجرّها من الملعب.

وصلنا البيت. أدخلتُها، وأغلقت الباب، وهي تنظر إليّ، كنتُ أنوي الصراخ أو تأنيبها، ولكنني لم أعرف ما أقول. لحظات، وإذا بها تبكي. بكاء بدموع كثيرة تخطّ لنفسها طريقًا بين غبار ملأ وجهها وشعرها.

طلبتُ منها أن تغسل وجهها، وجلبتُ لها ماء من الثلاجة لتشرب. انتبهتُ إلى أن البيت خال، والجميع غادروا.

جلستُ في الصالة أراقب خولة عند الباب تشرب الماء الذي جلبتُه لها، وتبكي.

ناديتُها مرارًا، ولم تجب. لم أدر ما أفعل حينها. لا أذكر بالتفصيل ما حصل بعد ذلك. صارت خولة على الكنبة قربي بشورتها الرياضي الواسع وشعرها الملي بالتراب وعينيها المحمرّتين من البكاء والغبار.

وضعتْ يدها على رجلي، وانحنت برأسها نحوي، وواصلت الانحناء. وصلت المسافة بين نهاية الجوارب الرياضية الطويلة والشورت، ولحستْ ركبتي...

بكلتا يدي دفعتُها، فارتمت على الأرض، لاحظتُ بقايا بسمة بلهاء على وجهها ولسانها ينسحب إلى فمها متأخّرًا من مفاجأة دفعي لها.

هربتُ من البيت، ولم أعد إلا مساء، وكان كل شيء هناك عاديًّا.

صرتُ أتجنّبها، وأشعر بكره كبير ينمو في داخلي.

لم أخبر أحدًا، لم أدر إن كان هنالك ما يستحقّ إخباري أهلي به. كنا كأننا طفلان تأخّرا في اللعب. لم أكن قادرًا على تفسير شيء، ومع ذلك كنتُ أشعر بقلق هائل من وجودها.

وإن التقت أعيننا ونحن نأكل مع العائلة أو في أي مكان في البيت أتجنّب النظر إليها. وأظلّ أستفسر من أمّي وأبي وأخواتي عن موعد مغادرتها البيت، وأتبرّم من وجودها.

ظلّتْ شيئًا غير مفهوم، حتّى غادرتْ، قالت أمّي إنها سافرت لتعيش مع عمّي بعد أن تدبّر مسؤول في السلطة طريقة لسفرها.

ظلّتْ خولة قريبة عرفتُها في صيف طفولي حارّ، تعود لتفكيري في ظهيرات حارّة، بعد أن صرتُ أفهم الفرق بين لعب وآخر.

تذكّرتُها في تلك الليلة دون سبب واضح، ربمّا كانت الغريبة في البار هي السبب غير الواضح.

(١١)

٢٥ آذار ٢٠١٠

مقتـــل جنديـــين إسرائيليـــين في هجـــوم تبنّتـــه حمـــاس والجهـــاد الإســـلامي في غـــزّة

وكالات

حين تصل النهاية، هناك بالضبط يمكنكَ تذكّر البداية، كيف كانت ومن أين ومتى، كل مسار طويل، كل تغيّر عاصف، كل حَدَث خطير، يبدأ ببذرة تُلقى فينا. هناك مَن يشعرون بإلقائها في داخلهم، ويفلحون في التنبّه لنموّها، وصولًا إلى تحوّلها إلى شيء مفصليّ وفارق. أما الغالبية؛ فلا ينتبهون، ولذلك يفاجؤون بما آلت إليه الأمور.

أما أنا؛ فقبل وصولي النهاية أدركتُ متى كانت البداية، وراقبتُ نفسي وكيف تنمو الأشياء التي أُلقيتْ فيها. قادر على الخروج من نفسي ومراقبتها، ولكنني عاجز عن التدخّل، أراقب نفسي كمشاهدة فيلم بالأبيض والأسود. أما التدخّل؛ فظل بعيدًا صعبًا يبدو وكأنه مستحيل. أتذكّر كيف بدأ هذا كله، وأتذكّر كيف انتهى، وتضيع مني الأيّام حين أحدّق بما مضى بين البداية والنهاية، ولا أتذكّر إلا القليل، مشاعر متضاربة ومشاهد ناقصة، وصلات تكميلية، ومحاولات عديدة لاستيعاب كيف مضت سنة أو أكثر، في حقائق متوهّمة، أو أوهام حقيقية.

أما النهاية؛ فواضحة تمامًا.

بعد أسبوعين، عادت الغريبة، جلستْ أمامي تمامًا على المشرب، تلبس فستانًا أسود أو كحليًّا، لم يكن باستطاعتي التمييز، بصدر واسع، لم أفلح في تجنّب ملاحظة تفاصيل حياكته الواضحة، والتي يزيدها وضوحًا جسدها الصريح، وهو يملأ الفستان تمامًا.

طلبتْ بحياد تامّ، وشربتْ بهدوء ورتابة محترفين، لم تتحدّث معي، ولم تنظر إليّ بشكل مباشر. ولكن الاضطراب تملّكني، رغم محاولة التصرّف، وكأنها غير موجودة وصرف اهتمامي والمجاملات لبقية الزبائن القريبين. طال جلوسها بالصرامة نفسها. ومع اختلاسات للنظر إليها، بدتْ أبهى بكثير من زيارتها الأولى، كان كل شيء فيها حيًّا وقريبًا وواضحًا، حتّى ما لا يبين منها، كان واضحًا، ويرسل كل إشارات وجوده وسطوته، كأنني لم أقترب يومًا من شيء حيّ وواضح إلى هذا الحدّ، فتسلب حواسي وذهني الحياة فيها.

دخلتُ إلى مخزن لأستلم صندوق مشروب جديدًا، وحين سلّمني إيّاه العامل، تنبّهتُ إلى المرآة الطويلة على جانبي الممرّ. نظرتُ إلى نفسي حاملًا الصندوق جانبيًّا. توقّفتُ، تحرّكتُ وواجهتُ المرآة. نظرتُ إلى نفسي طويلًا. تمعّنتُ في كل شيء.

ثنية أكمام القميص فوق المرفق، الذراعان الطويلتان والبروزات العضلية الواضحة، وشعر أسود منتظم من تكرار ترتيبه بحركة اليد اللاإرادية، زرّ القميص الثالث المفتوح، وشعر ملتوّ يظهر في أعلى الصدر. الذقن المكتملة! متى اكتملت؟! كثافة منابت شعر الشاربين. شفتان محمرّتان من الحرارة. عينان حازمتان وحاجبان مشدودان كأنني مستعدّ لقتال، شيبٌ في الجهة اليمنى من الشعر، وبللٌ بسيط على أطرافه.

كأنها كانت المرّة الأولى التي أراني فيها. مَن هذا؟! قلتُ لنفسي، وواصلتُ النظر، محاولًا التعرّف إليّ.

تنهّدتُ.. كمَن أدرك الكثير من الأشياء التي لا يمكن شرحها.

خرجتُ إلى البار...

نظرتُ إلى الغريبة، وسألتُها:

- "كيف المشروب؟ أعجبكِ؟"

رفعتْ حاجبيها، وابتسمتْ.

فمها جميل

جميل

لحظتان من الحياة، من الأشياء الحقيقية، ثمّ انفتحتْ سماوات الحديث والضحك والمزاح، اختفى كل شيء حولنا، أنا وهي كمفجوعين شرهين، كطفلين في غابة سكاكر.

عند الفجر، لم يبقَ في المطعم سوانا وبقية زملائي، تنبّهتُ إلى أنهم جميعًا ينظرون مذهولين إلى هذا العرض الطويل.

احتضنتْني، واحتضنتُها، قبّلتْ كتفي، ووعدتْ بالعودة خلال أيّام.

خرجتْ من باب المطعم صوب الدرج. فاستدرتُ نحو زملائي متكوّمين حول طاولة يشربون بعد ليلة طويلة، وجوههم تتساءل، ولكنني لم أجبْ، ضحكتُ، وشتمتُهم، فدخلوا دوّامة ضحك وغمز ولمز وشتائم لأنفسهم.

قالوا لي بعدها إنهم لم يروني يومًا بتلك الحال.

في الشقّة شربتُ بضعة كؤوس حارقة، كنتُ أستدعي الإنهاك والنوم حتّى لا أفكّر في ساعاتي الماضية.

حين استيقظتُ في اليوم التالي، كنتُ في حضيض لم أبلغه من قبل، اتّصالات من أبي وليم ومن أرقام غريبة تملأ الهاتف، ٦ رسائل قصيرة لم أفتحها، ألقيتُ بالهاتف صوب الحائط، فتفتّت لقطع كثيرة برسائله غير المقروءة.

نمتُ، وأنا أسمع ريحًا ومطرًا، لا أعرف الوقت ولا التاريخ، واستيقظتُ ليلاً.

أذكر تلك الليلة الفارقة جيدًا، ففيها استسلمتُ، لم أعد قادرًا على المواصلة أكثر، استسلامي أمام نفسي وانكساري ذاك جاء قبل الإقدام على أيّ فعل يدلّ عليه بأيّام كثيرة.

كانت ليلة شتائية، من ليالي الشتاء التي تشعر فيها أن الكون اختفى، ولم يعد فيه سواك بين جدران تتلقّى صليات المطر.

كنتُ أحاول النوم

حرارة في الفراش وفي بدني وبرد في كل شيء وذاك الألم المرير في قدمي من طول الوقوف في العمل.

حاولتُ تمسيد قدمي وتدليكهما بعد رفعهما على الحائط، لكنْ؛ عبثًا، كأن الألم امتزج مع الدم، وأخذ يسري فيه، كأنه مخلوق داخل رجلي مذ خُلقت.

لا صوت للمطر، هو صوت الأشياء وهي تستسلم له. ومن الشبّاك الصغير في الغرفة حيث أنام كان صوت المطر وأشياؤه بشعًا، كأنه يندفع من مزراب تنكيّ ضخم، ويهوي على صفيح ممدود فوق هاوية.

لساعات ظلّ ذاك المزراب يقذف ما فيه على رأسي، وأنا أتقلّب محاولاً تناسي أوجاع رجلي ورأسي.

هاجمتْني هواجس كثيرة في تلك الليلة الحالكة، خفتُ.

أشعلتُ مدفأة كهربائية، لا لأنني أشعر بالبرد، بل ليُؤنس ضوءها الأصفر المحمرّ الغرفة. خفتُ من إضاءة الغرفة بالنيون الأبيض، كأن في الغرفة شيئًا، وأخاف أن يكشفه الضوء سافرًا واضحًا أمامي.

أخذتُ أنظر إلى الظلال وصوت المطر يملأ الفضاء. ركّزتُ بصري على قضبان المعدن المشتعلة داخل المدفأة، على لونها الأحمر، حدّقتُ طويلاً حتّى سرتْ حرقة في عينيّ، فأغمضتُهما، وأدرتُ وجهي بعيدًا عن المدفأة وضوئها صوب الحائط، وحين شعرتُ بتراكم دمع تحت جفني يخفّف الحرقة، فتحتُ عينيّ، فظهرت أمامي على صفحة الحائط صورة لوجه دنيا.

بكيتُ

لأول مرّة منذ أشهر، ولآخر مرّة حتّى الآن.

(١٢)

٢٦ آذار ٢٠١٠

السـلطة الفلسـطينية **تعلـن** بـدء
العمـل بالتوقيـت الصيفـي

وفا

دخلت الشمس إلى الشقّة، هذا لم يحدث يومًا، شمس ربيعية جريئة تقول بوضوح إن مطر ليلة أمس هو آخر زفرات الشتاء.

غسلتُ جسدي بماء فاتر، لبستُ ومضيتُ نحو الجامعة لاستكمال ما تعطّل لأكثر من سنة.

اختفتْ دنيا، كأنني حذفتُها من حياتي تمامًا، استسلمتُ بكل بساطة بعد كل ما أحدثه ذاك البحث الطويل عنها وحولها، وبعد كل ما وجدتني في مواجهته، وقد كنتُ قبلها لا أراه ولا يخطر لي على بال، بعد أن عرفتُ كل الأشياء اللازمة والسابقة والمتراكمة فوق لحظة، لم أتمكّن فيها من أقول لها فيها شيئًا.

حين رأيتُ دنيا أدركتُ أنني بحاجة لفعل الكثير حتّى أحصل عليها، وحين فعلتُ الكثير أدركتُ أنني فقدتُها.

حين حضرتْ أدركتُ أنه ينقصني الكثير، وحين أتممتُ ما ينقصني، اختفتْ.

بعد أن تعبتُ من فَهْم ما كنتُه وفَهْم ما الذي ينبغي أن أكونه، ثمّ فَهْم

أن ما صرتُ عليه ليس الأفضل ولا الأسوأ، ليس إلا تغييرًا في موضع قَدَمي وزاوية رؤيتي من كل ما حولي.

نسيتُها، ويعني ذلك أنني استيقظتُ في ذاك الصباح الموحل لا أفكّر إلا بإيجاد شريك للسَّكَن في الشقّة، وسعي للتخرّج للعمل بوظيفة جيدة ومريحة، والتوقّف عن السؤال والتفكير، والاقتراب أكثر وأكثر من العادي الذي كنتُه، خالي البال أسير في الدنيا تسيّرني حينًا، وأسيّرها، دون آمال عريضة، ولا خيبات أعرض.

كان نسيانها سهلًا، كأنها لم تكن محور حياتي كلها يوّما، كان نسيانًا يسيرًا كنسيان كلمة سرّ بريد إلكتروني مزيّف. كأن جراحًا خطيرًا عبث بدماغي وحذف الذكريات وأقفل الجمجمة.

كان نسيانًا قصديًا من حيث إرادتي ونيّتي، وقدريًّا من حيث استحكامه ومتانته. لم تعد دنيا تخطر على بالي.

ولكن هذا غير صحيح، هذا ما كنتُ أحاول إقناع نفسي به، وما أدّعيه، دنيا ظلّت تعبر خاطري كل حين، والأحيان كثيرة تملأ زمني كله، ولكنها أيضًا، كانت تبتعد رويدًا رويدًا. حصل ذلك بالتدريج، ونسيتُها بعد أيّام طويلة. تمضي الأيّام دون أن تخطر لي، ولا أفكّر فيها.

أما لماذا اعتبرتُني نسيتُها تمامًا؟ فذلك لأنني ظننتُها عَصية على أي مبارحة لرأسي وخيالي وحياتي. تخيّلتُها كل شيء، ولم أتخيّل أن أشياء أخرى ستحلّ محلّ "كل شيء"، وتخفيه تمامًا.

جعلتُ دنيا سببَ كل سوء يلمّ بي، صارتْ لديّ فجوة قاتمة أعزو إليها كل كرب وضيق يمرّ بي، حين فقدتُ كل مال ملكتُه، وأفلستُ تمامًا، ولم أجد مَن يعينني، لا أهل ولا أصدقاء ولا مَن يأبه لأمري، قلتُ إن دنيا هي السبب. حين وجدتُ نفسي دون شهادة جامعية، كانت دنيا هي السبب.

حين ينتابني الصداع الذي لا يرحم من فرط السهر والشرب، كنتُ أعرف جيدًا أن دنيا هي السبب. حين ألقي بنفسي في أي هاوية دون أيّ وعي أو تفكير، كانت دنيا هي السبب. هكذا حضرتْ، وهكذا تذكّرتُها، بل بالأحرى هكذا كنتُ أحاول نسيانها.

بعد حين من هذا التكدير المتواصل والغضب الحزين تجاهها، كانت دنيا لتغدو مجرّد ذكرى لا يحرّكها إلا تمعّني النادر بقصّتي، وبحياتي، وما مررتُ به، وما مرَّ بي، لا يبعثها إلا التذكّر القَصْدي المتعمّد، لولا جريمة القتل التي حصلت أمام مطعم أبي وليم بعد تركي العمل هناك بمدّة طويلة.

نور

١٩ كانون ثاني ٢٠١٢

محامو مبارك يؤكّدون أن الجيش هو المسؤول عن قتل المتظاهرين

أ ف ب

(١)

"لم يعد رؤوف إلى السَّكَن منذ عدّة أيّام، نمتُ الليلة بقناعة أنه إن لم يعد الليلة، فلن يعود أبدًا، فكّرتُ مرارًا بالاتّصال به، ولكنني تراجعتُ. فكّرتُ بكتابة رسالة: "إن لم تعد الليلة، فلا ترجع"، ولكنني تراجعتُ أيضًا، لن أتحمّل عذاب أيّام قادمة قد ألوم فيها نفسي لأنني لم أترك الباب مواربًا لعودته.

بالكاد نمتُ، تحديدًا حين أقنعتُ نفسي أن الأيّام المتبقّية لانتهاء الفصل الجامعي الأخير هي ما يفصلني عن فصل جديد من الحياة. لم يكن التخرّج يعني لي الكثير، تحديدًا قبيل تأزّم علاقتي برؤوف، لم أكن أفكّر في أن نهاية السنوات الأربع والنصف واستلام شهادتي الجامعية بتخصّص التربية، الذي يبدو دون معنى، يشكّل حَدَثًا مهمًا في حياتي. كان رؤوف كل شيء، كل شيء منذ دخل حياتي في بداية السنة الثالثة، وها هي الإشارات تتوالى على أن سنة ونصف من رؤوف قد لا تطول أكثر.

فكرة انتهاء رؤوف أشعرتْني لأول مرّة أن التخرّج شيء مهمّ، وأنه بات قريبًا جدًا. هذه الفكرة نوّمتْني لثلاث ساعات قبل انطلاق المنبّه بنغمته الصاخبة، ضبطها لي رؤوف في اليوم الثاني لسكَننا معًا في هذه الشقّة الصغيرة، أصرّ كطلاب الجامعة على تسميتها "السَّكَن" رغم كونها شقّة كأيّ شقّة أخرى في حي أمّ الشرايط.

لا تزال المياه تتسرّب من الحنفية، رؤوف ليس هنا ليُصلحها كما فعل آخر مرّة. يجب أن أمنع نفسي عن ندبه كل دقيقة.

أغسل كوبًا، وأسخّن الماء لعمل قهوة، نسكافيه بدون مبيض ولا حليب،

قهوة أمريكية من أرخص نوع، مجرّد مساعد على الاستيقاظ دون طعم إلا ثلاثة ملاعق سُكّر كبيرة من كيس السّكّر نفسه.

"سُكّر أبيض حبيبي" كانت نكتة رؤوف السمجة الأولى، لم أضحك حين أشار إلى الكيس، وطلب مني قراءة المكتوب، وقرأتُه كما كان يتوقّع، حَبيبي بدلًا من حُبيبي. إلا أن ابتسامة خفيفة تظلّ تزور وجهي في كل مرّة أرى فيها كيس سُكّر من هذه النوعية، يدلّل على نفسه بهذا الغَنَج.

حين تقترب نهاية شيء قوي ومهمّ وأساسي كرؤوف هنالك الكثير من الأفكار والسيناريوهات التي تتردّد في الرأس. لا أنكر أنني منذ مدّة وأنا أفكّر بيوم كهذا، أستيقظ فيه دون رؤوف، ولا أتوقّع عودته إلى السَّكَن، كأن نهاية هذا الطريق كانت واضحة منذ مدّة.

كل شيء لي مع رؤوف كان يحمل إشارات النهاية المحتومة.

أمثالي يجب أن يُروّضوا أنفسهم على الكثير من الخسارات.

أنا بحاجة لخمس وأربعين دقيقة على الأقل مع توفّر حركة سرفيس نشطة حتّى أصل كرسيي داخل محاضرة الساعة التاسعة.

ألبس ثياب أمس، العابقة برائحة رؤوف ككل ملابسي، أزيد عليها لفحة صوفية مليئة برؤوف أيضًا، فشتاء هذا العام أحبّ رام الله أكثر من اللازم على ما يبدو، ولعلّها بادلته الحبّ أيضًا، وها هما يحاولان تكثيف لقائهما.

لو أن رؤوف شتاء، ويعود لي كل سنة!

رؤوف في مكان ما يعد بالبقاء على الأغلب.

أحبّ ارتداء لفحة عريضة كهذه، تسمح بقدر كبير من تغطية الوجه وتجنّب نظرات الناس، لا تزال موجعة رغم أنني تعوّدتُ عليها، أو حتّى أكون أكثر صدقًا، بعد أن عوّدني رؤوف على مواجهتها، لولاه لكانت حالي مزرية.

سأسامح رؤوف، إن لم يعد، هذا قرار نهائي.

قرار هذا الصباح.

أجلس في المقعد الأخير في السيرفيس، وأسرح في الأشياء التي تركض خارج النافذة.

حين تلامس رجلي ركبة الشابّ الجالس إلى جانبي عند كل انعطاف أو مطبّ على طريق الجامعة، يظهر رؤوف ليحرّض كل شيء فيّ على تذكّر المسار الطويل، الذي بدأتُ معه أعرف نفسي.

أذكر جيدًا ذلك الأسبوع الذي توقّف فيه والداي عن إغلاق باب غرفة نومهما ليلًا. في نهايات تمّوز من العام ٢٠٠١ لم يعد والداي يُغلقان باب غرفة النوم، كما كانا يفعلان دومًا. مرّ خميس وجمعة وسبت وأحد واثنين وثلاثاء وأربعاء وخميس وجمعة وسبت والباب مفتوح، عندها أدركتُ أن شيئًا ما قد حدث، بل أن شيئًا ما قد توقّف عن الحدوث.

وإدراكي لتوقّف ذاك الشيء الذي يستدعي إغلاقهما لباب غرفة نومهما ارتبط بإحساسي بمجموعة تغيّرات صغيرة، بدأت تكتسب معاني واضحة حين تجمّعتْ أمامي خلال شهر آب.

خلال أسبوع والديّ ذاك وحين كنتُ أنتهي من تبوّل صباحي عادي، شعرتُ بأن ملمس قطن ملابسي الداخلية على عضوي مختلف.

أمسكتُ بطرف الفانيلا، ومرّرتُه على رأس العضو مرارًا، فتكرّر الشعور ذاك، كان شعورًا غريبًا يشبه وخزًا خفيفًا، لا هو مؤلم ولا ممتع، شعور مرّة أولى لشيء غير محدّد.

كرّرتُ الحركة بسرعات متفاوتة، وعلى مواضع مختلفة من عضوي الصغير، رأسه، ظهره، جانبيه، باطنه... كرّرتُ الحركة، وأنا أمسك برأسه لأعلى، وأمرّر القماش على باطنه، بدا الشعور أوضح والوخز أشبه بنقر خفيف متصاعد.

كأن أسطوانة اللحم والجلد المتدلّية الصغيرة بوظيفتها الوحيدة أصبحت شيئًا آخر. بدأتُ أشعر مع تكرار الحركة على باطنه أن هنالك شيئًا ما داخله، شيئًا يشبهه ويظهر لأول مرّة.

لم يكن الوخز ممتعًا بقدر ما كان غريبًا، ويدفعني لمزيد من الحركة، كأنه يطلب حركة مضاعفة، وأنا أستجيب. وفي اللحظة التي بدأ فيها الوخز يدفع عينيّ للإغماض ونَفَسي للتسارع، وبدأت أشعر بمرحلة جديدة من الوخز، فُتح باب الحمّام بقوّة.

كانت والدتي.

نظرتْ إليّ، وصرختْ بكلام غير مفهوم، وهي تُغلق الباب، وبعضوي العالق تحت الفانيلا، وبحلقي الجافّ، صرختُ بكلمات متقطّعة غاضبة عليها؛ لأنها لم تطرق الباب قبل فتحه.

كان تلك المرّة الأخيرة التي لا أُغلق فيها باب الحمّام بالمفتاح عند دخوله، والمرّة الأخيرة التي رأتْ فيها أمّي عضوي الصغير، والمرّة الأولى لمتعة لا تنتهي.

لعدّة أشهر ملأ عضوي عليّ حياتي، كنتُ أسرع في العودة إلى البيت بعد المدرسة، علّني أحظى بساعة أو ساعتين معه وحده دون أي تعكير، وأجرّب معه كل شيء، عرضتُ عليه وعرّضتُه لكل أصناف الأقمشة في المنزل، ولكل مَلمس ممكن، ولكل حركات خطرت لي على بال، كنتُ أجرّب معه وبه، وأفحص ما الذي يدفعه ليمنحني تلك المتعة الألذّ.

في بدايات التجريب كانت المتعة مجرّد شعور جافّ، إلا أن مَلمس دمية على شكل دب في ظهيرة حارّة، نام فيها جميع مَن في البيت، فجّرتُ ما بداخل عضوي، وقذف لأول مرّة في حياتي.

أربكني الأمر، هذا السائل شاهدتُه متيبّسًا على ملابسي حين استيقظتُ

قبل أشهر، ولم أعبأ به، لم يترافق مع "حلم غريب" حسب وصف أستاذ التربية الإسلامية في المدرسة، حين حدّثنا عن البلوغ، ووجوب الاغتسال بعد الاحتلام. اغتسلتُ حينها، ولم أفكّر في الأمر، لعلّه كان بلوغًا بيولوجيًّا وحسب. أما هذا الذي اندفع من عضوي بعد ملامسة الدبّ؛ فكان شيئًا آخر حتمًا.

جعل القذف متعتي أكبر، ولكنه اضطرني إلى احتياطات جديدة، لم أعد قادرًا على مداعبة عضوي قبل النوم طلبًا لمتعته بسهولة، صار السائل المتدفّق بحاجة لمداراة، وبات الحمّام مكان متعتي الأهمّ.

فعلتُ بعضوي كل ما خطر على بالي حتّى خشيتُ عليه من التجريب، فركتُه بكل السوائل المتوفّرة وكل أنواع الزيوت حتّى إنني كنتُ قادرًا على لعقه بلساني حين ينتصب، أطوي جسدي عليه، كنتُ وما أزال نحيفًا جدًا.

حين لمسه لساني أول مرّة قذف سريعًا، حرمتْني آلام ظهري من الاستمتاع بذاك القذف الخارق، إلا أن استقرار سائلي على وجهي أثار فيّ شعورًا عميقًا بشيء يتجاوز المتعة، كرّرتُ المحاولة مرّات ومرّات حتّى خشيتُ أن أتسبّب بعطب لظهري، فتوقّفتُ عن لعقه ومحاولات مَصّه، وعادت يداي فاعلًا متسيّدًا لعلاقتي به.

في تلك الفترة كان عضوي موضوعًا لفعلي أنا وحدي، لم يكن خيالي يتّسع لأي شيء آخر غيري وغيره، لم تكن تلك المتعة إلا ذاتية بالنسبة لي، واحتاج الأمر لتجارب عديدة، وعدّة أشهر إضافية ليتولّد في الشعور البديهي لدى البشرية جمعاء، أن هذه المتعة قائمة على التشارك بين البشر، وأن تحصيل هذه المتع ممكن باحتمالات غير معدودة ولا محصورة حين يتشاركه الإنسان مع غيره، يَفعل ويُفعَل به.

ربّما كانت تجارب لَعقه بداية تولّد الشعور الجديد، تحديدًا حين ارتبط اللعق بأحلام غريبة مجهولة المصدر، قوامها وجود مَن يَلعقه لي.

في تلك الأشهر الممتدّة من ربيع الصفّ السابع إلى شتاء الصفّ الثامن،

بدأت تغيّرات كثيرة تعتري علاقتي بعضوي، صرتُ أُحسن معاملته، وتوقّفتُ عن جعله مجالًا للتجريب، وحصره كمصدر متعة محدّدة واضحة، وبدأت لأول مرّات في حياتي أعتني بملابسي الداخلية، وأطلب من أمّي أن تتوقّف عن شرائها، وبدلًا من ذلك تعطيني النقود، فأنا سأشتريها بنفسي، بل سأشتريها لنفسي.

أنا الابن الرابع، بعد ابنتين وابنين، وهذا يعني أن الوالدين سئما من التربية، وأن حظي من الحُرّيّة أكبر قليلًا من أختيّ وأخويّ. تتناسب حُرّيّة الابن في عائلة كعائلتنا طرديًّا مع تأخّر ترتيبه بين إخوته، حتّى إنني أتخيّل الجحيم لو أنني كنتُ ابن أبويّ البكر، ذاك محطّ آمالهما وأحلامهما وهواجسهما، ذاك موضوعهما المفضّل للتشكيل والاستعراض والتباهي، وذاك الذي يجب ألا يخيب أملًا. أعتقد أننا جميعًا مَدينون لأخينا الأكبر ضحية النظام العائلي هذا.

على الأغلب لم أكن من أولويات انشغال أبي وأمّي، ربّما كنتُ أخطر على بالهما بعد فراغهما من التفكير بمشاكل وأحوال أخويّ وأختيّ الأكبر مني، وهذا يعني أنهما يبلغان التفكير بي منهكين.

عرفتُ حاجات جسدي منذ ذلك الصيف.

ولكنني لم أعرف وجهها الرقيق وكل ما يلفّها من أوشحة إلا مع رؤوف.

قبل ذلك الصيف، كانت الأشياء كلها في مكانها، كل شيء واضح ومحدّد، الله في الأعلى وحوله الصلاة والصوم والحلال والحرام، وأسفله بقليل أمّي، وإلى جانبها أبي، ثمّ تترتّب الأشياء والأشخاص في مواقعهم المحدّدة بشكل ثابت مستقرّ.

منذ ذلك الصيف، لم تعد الأشياء كما كانت، لم تعد في أماكنها التي لطالما كانت فيها".

(٢)

"أهرول نحو كُلّيّة الهندسة للّحاق بالمحاضرة، أصوات مكبّرات الصوت تملأ الجامعة، وصراخ أبناء التنظيمات والكتل الطلابية يهزّ الأركان، خاصة مع انفعالهم غير المفهوم، لا فضول لديّ تجاه الحَدَث الذي دفعهم لهذا الصراخ المبكّر، أواصل سيري جاهدًا ألا أتعثّر بإحدى الطالبات الجالسات على السلالم بكامل زينتهنّ في انتظار شيء ما، لم يأت خلال سنواتهنّ الجامعية الماضية.

أنظر إلى الساعة في هاتفي المحمول، وتشير إلى التاسعة وستّ دقائق، معي أربع دقائق قبل إقفال أبواب النعيم، وحرماني من المعارف الثمينة التي تسكبها تلك العجوز في عقول زملاء التخصّص.

أصل الباب منهكًا تمامًا، أدفعه دون النظر إلى الداخل. أُفاجأ بالقاعة فارغة!

يهمس شابّ يقف في الممرّ قبالة الباب: "تعليق دوام.. في مواجهات بالأقصى". أهزّ رأسي، وأجلس على مقعد قريب؛ لألتقط أنفاسي.

أرفع اللفحة لتغطّي أكبر قدر من وجهي رغم الحرارة المرتفعة داخل مبنى الكُلّيّة، وأمشي بخطى متثاقلة صوب كافتيريا الجامعة.

ظهري للطلاب المحتشدين احتجاجاً على "اقتحام المستوطنين للمسجد الأقصى"، حَدَث يتكرّر كل عدّة أسابيع، وردود الفعل نفسها، ومحاضرات مُلغاة تحت ضغط صراخ الطَّلَبَة.

ظهري للطلاب والصراخ والهتاف.

عند درجات الكافتيريا المركزية أصطدم بآية. تبتسم وتصبح عليّ: "صباح الخير، كيفك؟"

- "صباح النور، الحمد لله". أجيب ببرود، وأعاتب نفسي على "الله" الذي بات يقتحم كل كلامي.

- "ما في محاضرة، في تعليق". تقول كأنها تبشّرني بتحرير الأقصى.

- "آه، رحت، وما كان في حدا"

- "ع الأغلب كل المحاضرات رح تلتغي"

- "بنشوف.."

أحاول أن أقول بحركة جسدي إنني انتهيتُ من هذا الحوار، وأريد المضي نحو الكافتيريا، فتقاطعني آية، وهي تعيد شعرها الطويل خلف أذنها:

- "بدك تشتري شي وتطلع؟ وإلا بدّك تضلّ بالكافتيريا؟"

فاجأني سؤالها، وفاجأني أكثر شعوري بأنها اليوم مختلفة، أو ربّما أشعرني السؤال بأنها مختلفة. قلتُ بتردّد:

- "مش عارف. بدّي أشوف إذا رؤوف هون أو لأ."

- "طيّب شوف، وأنا هون بستنّاك".

هززتُ رأسي، وصعدتُ الدرجات، وأنا أفكّر بحماقة إجابتي وغبائي، وأفكّر برؤوف.

ثمّ أفكّر بكلمات تملأ الأحاديث العادية، وتمرّ دون أيّ وقع، وهي نفسها لو قيلتْ في سياق آخر مع أداء محدّد لكانت ربّما أهمّ كلمات حياتنا.. "بستنّاك" تقول آية، أنا الذي لم ينتظرني أحد.

فتّشتُ في الكافتيريا عن رؤوف، كأنني أصلًا كنتُ قادمًا للبحث عنه! ربّما كنت راغبًا بالعثور عليه للتخلّص من آية المختلفة.

لم أجد رؤوف، فاشتريتُ قهوة، وخرجتُ لمواجهة آية آملًا أن تكون قد اختفتْ، وأنّ "بستنّاك" التي قالتْها عادية جدًا، ويمكن نكثها. أفكّر بآية قبل لحظات من بلوغي نقطة التقائنا قبل دقائق، لا تحتفظ مخيّلتي لها بشيء مميّز سوى أنها كانت الوحيدة في الجامعة التي لم تتورّط بموضة "حمّالة الصدر الخارجية"، هكذا سمّاها رؤوف، قطعة قماش بأكمام قصيرة تُلبس مثل الجاكيت، ويتدلّى امتداداها عند الصدر، ويُربطان بعقدة أسفل الثديين. موضة كاسحة، سحبت جميع طالبات الجامعة، حتّى كان عدم لبس إحداهنّ لقطعة شبيهة مَدعاة للملاحظة، وهذا ما لاحظناه سريعًا في حالة آية. على الأغلب كانت تلك الموضة محاولة لإبراز الصدور، ومنحها انتفاخًا خارجيًا، ولم تكن آية بحاجة لذلك. لا شيء واضحًا ومقترنًا بآية سوى ذكرى ذاك الصيف الأول في الجامعة.

ها هي عند نهاية الدرج، تنظر نحو مدخل الكافتيريا، ويتهلّل وجهها وهي تراني نازلًا، توضّب شعرها المتفلّت مرّة أخرى.

أنزل إليها، وأمشي إلى جانبها مقنعًا نفسي أنها ربّما تكون طريقة للتخلّص من التفكير برؤوف.

أنظر إلى قَدَمَيّ وقَدَمَي آية، ونحن نمشي بعيدًا عن مكبّرات الصوت وأبناء التنظيمات والحركات الطلابية والأقصى، وآية تحدّثني عن أهمّ المؤسّسات والجهات التي يمكن أن نجد لديها شواغر، بمجرّد انتهاء الفصل. حديثها يبعث فيّ شعورًا بأن الحياة ستستمرّ في سيرها بعد تخرّجنا، وأننا مطالبون بقليل من الجهد لبدء فصل حياتنا بعد الجامعة بطريقة صحيحة.

تقول آية إن أكثر ما تخشاه هو الجلوس في البيت دون عمل بعد التخرّج، وأتساءل في نفسي إن كانت صادقة، أم أن أكثر ما تخشاه هو تخرّجها من

الجامعة دون علاقة تفضي إلى زواج مريح، لن يشغلها معه العمل أو البطالة، وحينها ستسعد بالجلوس في البيت في انتظار عودة صاحب العمل.

أسرح بخواطري بعيدًا حتّى إنني أجهل بالضبط ما تقول آية، كأنها تتحدّث مع شخص غيري، وأنتبه على وقع سؤالها:

- "إنت شو ناوي تعمل؟"

أجيب دون تفكير، إجابة لم تكن خطرتْ على بالي من قبل:

- "بدّي أكمل دراسة... برّة"

إجابة مفاجئة وقوية، تُسكت آية، وتُسكتُني أيضًا.

تمشي في الجامعة دون حديث، تنظر إليّ، وتحاول قول شيء ما، لكنْ: دون كلام. وكالعادة وبعد أن تعبتْ من البحث عن موضوع مناسب، تقول: "ما بدنا نخلص من هالسماعات وتعطيل الدوام!". ككل الفلسطينيين، يبدو الحديث في السياسة قتلًا للوقت، لم تعرف ماذا ستقول، فأخذت بانتقاد الحركات الطلابية. لا أعلّق، يسرح ذهني إلى أيّام كان فيها النقد أو المجاهرة به أصعب من اليوم، إلى أيّام المدرسة في "عزّ" الانتفاضة الثانية.

كانت البنادق ترتفع في سنة الانتفاضة الأولى في كل مكان، المظاهرات غابات بنادق، ملثّمون يرفعونها في الهواء، ويطلقون ذخيرتها كاملة، رشقات متباعدة ورشقة طويلة. حرارة الجماهير ترتفع والصراخ والهتاف يملأ البلد.

الكل منشغل بالبنادق المشرعة، وأنا أكتشف مسدّسي الصغير، هكذا سمّيتُه لعدّة أيّام بتأثير من الأجواء السائدة، ثمّ شعرتُ بالإهانة، وأنّبت نفسي على التسمية. ظلّت البنادق مشرعة، يقاتل بها أصحابها، ويباهون، ويعربدون، ويملؤون الفضاء، وأنا أنزوي في عالم بعيد تمامًا، حتّى إنني صرتُ أحيانًا أتقزّز من انتصاب عضوي، وأرتاب من كل ما ينتصب.

أيّامها في المدرسة وزّع نشطاء الشبيبة الفتحاوية صورًا لأبي عمّار، علّقوا

الكثير منها على باب المدرسة بصمغ رديء. وقفتُ وأنا أغادر المدرسة أمام الصورة المكرّرة على طول الباب الحديدي وعرضه.

أبو عمار ببدلته العسكرية يقف فوق رشّاش رصاص ثقيل.

أبو عمّار أعلى من الجميع، والرشّاش يوازي خصره، وزاوية التقاط الصورة جعلت الرشّاش، وكأنه امتداد عضو أبي عمّار.

تبدو الضحكة على وجهه ونظر المسلّحين إليه ببنادقهم المتدلّية، وبعض النظرات الخفيضة لرشّاشه المنتصب، وكأنها تدلّ على أنهم جميعًا تواطؤوا في إخراج الصورة، وأُعجبوا بها، ولو في دواخلهم.

الصمغ الأبيض الرخيص الذي طُليت به البوّابة قبل وضع الصور عليها يتسرّب من زوايا الصور. أما الصورة التي كنتُ أنظر إليها؛ فيتسرّب صمغها قريبًا من فوهة الرشّاش. بات المشهد مكتملًا، والرشاش الطويل ينقّط سائلًا أبيض.

كان غبائي عظيمًا حين نظرتُ إلى زملائي الذين شاركوني التوقّف للنظر للصور، وأبدت ملامحي أنني تنبّهتُ لملاحظة ما.

فجأة ضحكنا نحن الواقفين أمام الصور، ضحكنا دون أن ننطق بحرف، ولكنْ؛ على مرأى الطلبة جميعهم وهم يغادرون المدرسة.

لحظات، وإذا بمجموعة من الطلاب يركضون صوبنا.

كنتُ أستطيع تمييز فتيان الشبيبة عن بُعد، من ملابسهم وحركتهم، وما حدث كان كفيلًا بزرع صورتهم تلك في ذهني كأنها قالب ثابت، ينتج نسخًا مكرّرة.

تباعد الضاحكون من حولي كأنهم يقولون هذا هو الذي يستهزئ بالقائد.

والتمّ عليّ فتحاويّو مدرستنا، وبدؤوا بدفعي نحو الجدار، بإيقاع دفعات متصاعد.

غبتُ بين البناطيل الجيشية والكوفيات والقمصان السوداء والأحذية الضخمة، ولم ينتصر لي أحد، ولم أقاوم أو أفعل أي شيء.

هدأ الضرب سريعًا، ربّما لأنني استسلمتُ سريعًا، إلا أن أضخمهم اقترب ببدنه مني وأنا ملقى على الأرض، وظلّ يحاول دفع رأسي بخصره. كان يميل بجذعه إلى الوراء، ويقدّم عضوه نحو رأسي، ويدفعني به، حتّى إن عروة حزامه الضخمة خدشت جبيني.

كان كأنه يؤكد لي صحّة ما تخيّلتُ حين رأيتُ الصورة، ويؤكد لي أن أعضاء التنظيم طائلة، وغير مسموح إبداء أي رد حيالها.

لو أنه لم يفعل ما فعل أمام طلاب المدرسة المنهمكين في موجة ضحك وصراخ حيوانية لربّما ظللتُ ذاك الذي استهزأ بالختيار ورشّاشه، وربّما نالتني تُهم وطنية كبيرة على أعمارنا الصغيرة حينها، ولكن تصرّفه ذاك أزاح الأضواء نحو وجهة أخرى.

منحني قليلًا من التعاطف ممّن سلّطتْ عليهم رشّاشات شبيهة في دورات المياه في المدرسة وخلف السور وفي الحصص الأخيرة، حين يستكشف زعران المدرسة قدراتهم على تحويل زملائهم لبنات صغيرات، والتحرّش بهم، وقليلًا من الاهتمام والفضول ممّن لاحظوا استكانتي أمام فعل بتلك القسوة".

أستيقظ من التذكّر على صوت آية تقول لي إنها تريد أن تغادر إلى رام الله، وصلنا إلى موقف سيرفيس الجامعة، ولم أنتبه إلى سيرنا، تسألني إن كنتُ أودّ مرافقتها، أقول لها إن لديّ بعض الأمور أنهيها في الجامعة، تظهر نظراتها أنها تُدرك أنني أتملّص منها. تمضي وأظلّ أتحرّك بين السيارات والطلاب؛ لأركبَ أي سيّارة أخرى صوب رام الله. سأذهب إلى العمل، ولو مبكّرًا بعدّة ساعات عن نوبتي، فلا شيء أفعله، ولا أريد الانشغال برؤوف أكثر.

(٣)

"في الطريق أعدل عن الذهاب إلى العمل، أقرّر التوجّه صوب المقهى، في هذا الوقت لا يكون مزدحمًا. أمشي من دوّار المنارة صوب نزلة البريد، هذه الأمتار التي يسمّونها دوار المنارة من أسوأ بقع الأرض، أتمنّى لو أن الأرض تنخسف، وتبتلعه بمَن عليه. مزدحم دومًا بكل من لا يتورّعون عن النظر وبصق الكلام ومَدّ الأيدي، حين أضطر لعبوره؛ فإنني أستنزف طاقة هائلة في محاولة عدم الالتفات لشيء. من أين يأتي كل هؤلاء الواقفين طوال الوقت دون أي عمل!

أصل المقهى الصغير في نزول البريد، الشارع الأجمل برأيي في المدينة، لا أملّ من صعوده ونزوله، هذا الشارع ناج وحيد من ذكرياتي مع رؤوف.

أجلس في المقهى، هذا من الأماكن القليلة التي لا يأكلني فيها الناس بنظراتهم، يجلب لي الشابّ اللطيف الماء، ويسألني ماذا أريد، أطلب منه التروّي.

أراقب فتيات مدرسة رام الله الثانوية يخرجنَ من بوّابة المدرسة المقابلة، بكثير من الضجيج، يفلتنَ شعورهنّ التي أجبرتهنّ المعلّمات على ربطها، ويتخفّفنَ من المعاطف رغم البرد، ويعلو المزاح والضحك، هل هذا كله للَفْتِ الأنظار؟ لا أدري.

أستسلم للتفكير مذعنًا، أتصالح مع فكرة أن فراغًا كبيرًا يُحدثه غياب رؤوف، وأن التفكير بكل شيء سيحتلّ المساحة الشاسعة تلك.

سنتي الأولى في الجامعة كانت مضطربة مليئة بالحيرة، كان كل شيء حولي يغدو جنسيًّا، تشبه قليلًا الأسابيع الأولى من اكتشافي لمتعة الحمّام.

لا يتوقّف ذهني عن تركيب مشاهد لا تنتهي لكل مَن حولي أبطالها أعضاؤهم.

في تلك الفترة تمرّد عليّ جسدي، وبدأ يُظهر اضطرابه بشكل أحالني عاجزًا في كثير من الأحيان، أفضّل الابتعاد عن البشر قدر الإمكان.

أي لمسة لو احتكاك أو اقتراب من ذَكَر أو أنثى كان يُطلق سلسلة لا متناهية من المشاعر والأحاسيس.

أي ازدحام في طابور أو تعثّر أياد في أثناء ملء الساندويش بالسَّلَطات، أو ارتطام خفيف عادي خلال السير في الممرّات بين المحاضرات. باتت المسافة التي تفصلني عن الناس مضاعفة، وأي اضطرار للاقتراب منهم كان يعني توتّرًا هائلًا. بدأت المشاكل تتكاثر حينها، وبدوتُ وكأنني مصاب بمرض ما يجعلني منزويًا.

كان تشكيل الصداقات في تلك المرحلة أساسيًّا لحياة جامعية هادئة ولكسر الوحشة التي لفّتني وأنا أخطو في هذا المحيط الغريب. ولكنْ: كيف يمكنني البدء بأي محاولة لتشكيل صداقة ما، وأنا وبمجرّد لمس يد أي شخص يسلّم عليّ يبدأ جسدي بالارتباك!

فكّرتُ بالذهاب إلى عيادة الجامعة، تردّدتُ كثيرًا، ثمّ عدلتُ عن التفكير في الأمر. لستُ أعاني مرضًا، قلتُ لنفسي، ولكنني بعد أيّام شعرتُ أن ما يعتريني هو مرض بالتأكيد، فلا أكاد أجد أحدًا يشعر بشعور شبيه، أو أن الآخرين بارعون في مدارة ما بهم، كان هذا شكًا بسيطًا حوّلته الأيام إلى يقين.

انطويتُ لعدّة أيّام في السَّكَن، كان شريكاي يسكنان غرفة واحدة، وأنا في غرفة وحدي، لولا أحوال أسرتي المادّية الجيدة، لاضطررتُ للعيش في

جحيم، لاضطررتُ لتشارك غرفة مع أحدهم، مجرّد التفكير في الأمر كان قاتلًا، فأنا بالكاد تخلّصتُ من غرفتي مع إخوتي في البيت.

الفارق الرئيس الذي منحتْني إياه الجامعة والتغيّر الأهمّ على حياتي كان عيشي في غرفة لي وحدي، كنتُ على قناعة أن مشاركة أي بشري لي في ذاك الحيّز هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لي، مع تفاقم حساسية جسدي تلك. كانت الغرفة تلك حاضنتي التي ينفد الأكسجين خارجها.

بدأتْ عزلتي تثير الريبة، وخفتُ من تصرّف ما يقدم عليه شريكاي في السَّكَن، مثل أن يتّصلا بوالدي لإخباره بحالي. هنا لا يفكّر الناس مرّتين قبل أن يسمحوا لأنفسهم بالعبث بحياتكَ، والدخول إلى مساحتكَ الخاصة.

خوفي من شريكي السَّكَن بدأ سريعًا، منذ الأسابيع الأولى من الجامعة، وظل يتراكم حتّى تركتُهما باحثًا عن حُرّيّة، ظللتُ طوال عمري ألاحقها وهي تهرب.

في صبيحة يوم دوام استيقظتُ بشعور غريب، دون وعي كانت أطراف أصابعي تتخلّل شعري، تم ترتّبه خلف أذني، وأنا مستلق على ظهري أنظر من النافذة. الغيوم البيضاء الناصعة تعبر الأزرق الصافي بهدوء، وقليل من النسمات تنفخ الستارة، ثمّ تمتصّها بنعومة مفرطة. وبيت قريب يؤكد الصوت الخارج منه أن فيروز لا تزال على عرشها، سيدة لصباحاتنا، حتّى وهي تغني إحدى أوضح أغانيها الليلية.

"والعلية مشتاقة ع حبّ وهَمّ جديد... فيها طاقة والطاقة مفتوحة للتنهيد ... وضويّة البيوت تنوس.. فانوس يسهر فانوس... وإنتَ بقلبي محروس بزهر الحرقة والنار".

أتذكّر التنهيدة الطويلة المترافقة مع العبث بطرف أذني، حين تهبط فيروز بصوتها في المقطع الثاني حتّى كأنها تشكي وتهمس.

كان صباحًا من الصباحات التي يكتمل فيها مشهد جديد، مشهد لا يُنسى.

نهضتُ من الفراش، وابتسمتُ حين قالت فيروز: "وتحت قناديل الياسمين إنت وأنا مخبايين ... نحكي قصص حلوين ولا من يدرى شو صار"، بدا كأن شيئًا سيصير وفيروز تتكتّم عليه.

نهضتُ، وغادرتُ الغرفة نحو الحمّام بطاقة داخلية غريبة، لم أسمع حينها المقطع الذي يُبكيني طويلًا هذه الأيّام، ويظل قادرًا على استجلاب مقدار الدمع والحزن نفسه في كل مرّة دون أي أثر للتكرار أو الاعتياد. "تعبانة وبدي إحكيك.. حاكيني الله يخليك"، لم تغنّ فيروز يومًا شيئًا أكثر حزنًا من هذه الكلمات الستّ، وعيناي تشهدان.

لم أعبث بعضوي، ولم أفرّط في حكّه كما أفعل كل صباح كجزء من طقوس الاستيقاظ، واغتسلتُ دون أن أريق أي شيء من مائه، كأنه لم يكن موجودًا حينها.

قرّرتُ، وأنا أرتدي ملابسي، أن أفضل حلّ لحالتي هو المضي حتّى أقصاها، أن أعرّض جسدي لأكبر قدر ممكن من اللمسات والاحتكاكات، أنا أصدمه بما يُربكه، وربّما أن أواجه الحساسية بالاعتياد، وهذا ما كان.

صافحتُ الجميع مصافحات طويلة، تليق بأصدقاء جيدين وصديقات بقلوب شفّافة، وقفتُ في كل الطوابير الممكنة في الجامعة، في الكافتيريا وأمام مكتب خدمات تصوير الكُتُب والمحاضرات، وفي انتظار الحافلة، وأحسستُ بضربات خفيفة على ظهري، وأقلّ منها على ردفيّ، وافتعلتُ ارتطامًا عفويًا لصدري بظهرين، واحد لفتاة، وآخر لشابّ.

حتّى إنني لعبتُ يومها كرة قَدَم مع شباب لا أعرفهم، وتعرّضتُ لارتطامات من نوع أشدّ، وبالغتُ في الاحتكاك البدني، تشبّثتُ بقمصانهم خشية سقوط مفتعل، والتصقتُ بظهورهم في مراوغات طويلة.

في نهاية ذاك اليوم بدا لي أن التجربة كانت ناجحة.

لاحظ زميلا السَّكَن أن شيئًا ما تغيّر، وأنني تخلّصتُ ممّا كنت فيه خلال الفترة الماضية. وهنا أيضًا أن تكون سعيدًا مرتاحًا غير منشغل البال أمر يدعو للريبة، ويفتح باب التطفّل، وحتّى أغلقه جيدًا، أغلقتُ باب غرفتي، ونمتُ طويلًا من فرط إرهاق ذاك اليوم، واستيقظتُ ليلًا فرحًا أشعر بأن شيئًا ما تغيّر، ولكن سهولة حدوثه ظلّتْ تُقلقني.

تراكم القلق في اليوم الثاني، وتملّكتْني الحيرة حيال السلوك الذي ينبغي لي اعتماده، هل أواصل ما بدأتُ أمس؟ أم أتوقّف؟ إن واصلتُ سيشكّ الجميع بأمري، يكفي أن يراقبني أحدهم أو إحداهنّ حتّى يتّضح أن هنالك خطبًا بي، وقد أُتّهم اتّهامات كثيرة، ويخلّف الأمر نفورًا مني، فأصبح معزولًا بعد أن كنتُ منعزلًا. إن توقّفتُ، فهل سأعود لحساسيّتي المفرطة تلك ولابتعادي عن الناس؟ هل يعقل أن أظلّ مغناطيس احتكاكات؟ هل يختلف الابتعاد الحذر عن الناس عن الاقتراب المتهوّر منهم؟ ألا يمكن لهذا الجسد أن يهدأ قليلًا ويتوقّف عن العبث بي؟ ألا يمكنه أن يتركني دون هذا الحيرة والقلق؟ لماذا لا يتوقّف عن الانفعال وطلب الفعل؟ ألا يمكنه أن يهدأ ويتركني أهدأ؟ ألا يمكنني أن أتصرّف بشكل طبيعي؟ أن أكون على طبيعتي؟

لأول مرّة في حياتي أواجه كلمة "طبيعي" هذه المواجهة المباشرة، بقدر ما كانت قبل ذاك اليوم واضحة و"طبيعية"، صارت بعده غائمة لزجة خاوية من أي دلالة. لم أعد أعرف ما هو الطبيعي.

في الأشهر اللاحقة بدا وكأنني اتّخذتُ قرارًا دون وعي، وهو أن أتصرّف بالحدّ الأدنى من الإرادة، أن أترك جسدي ونفسي يتحرّكان بالحدّ الأدنى من الإرادة أو التقييد أو الإكراه أو الرغبة أو الدفع، وكان ذلك يفتح خيارات هائلة واحتمالات لا يمكن إحصاؤها، وكان يعني ممّا يعني، وهذا ما اتّضح لي بعد فترة، أن المتحكّم الرئيس فيّ سيغدو الآخرين، فأنا أترك نفسي وجسدي لهم.

لا أبدأ المصافحة، ولا أنهيها، وحين يقبّلني الأصدقاء على خدّيّ أترك لهم خيار عدد القبل وسرعتها وتواليها، وحين يدفعني أحدهم لا آبه، وحين يلتصق بظهري أكثر من اللازم في أي طابور لا أبدي أيّ انزعاج أو ردّ فعل، وحين ترخي فتاة فخذها؛ ليلتصق بفخذي حين تجلس بجانبي في الحافلة، أتركها كما تريد.

صرتُ مستسلمًا ومُسلِّمًا جسدي لكل ما حولي دون أي انشغال بالأمر. بات الآخرون والأشياء فاعلين بي دومًا، وبدت الأحوال أيسر، ولم يعد اضطرابي من جسدي يشغلني بشكل لحظيّ ومستمرّ، كما كان من قبل. وفي لحظة تفكير في تلك الحال تساءلتُ إن كان تركي نفسي وجسدي لفعل الآخرين دون أي تدخّل مني هو "الطبيعي"؟ ولم أكن متأكداً من الإجابة.

المهمّ أنني بدأتُ ألتفتُ لدراستي، وتمكّنتُ من تكوين صداقات جامعية معقولة، لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولكنها كفيلة بألا أجلس وحيدًا في زاوية غرف المحاضرات الواسعة، وألا أتناول طعامي وحيدًا في الكافتيريا مثل المرضى أو المعتوهين".

ضربٌ خفيف على كتفي، أنظر حولي بانفعال، وأكاد أُسقِط كأس الماء من يدي، آرنو، يحتضنني من الخلف، ويمُازحني بعبارات لا أفهمها بسهولة. ويسألني أن يجلس إلى الطاولة معي، فأرحّب به.

قبل عدّة أشهر، عرّفني رؤوف على آرنو، وعند باب هذا المقهى، وغدا آرنو صديقًا بعدها نلتقيه في جلسات كهذه، أو في سهرات ضحك وتسلية، وتمشيّتُ معه في رام الله أكثر من مرّة.

شيء فيه يدفعكَ للحديث بأريحية، ربمّا لأنه أجنبيّ، أو لأنه يتقبّل أيّ حديث دون اعتراض، وربمّا لأنه يُقوّي لغته العربية، ونُقوّي لغتنا الإنجليزية معه. قال لي رؤوف إنه مفيد لتحسين عملنا، فالكثير من الزبائن أجانب، وتعلّم قليل من المحادثة مهمّ لنا. صار آرنو صديقًا. بل الصديق الوحيد

الذي لم يسألنا يومًا أسئلة لا نحبّ الإجابة عنها، تعامل معنا كمعطى ثابت دون أي أسئلة وتنقيب عنا ومَن نكون وماذا نريد وكيف نتصرّف.

لا أستطيع إخفاء توتّري أو ضعفي أمام آرنو. هو لا يسأل عادة، ولكنه يتجاوز الحذر، ويسألني إن كان كل شيء على ما يرام.

أهزّ رأسي موافقًا.

يُخرج حاسوبه من حقيبته الخفيفة، لا أُخفي إعجابي بترتيب آرنو وتنظيمه لكل شيء، لولا رقّته الفائقة معي؛ لظننتُه آلة عمل. حين سألتُه عن عمله، اكتفى بالقول إنه يعمل في مشروع "تافه" على حدّ وصفه، عن دور الثقافة في حلّ النزاعات، وقال لي إنه غير مقتنع تمامًا بالأمر، ولكنه يتعرّف على بلاد جديدة وأشخاص جميلين، ويجني مالًا جيدًا، ويراكم خبرة نوعية.

أعود لصمتي، وأسرح ببصري خارج الواجهة الزجاجية للمقهى.

بعد مدّة لا أدركها، يسألني آرنو: "هل رؤوف بخير؟"

أردّ بعد تنهيد: "لا أعرف".

يُغمض عينيه، ويفتحهما وكأنه فهم كل شيء.

يضع يده على يدي، ويحاول قول شيء ولكنه لا يقوله.

يسحب يده إلى حاسوبه، وأسحب يدي إلى جيبي.

أُخرج هاتفي المحمول، وأكتب رسالة لتوفيق، زميلي في العمل: "تعبان. ممكن تكمّل الشغل عني؟". متأكد أن توفيق سيوافق، ففي ذمّته لي عمل كثير، أدّيتُه نيابة عنه. ثوان، وتأتي رسالته: "أكيد، يا حلوووو".

"تعوّدتُ على مفردات مثل "حلو" يصفني بها الناس، في المدرسة عاندتُ أول الأمر، وكذلك الأمر في البيت، كنتُ أنفعل وأرفض حين

"يدلّعني" أحدهم بعبارات شبيهة، أولهم أمّي، التي كانت تخاطبني بضمائر المؤنّث في طفولتي التي لا أذكر منها الكثير، ولكنها تذكّرني بها دومًا، حين تقول لي إن وجهي كان وجه فتاة، هذا ما تقوله أيضًا الصور الرديئة التي تحتفظ بها أمّي في ألبوم العائلة، وقد وضعت فوق رأسي ملابس الصلاة الخاصة بها وبأخواتي، كأنني مثلهنّ، عدّة صور كنّ موضوع تندّر للعائلة حتّى أخفيتُهنّ، لا أدري لمَ لم أمزّقهنّ، دَسَسْتُهُنّ في قاع رفّ الملابس الخاص بي، ولا أدري أين هنّ الآن.

اختفى ضمير المؤنّث بعدها، أما القرصات الخفيفة على وجنتي وتمسيدات الشعر من الجميع؛ فتأخّر اختفاؤها، كان جميع ضيوف أبي وصاحبات أمّي يحبّون لمس وجهي وشعري، كأنني قطّ مدلّل، يعبث الناس بفروه، كان يمكن أن تتواصل اللمسات إلا أنني أوقفتُها حين بدأتُ ألمس نفسي بنفسي، في الحمّام وفي الغرفة المغلقة، حين أمرّر الأشياء الناعمة على جسدي حتّى تسري فيه قشعريرات صغيرة متتالية، فأتوقّف.

حسب أمّي كنتُ أوحي بعمر أصغر من عمري. بشرة صافية وشعر بني فاتح وناعم، شفتان رقيقتان، ووجه يخلو من أي خدش، رموش طويلة، ككل العائلة، وصوت رقيق. كل شيء فيّ كان يمكن توضيبه ليغدو أكثر خشونة، وأكثر انسجامًا مع ما يقبع بين فخذي، إلا صوتي. في المدرسة مازحني أحد المدرّسين وقال: "لازم تصير تدخّن". حتّى يرخم صوتي قليلًا، ولا يظلّ صوت فتاة صغيرة.

كنتُ هادئًا، لا يجرّني أحد لأي انفعال، بل كنتُ ضعيفًا، لو صرختُ سيضحك الجميع، وسيزداد صوتي حدّة وانكشافًا، ولا يمكنني لكم أيّ كان، ولا ركله.

لكل ذلك، ولدقّة أصابعي وطول أظافري وانتظام أسناني ولون الزغب الفاتح المتناثر الذي ظهر على ذقني وفي موضع شواربي حتّى لا يكاد يُرى،

وخجل ضحكتي، كنتُ أُنادى بـ" يا حلو"، ويا "نظيف"، ويا "عيوني"، ويا "قمر" من أقراني في المدرسة المتوسّطة والثانوية، ولا أعترض.

فيّ شيء مختلف. هذا كان ممّا يدركه طفل في مراهقته، لم أحتج لمرشد ولا مَن يدلّني. وبالتأكيد لم أكن في انتظار أن يحشرني أحد "زعران" المدرسة في زاوية الصفّ بعد انتهاء الدوام، ويضع ركبته بين رجلي ليتأكد إن كان هنالك شيء بينها. وحين تأكّد، أمسك برقبتي كأنه يخنقني، وقال: "طيّب هيك زينا! ليش وجهك متل وجه الشرموطات!".

لم أكن أيّامها أعرف كيف يبدو وجه الشرموطات، ما كنتُ أعرفه من سلوك من حولي، أن وجهي كان جميلًا لأنثى، لا لذَكَر. احتجتُ لسنوات حتّى يراه أحدهم جميلًا لذَكَر أيضًا، وأحدهم هذا، كان رؤوف ببساطة".

أهمّ بترتيب نفسي للمغادرة، لا أدري إلى أين، ولكنْ: قبل أن أنهض، تدخل مجموعة إلى المقهى، يملؤونه عن آخره، أكثر من عشرة، شبّان وفتيات، أجانب وفلسطينيون.

ينهض آرنو لتحيّتهم، يتبادلون الأحضان والقبلات والمصافحات، ويبدأ بتعريفي عليهم وتعريفهم عليّ.

أدخل في دوّامة تعارف ومجاملات. أشعر بنفسي حاضرًا وغائبًا في الوقت نفسه، أحاديث كثيرة، والوقت يمضي، وأنا أستمع وأحاول الردّ بالحدّ الأدنى من الكلمات. في أكثر من مرّة يمازحني آرنو قائلاً إنني سأعمل معه في الفترة المقبلة، ويقول لأصدقائه الذين لا أعرفهم إنني شخص مميّز.

على يد رؤوف تخلّصتُ من رهبة التواجد في أوساط مختلفة عني ثقافيًّا واجتماعيًّا، عالجني رؤوف من علل كثيرة، وسوّى ندوبًا كثيرة في داخلي، ودرّبني على مجاراة الناس وإشعارهم بانعدام الفارق بيني وبينهم. هذا كله في فترة قياسية. كنتُ معجونًا سهل التشكيل.

آرنو يهمس في أذني، ولا أسمع شيئًا، أهزّ رأسي، ثمّ أخبره أنني سأغادر.

أُلقي تحية على الجميع، وأدفع ثمن ما شربتُ، وأخرج.

أتمشّى قليلاً في الشوارع الجانبية، وأشدّ اللفحة على وجهي، أحاول أن أطرد كل شيء من ذهني، تمامًا كما يفعل بائع الزلابية مع كوم الذباب المجتمع طلبًا للسُّكَّر والضوء. المشي يصفّي الذهن، ويركّز المشاكل، ويحدّدها. هذا ما تعلّمتُه في السنوات الأخيرة. أقرّر الوصول للشقّة مشيًا، ولا أعبأ بالبرد.

أقترب من بنايتنا، وأتذكّر ككل مرّة، أول مرّة وصلتُ فيها إلى الحي، حين أقنعني رؤوف بالقدوم للسَّكَن معه، وترك بيرزيت.

"أول مشهد مختلف وقعتْ عليه عيناي وأنا أعبر الحي المكتظّ كان عبر نافذة طولية، رجل في أواسط العمر يغسل عضوه واقفًا أمام المغسلة.

لم يثر الأمر فيّ أيّ تقزز أو ردّ فعل معرضًا عن النظر، بل واصلتُ النظر بقدر عال من الهدوء. ربّما للتعرّف على الطريقة التي يغسل فيها عضوه، كأنني قلتُ لنفسي سريعًا إن معرفة كيف يغسل هذا الرجل عضوه قد تكون فرصة نادرة ولا تتكرّر، فعلى الرغم من أن فعلاً كهذا يمارسه كل ذُكُور الأرض إلا أنه يتمّ دون تبادل خبرات أو اطّلاع على تجارب الآخرين، وربّما كانت للرجل طريقة خاصة أو تقنية مميّزة.

كان طول المغسلة مناسبة ليضع عضوه داخلها مع رفع حوضه للأعلى قليلاً، ومع قليل من الصابون، يفرك العضو، ثمّ يغسله بين يديه من ماء الصنبور الرتيب، ظلّ يكرّر الحركات بهدوء، ودون النظر إلى عضوه، كأنه يغسل يديه، بل كأن العضو تحوّل إلى يد ثالثة تتغاسل مع يديه، ويغسلهما كما يغسلانه.

كان ينظر إلى نفسه في المرآة وتحديدًا إلى وجهه ولحيته، شعرتُ أن

المراقبة طالت، وكذلك عملية الغسل الاحترافية، وشعرتُ بفضول لمتابعة طريقته في تنشيف عضوه، حتّى أُقفل حلقة غسل العضو. ولوهلة رغبتُ في مواصلة المشاهدة علّ التي جعلت عضوه بحاجة لكل هذا الغسل تظهر على تلك الشاشة المستطيلة.

حين أخذ ينشّفه بفوطة صغيرة معلّقة بطريقة توحي أن الغرض منها محدّد تمامًا، وهو تنشيف الأعضاء، مع تركيز عال في تحريكه للوصول إلى الانثناءات التي يفضّلها البلل، وبدا وكأنه يُنهي طقوسه تلك، فقدت الأمل في قدوم المرأة؛ لتكتمل حفلة تغسيل الأعضاء، بعد أن تخيّلتُ أنها هي ربّما أيضًا تغسل عضوها واقفة على المغسلة، مَن يدري؟!

وحين تيقّنتُ أن التفاتة واحدة منه صوب الشبّاك بعد فروغه من العضو والفوطة ستكشف أمري، وأنني تماديتُ في التلصّص، وحين بدأ بالالتفاف صوب باب الحمّام خارجًا، ظهر من العدم شابّ آخر، دفعه بلطف، ودخل الحمّام.

من وقع الصدمة، تخيّلتُ أن عيني الشابّ رصدتا عينيّ ووجهي لحظة واجه النافذة، وهو يدخل الحمّام، فهربتُ سريعًا من مواجهة النافذة كأن أمري افتُضح.

مشيتُ مسرعًا مرتبكًا محاولًا عدم التفكير في الأمر حينها.

هل رآني الشابّ، وعرف أنني أراقبهما؟ هل سيميّزني الشاب إن رآني مرّة أخرى في الحي؟ هل شعر بتوتّر أو خوف أو خجل حين أدرك أنني أراقبهم؟ لماذا لم أنتظر قليلًا؟ ربّما لم يرني الشابّ، هل كل هذا الأمر يستحقّ قلقي؟ السؤال الأخير هو ما قرّرتُ الإجابة عنه بـ"لا" حينها، ولكنْ؛ بعد حين تبيّن أن إجابتي خاطئة، وأن ذاك المشهد استحوذ على ذهني وتفكيري ولياليّ" .

أدخل الشقّة، رؤوف ليس هنا. لن يعود بالتأكيد. سأنام قبل أن أبكي. أشرب ما يتوفّر على الطاولة، وأرتمي.

آرنو يهمس في أذني، ولا أسمع شيئًا، أهزّ رأسي، ثمّ أخبره أنني سأغادر.

أُلقي تحية على الجميع، وأدفع ثمن ما شربتُ، وأخرج.

أتمشّى قليلاً في الشوارع الجانبية، وأشدّ اللفحة على وجهي، أحاول أن أطرد كل شيء من ذهني، تمامًا كما يفعل بائع الزلابية مع كوم الذباب المجتمع طلبًا للسُّكَّر والضوء. المشي يصفّي الذهن، ويركّز المشاكل، ويحدّدها. هذا ما تعلّمتُه في السنوات الأخيرة. أقرّر الوصول للشقّة مشيًا، ولا أعبأ بالبرد.

أقترب من بنايتنا، وأتذكّر ككل مرّة، أول مرّة وصلتُ فيها إلى الحي، حين أقنعني رؤوف بالقدوم للسَّكَن معه، وترك بيرزيت.

"أول مشهد مختلف وقعتْ عليه عيناي وأنا أعبر الحي المكتظّ كان عبر نافذة طولية، رجل في أواسط العمر يغسل عضوه واقفًا أمام المغسلة.

لم يثر الأمر فيّ أيّ تقزز أو ردّ فعل معرضًا عن النظر، بل واصلتُ النظر بقدر عال من الهدوء. ربّما للتعرّف على الطريقة التي يغسل فيها عضوه، كأنني قلتُ لنفسي سريعًا إن معرفة كيف يغسل هذا الرجل عضوه قد تكون فرصة نادرة ولا تتكرر، فعلى الرغم من أن فعلاً كهذا يمارسه كل ذُكُور الأرض إلا أنه يتمّ دون تبادل خبرات أو اطّلاع على تجارب الآخرين، وربّما كانت للرجل طريقة خاصة أو تقنية مميّزة.

كان طول المغسلة مناسبة ليضع عضوه داخلها مع رفع حوضه للأعلى قليلاً، ومع قليل من الصابون، يفرك العضو، ثمّ يغسله بين يديه من ماء الصنبور الرتيب، ظلّ يكرّر الحركات بهدوء، ودون النظر إلى عضوه، كأنه يغسل يديه، بل كأن العضو تحوّل إلى يد ثالثة تتغاسل مع يديه، ويغسلهما كما يغسلانه.

كان ينظر إلى نفسه في المرآة وتحديدًا إلى وجهه ولحيته، شعرتُ أن

٨ شباط ٢٠١٢

مقتـــل ١١٠ مدنيـــين في قصـــف النظـــام الســـوري معظمهـــم في حمـــص.

وكالات

(٤)

أُنهي الامتحانات بأداء جيد، هذا غير معهود، وأحاول تجنّب أي حديث مع زملائي وزميلاتي، تحديدًا آية، اقترابها مني، بل تجرّؤها على اقتحام مساحتي يربكني وأحيانًا يخيفني، أشعر أنها قادمة نحوي لتنفيذ مهمّة.

آخر الامتحانات والعمل وغياب رؤوف، هكذا تمضي أيّامي. تعبتُ من الجلوس على أدراج الجامعة حاملاً هاتفي واسم رؤوف أمامي، وأسأل نفسي ألف مرّة هل أتصل به أم لا. ينتهي الأمر بالتذكّر وضيق النَّفَس وبكاء أُوقفُه حين أشعر أنه بدأ يغلبني.

كل شيء في الجامعة يحيل إلى رؤوف، وأنا معذّب تتلاعب بي الأشياء.

أُقنع نفسي اليوم أنها كانت أيّامًا جميلة، وأنني سعيد بما كان لي منه، وأحاول الاقتناع بأن ما كان، يكفي.

"منذ اللحظة التي ارتمى فيها على المقعد بجانبي في محاضرة القضية الفلسطينية، وشممتُ رائحة دخان كثير تنبعث منه، اللحظة التي وضع فيها يده على دفتر الملاحظات وابتسم، وقال: "خطك حلو جدًا". تغيّرتُ. بدأتُ أستسلم لهذا الشابّ القادر على اختراق حياتي دون أن أشعر بأي رفض أو تردّد.

أنظر إلى نفسي، فأعرف ما فعل رؤوف بي.

أفكّر اليوم ورؤوف يغيب من صفحة حياتي عن كل ما فعله لي ومعي، أتذكّر ما غيّر فيّ، وكيف غيّره. رؤوف أقنعني أن قليلًا من الانفصام مطلوب

حتّى أتجنّب كثيرًا من المشاكل والعقبات في حياتي الجامعية وخارج الجامعة، كنتُ أضعف من خوض أية مواجهة، فوافقتُ على الانفصام على يد رؤوف.

بدأ من ملابسي، اشترينا ملابس معًا، رؤوف أضخم مني قليلًا، بل أطول، وبظهر أعرض، إلا أن جسدينا متشابهان، وهذا ساعدنا في شراء ملابس لنا نحن الاثنين، نلبسها نفسها، لم تكن لديّ مشكلة في ارتداء ملابس أكبر مني قليلًا، خاصة إن كنتُ سأتشاركها مع رؤوف.

بدأت ملابسي تميل للألوان الداكنة، وتشبه ملابس الشبّان متوسّطي الحال في الجامعة، هي نفسها ملابس رؤوف حين عرفتُه. ثمّ الإصرار على أحذية ضخمة، بساطير باللغة الدارجة، ثمّ تسريحة شعر قصير، لا تحتاج تصفيفًا ولا عناية.

خارج السَّكَن، كان رؤوف يشكّلني كما يريد، يجعلني "زلمة" مثله كما كان يقول، وكنتُ مستسلمًا لذلك، كان على حقّ، اختفت الكثير من نظرات وعبارات السخرية، وباتت الأمور أسهل خارجيًّا، توقّفتُ عن الوقوع بمشاكل سخيفة، لا يُنقذني منها أحد.

بعد الهيئة انتقل معي إلى مستوى آخر، وأنا كامل الاستسلام، المشية وطريقة الكلام.

في الحقيقة أكرهتْني البساطير على تعديل مشيتي، فباتت تشبه مشية المراهقين الخارجين من النوادي الرياضية، وباتت أسرع، أو هكذا درّبني رؤوف بعد المشي لساعات في طرقات الجامعة إلى جانبه، كنتُ أُسرع لألحق به، ثمّ انتظمت مشيتي كما يحبّ.

ظلّت مشكلة الكلام، حاول رؤوف جاهدًا أن يضخّم صوتي، وأن يدرّبني على نبرة عالية مختلفة عن نبرتي "الدلعة" كما كان يسمّيها، ولكنْ؛ عبثًا، لم يكن العبث مع لساني سهلًا، ظل عَصيًّا على محاولات رؤوف.

في الحقيقة كنتُ متمسّكًا بألا يصل الانفصام إلى لساني، شعرتُ أنني بحاجة لشيء واحد سَويّ غير مفصوم، وكان لساني، ولذلك صرت قليل الكلام، بالكاد أتحدّث مع مَن لا أعرفهم، وإن تحدّثتُ، ظنّوا أنني أعاني خطبًا ما، مريضًا أو متعبًا.

رؤوف أقنعني بالانفصام حتّى أستطيع العيش في الجامعة وفي رام الله، حيث يجعلكَ الناس موضوعًا للرصد والمراقبة وإطلاق الأحكام قبل أن يروا فيك أي شيء آخر.

أصبحتُ اثنين، واحدًا خارج السَّكَن ومع الناس، والآخر داخل السَّكَن مع رؤوف.

داخل السَّكَن أخلع الملابس تلك، وأُلقي على جسدي أي شيء، وفي أغلب الأحيان أتجوّل بالحدّ الأدنى من الملابس، أمشي في الشقّة الصغيرة، وأذرعها طوال الوقت بمشيتي الحقيقية، مشية يحبّها رؤوف، وتُمتّعه كما يقول لي دومًا.

في الحقيقة بعد فترة من الانفصام ذاك لم أعد قادرًا على تمييز أي المشيتين هي مشيتي الحقيقية، إلا أنني ظللتُ أنحاز لمشية السَّكَن.

في السَّكَن أتحدّث بصوت عال، وبنبرتي التي أحبّها ويحبّها رؤوف. كنتُ بمجرّد دخول باب السَّكَن أعود إليّ، وأتعرّى من كل ما وضعه عليّ رؤوف من أغطية وأردية في الخارج، حين أدخل السَّكَن أبدأ بالنبش والحفر حتّى أعثر على نفسي، أنفض عني كل ما ألقاه عليّ الناس من توقّعات ومحظورات ومشاعر وإكراهات، حتّى أعثر على نفسي؛ لأغدو خفيفًا عاريًا، كنتُ أشعر أنني أتعرّى لرؤوف، ويُعرّيني، ويُفاجئني دومًا بجلب هدايا سخيفة مضحكة، ألبسها ونلعب كطفلين.

كنتُ مكتمل الاستسلام بين يدي رؤوف، وساكنًا خاضعًا بين يدي الناس.

السنة والنصف الأخيرة أسهل ببساطة، لا يمكنني الجزم أنها صارت أسهل؛ لأنها مع رؤوف أم بسبب ما تغيّر على سلوكي على يد رؤوف. بالمحصّلة صارت أسهل، عرفتُ الأمان والهدوء والسعادة وألوانًا عجيبة من المتعة، إلا أن الحقيقة الأوضح كانت ماثلة طوال الوقت، ما أعيشه لم يكن ليستمرّ إلى الأبد، والنهاية المحتومة لذاك الربيع كانت تقترب".

أصل رام الله، وتبدأ الحيرة الخانقة، ماذا أفعل؟! لا أريد الذهاب إلى العمل كأنني مشرّد لا مكان له، ولا أريد العودة إلى السَّكَن، ولا شيء لي في هذا كله، أدرك في أوقات كهذه كم كان تفريغ حياتي إلا من رؤوف خاطئًا، أشعر بفراغ كبير يلتهمني، يقتات عليّ، وأنا أقطع الشوارع دون أية وجهة محدّدة، لماذا ملأتُ حياتي به؟ لماذا لم أترك مساحات ناجية من طوفانه، حتّى ألتجئ إليها حين يحتلّ غيابُه حضورَه.

أفكّر بالاتّصال بآرنو، هاتفني بشكل شبه يوميّ في الأيّام الماضية، ودعاني للخروج، فتذرّعتُ بالعمل، يمكنني الاتّصال به، أتراجع، هذا أنا ماكينة أفعال منقوصة وتردّد.

أمشي إلى السَّكَن، لم تعد تُتعبني المسافات. الكل منشغل بأخبار المنخفض الجوّي القادم، ستُغلق الطرقات بالثلج. لا أكترث، سأخرج كالمعتاد، لم يعد لديّ مَن تغريني فكرة أن أعلق معه في بيت تسدّ الثلوج الطريق إليه.

أصل السَّكَن، وأحاول النوم، أغفو وأستيقظ مرارًا، ضيق غريب في كل شيء، أطلب طعامًا من مطعم قريب، وأنتظر.

خواء يملأ كل شيء، معدتي خاوية رغم ما دلقتُه فيها من طعام. أنتبه للوقت البطيء، ولا أفلح في تسريعه.

أقرر الانغماس في أعمال البيت، التنظيف وغسل الأواني، أنهمك فيها

لساعات، أرتّب كل شيء. أشعر أنها أشياء صغيرة تُفلح في تحييد كل ما حولي، في إبعادي عن كل ما يضيق به صدري. أرتّب الصالة، أمسح الطاولة وكل رفّ وزاوية وسطح موجود، حتّى الأضواء التي لا أظنّ أن أحدًا مسحها ولمّعها من قبل. أشطف الأرض. أتّصل بالدكّان القريب، وأطلب منه أن يرسل مع الصبي موادّ لتنظيف الأرضية، ثمّ قبل أن يصل الولد، أقرّر أن أنزل أنا وأختار أي رائحة أريد.

أنظّف كل شيء. لم أر السَّكَن نظيفًا إلى هذا الحدّ، مرتّب وكل شيء فيه جاهز...

جاهز لماذا؟

أجلس في الصالة بعد تبديل ثيابي المتّسخة.

أنتظر

مثل زوجة بائسة تنتظر عودة زوجها المتأخّر دومًا.

كل شيء وأنا، في انتظار حدوث شيء ما.

قدوم شخص

دخوله من الباب

أشعر بحرارة في بطني، وبحرقة في عيني.

لن يأتي أحد، ولن أحتمل رؤية كل هذه الأشياء المستعدّة والمنتظرة.

أخرج.

أمشي...

أفكّر بالاتّصال بالمطعم، والسؤال إن كان أحدهم يود تبديل نوبة عمله معي، أتّصل، فلا يردّ أحد.

"أقرّر العودة للبيت ومواجهة خوائه، مواجهة كل ما يؤلمني ويبكيني ويزعجني، أشعر أن في الأشياء المحزنة منسوبًا محدّدًا من الحزن ينقص مع كل تكرار.

على بعد بنايتين أقف عند حافة الطريق سائدًا كتفي إلى الحائط، أنظر إلى بنايتنا من بعيد، أراقب المدخل ونوافذ الدرج وصولًا إلى طابقنا، كأنني أتلصّص على حياة تدبّ في السَّكَن، أتمنّى لو أنها لا تزال مستمرّة، وأخشى أن أقترب أكثر حتّى لا أفسدها، أو أكتشف أنها لم تعد موجودة. أشكّ لوهلة أنني ورؤوف لا نزال هناك في الداخل. يُبكيني التوهّم.

أعود للشقّة، وفي طقس تعذيب كامل أتذكّر كل الأشياء الجميلة، كل شيء لي مع رؤوف، أنظر وأتنعّم في كل قطعة أثاث، في كل كوب وزاوية وقطعة ملابس، أمشي مع الوجع حتّى آخره، أمرّر السّكّين على الجراح نفسها، كلّما اقتربتُ من الشفاء. وأشغّل اللاب توب الصغير الذي اشتريتُه مع رؤوف؛ ليلقي بكل أغانينا الحزينة والفرحة في البيت ومسمعي.

أظلّ أكرّر مقطع أغنية فيروز وهي تقول: "تركني شوف الإشيا وما تذكّرني فيك"، كرجاء يائس لا أمل بتلبيته. سأظلّ أرى وأعيش مع أشيائي أنا ورؤوف، وستظلّ تذكّرني به، ولا حلّ إلا بمزيد من الألم الذي يحوّل القلب مع الوقت إلى عضلة مخدّرة.

أبكي حتّى تحرق الملوحة خدّي.

ثمّ في لحظة لا يميّزها شيء، أمشي نحو المغسلة، أملؤها بالماء وأنقع وجهي لثوان، أكرّر النقع، ثمّ أنشفه، كأن شيئًا لم يكن."

أتمدّد محاولًا ترتيب زحام الأيّام الماضية، أراجع الأحداث للتأكد من أن ما حصل حصل فعلًا، ولمراجعة كل موقف ورأي وحركة والتأكد من أن تسارع الأحداث لم يتسبّب في خيار خاطئ أو سلوك سأندم عليه.

التفكير بآرنو يُريحني، بترحيبه لي بحرارته تجاهي، بعباراته الغامضة عن العمل معه، بطلبه المتكرّر لي بالعناية بنفسي، وبوجوده دومًا، إن احتجتُ لمساعدة.

"فجأة، أتذكّر أنني لم أهاتف أمّي منذ أسبوع تقريبًا، وهي لم تهاتفني رغم علمها بأنني في فترة امتحانات هي الأخيرة لي في الجامعة، أشعر بقليل من الضيق، فمهما فترت علاقة الوالدين بابنهما، يجب ألا تبلغ حدّ الامتناع المتبادل عن الاتّصال لأسبوع كامل!

الساعة تقترب من الواحدة فجرًا، هل يمكنني الاتّصال بها؟ أمي قالت في زيارتي الأخيرة إنها كبرت، لم تعد تحتاج لأكثر من ٤ ساعات من النوم، وتظلّ مستيقظة تشاهد التلفاز، ربّما تكون مستيقظة! أبي بالتأكيد في ثامن نومة.

لا أدري من أين يأتي هذا القلق الغريب على أمّي، أكره هذا الشعور الملحّ بالحاجة للاطمئنان، تحديدًا حين يحاصرني في وقت يصعب فيه إسكاته بالاطمئنان.

أنهض من السرير، وأجول في الغرفة، لم يكن هذا متوقّعًا، أعرف نفسي، سأظل تائهًا حتّى أطمئنّ.

يجب أن أقمع هذا الابتزاز الداخلي!

أفكّر في مأزقي الأكبر مع عائلتي، لو كانوا يعرفون أي شيء عن حياتي اليوم هل كانوا سيعبؤون بي؟ هل كانوا سيفكّرون بي إلا كمصدر للقلق والحيرة والتحسّر والفضيحة أيضًا؟!.

بالتأكيد ستنتهي هذه الحالة المحكمة من التخفّي والتمثيل، ربّما قريبًا، لا أدري!

يغلبني التفكير، ويأخذني للسؤال نفسه في كل مرّة أنشغل بها بأمّي، ليست هذه مشكلة الليلة، يجب أن أتّصل بها، وأنهي هذا الأمر.

لو أن هنالك أي مكروه طالها، لكانوا هم اتّصلوا بي!

ها أنا أضاعف قلقي بالتفكير بالمكروه، في مواقف كهذه يمضي التفكير بمسارات خاصّة، لا قدرة لي على ضبطها، ما بدأ كتفكير عابر بأحوال العائلة انتهى إلى خوف من المكروه المكتوم عني.

سأتّصل، وأنهي هذه المهزلة.

أكره قلقي على أمّي وأبي، لا أظنّهما فكّرا بي طوال اليوم.

أبحث عن الهاتف، وأتّصل على هاتف أمي المحمول معلنًا هزيمتي أمام القلق والتفكير والابتزاز الداخلي.

يرنّ طويلاً، بالتأكيد نائمة، هي قالت أربع ساعات، ولكنها لم تحدّد أي ساعات.

- "ألو .. ألو". تجيب فزعة. فأحاول أن أبدو في غاية الارتياح:

- "ألو ما في شي بس بدي اطّمّنْ عليكي، كيف حالك؟"

- "شو في؟ شو صايرلك؟" تردّ باضطراب، وصوت مرتفع أيقظ أبي على الأرجح.

- "ما في شي، ما في شي، بس بطّمّن عليكي، ما انتبهت إنو الوقت متأخّر، ارجعي نامي". أحاول افتعال قدر أكبر من الارتياح.

- "برضاي عليك شو صاير، ما تقلقني، أنا مش ناقصة!". تردّ بعصبية واضحة وصوت استيقظ على مصيبة.

- ...

يتكرّر مشهد قديم، يتحوّل الاتّصال عن غرضه في الاطمئنان عليها إلى محاولة لطمأنتها عليّ، محاولة إقناعها أن كل شيء أفضل ممّا تتخيّل. تنقلب الأمور عليّ، وأخفق في طمأنتها، وأندم على استسلامي للهواجس والابتزاز.

سأظلّ أدور في هذه الدوّامة، هذا القلق غير المبرّر عليها ينبع من مكان ما في داخلي، لا يمكنني ضبطه.

أندم لأنني اتّصلتُ، وأضيق بمحاولات طمأنتها، وأشعر بالنعاس وأكره فكرة العائلة والأمّ والأب والعواطف المندلقة فجأة.

لو كانت قلقة عليّ؛ لاتّصلتْ في الأيّام الماضية!

تعكّر مزاجي، أغلقتُ الهاتف، وهي تتمتم بأدعيتها الطويلة المكرّرة. سئمتُ هذا كله.

يظهر رؤوف!

يظهر بعد ظنّي أن ساعات الدموع قد جرفتْه.

لماذا يخطر رؤوف ببالي الآن تحديدًا؟

أنا أعرف.

كان يطلق تعليقات مكرّرة بعد أيّ اتّصال لي مع أمّي أو أبي، كنتُ أتبرّم منهما بمجرّد إغلاق الهاتف، فيقول: "إنتِ بتطّمن على صورتك عندهم، مش بتطّمن عليهم. لو كنتُ مكانهم لشعرتُ، أنك تخفي شيئًا، كأنك تحاول الاعتذار عن شيء لا يعرفونه. لازم تتجاوز هالقصّة".

أريد أن أنام، ولا أفلح. يتمدّد الليل في داخلي، وأشعر أنه لن ينتهي، لا قيمة للساعة في هاتفي، ولا للساعة في الحاسوب. الليل الطويل أقوى من الوقت.

أشعر أنه لن ينتهي.

ينطلق أذان الفجر من مسجد يبدو بعيدًا جدًا. لا أدري كم مضى عليّ من وقت لم أسمع أذانًا واضحًا كهذا. يخفّف توتّري، أشعر أن الصباح قريب.

"دخلتُ المسجد مرّة واحدة في حياتي، طبعًا دخلتُه طفلًا وصبيًّا ومراهقًا، ولكنني بعد ذلك لم أدخله إلا مرّة واحدة. منذ دخولي الجامعة، وأنا أعتقد أن هذه حياتي فقط، أما ما قبلها؛ فشيء لا أستطيع أن أقول عنه "حياتي".

في تلك المرّة الوحيدة كنتُ بحاجة قاتلة لقضاء حاجتي، ولم يكن هنالك أي مكان متوفّر إلا مسجد قريب. كان الوقت مساء، بعد صلاة العصر وقبل صلاة المغرب. وأظنّ أنني كنتُ أحشر نفسي وأؤخّر قضاء حاجتي حتّى كدتُ أفقد السيطرة على جسدي.

دخلتُ بشعور غريب. أن يعدّ كثيرون المسجد مكانًا لقضاء حاجاتهم، فهذا عادي، خاصّة المساجد القريبة من الأسواق، ولكن الغرابة لازمتْني.

نظرتُ إلى الآخرين القليلين الذين كانوا في المسجد ساعتها، خفتُ أن يكون واضحًا أنني أدخل المسجد لتفريغ مثانتي فقط. فكّرتُ بالتظاهر بالوضوء.

الرائحة قديمة، ككل دورات المياه في المساجد، عطنة، وتثير الحاجة للبصق، وتعكّر الوجه. ولكنْ؛ يجب أن أتوضأ، هكذا قلتُ لنفسي.

ذاكرتي كانت لا تزال تحتفظ بخطوات الوضوء، كما حفّظوني إياها في المدرسة الابتدائية، وكما كرّرتُها كل يوم عدّة مرّات حتّى توقّف أبي وأمّي عن متابعة وضوئي وصلاتي، واطمأنّا أنني على طريق قويم. ولكني لوهلة شعرتُ أنني فقدتُ الترتيب، متى أمسح رأسي؟ قبل غسل يدي حتّى المرفقين؟ أم بعدهما؟ أم بعد غسل رجلي؟ محاولة التذكّر توّهتْني تمامًا، حاولتُ اختلاق منطق للأمر، البدء من الأعلى نحو الأسفل، فتذكّرتُ أنني أبدأ بغسل الوجه، وبالتأكيد غسله قبل مسح الرأس! صار الأمر مربكًا!

انتبهتُ لعجوز قادم ليتوضّأ، فقلّدتُه مع مبالغة في أداء الحركات وغمر الأطراف بالماء. لا أزال أذكر أن هذه سُنّة نبوية.

انتهيتُ، وهممتُ بالخروج.

إلا أنني شعرتُ بما يشبه تأنيب الضمير، شيء شبيه بما كنتُ أشعر به بعد أن أنتهي من إمتاع نفسي قبل سنوات. فكّرتُ بالتحايل على هواجسي وقلقي المفاجئ، بفعل أي شيء من أفعال المسجد. كأنني أردتُ أن أطيّب خاطر الله.

دخلتُ إلى المصلى، مشيتُ قليلاً، هنالك رجل يقرأ القرآن مستندًا إلى أحد الأعمدة، وهناك شابّان نائمان.

فكّرتُ بحَمْل المصحف أو صلاة ركعتين، لم أجد ذلك مناسبًا، وشعرتُ أنه مبالغة في التظاهر. قررتُ أخيرًا أن أقرأ الزخارف القرآنية والأذكار المرسومة والمكتوبة على جدران المسجد وفي بطن القبّة، معتبرًا هذا تعبّدًا من نوع خاص، صلاة خاصّة لردّ الاعتبار للمسجد، وإراحة ضميري.

بدأتُ بالقراءة، فانتابني هواجس وبوادر خوف أن تكون تلك الآيات رسائل موجّهة لي، رسائل من الله والغيب، وأن كل ما حدث لي منذ شعرتُ بحرقة لا تُحتمَل في مثانتي حتّى وقوفي في صحن المسجد هو تدبير خفيّ لي حتّى أقرأ هذه الآيات التي تخاطبني أنا تحديدًا.

تراجعتُ وتحاشيتُ النظر إلى أي منها، تملّكني الخوف والتوتّر.

انسحبتُ نحو باب المسجد، متمتمًا بـ "يا ربّ".

اكتفيتُ بها، كنداء لائق بالمسجد وبحالتي.

حين تنفّستُ رائحة السوق، تذكّرتُ صديقة في الجامعة، أخبرتْني في سنتنا الجامعية الأولى أنها قبل نومها تفتح الإنجيل عشوائيًا، وتقرأ أول سطر تقع عليه عيناها معتبرة ذلك السطر رسالة من يسوع لها.

كنتُ مقتنعًا أنني لو فتحتُ القرآن بتلك الطريقة، لما واجهتني إلا آيات

الوعيد والعذاب، كنتُ لا أجد لي مكانًا بين مَن يخاطبهم الله بكلمات لطيفة، ويبشّرهم بخير كثير.

احتجتُ لوقت طويل حتّى أتخلّص من هواجس زيارة المسجد الخاطفة تلك، ومن فكرة رسائل الله لي بطرق غير متوقّعة عبر آيات قرآنية، أسمعها فجأة في أول ركوبي في التاكسي، أو عند المرور على إذاعة القرآن، وأنا أتنقّل بين الإذاعات، أو تلتقطها أذني صباحًا وأنا أعبر السوق منطلقة من كشك لبيع الأغاني، يبدأ يومه بآيات قليلة من القرآن قبل أن تحتلّ سمّاعاتِه مغنّيات ومغنّون شعبيون، يقولون كل شيء بصراحة غير مسبوقة.

منذ أمد لم يعد الله يرسل لي رسائله تلك، أو لم أعد قابلًا لاستقبال أي رسائل. لا أنتبه للآيات الخارجة من سمّاعات المساجد وبائعي الأغاني، بل إني لا أستطيع تذكّر أنني سمعتُ الأذان في آخر سنتين، رغم أنني أعيش في مدينة مليئة بمساجد بمؤذّنين أصواتهم ناشزة، تستفزّ أي أذن كأنها أجهزة إنذار للكوارث.

كأنني لم أعد مهيّأ لاستقبال شيء من هذا، أو مَن أنا ليظلّ الله يرسل لي رسائله دون انقطاع رغم إعراضي؟!".

تُنوّمني الخواطر القديمة.

(٥)

"زياراتي لأهلي متقطّعة ومتباعدة، أفلحتْ ذريعة الحواجز الإسرائيلية في تملّصي منهم لسنوات. في كل اتّصال تسألني فيه أمّي إن كنتُ سآتي لزيارتهم في نهاية الأسبوع كنتُ أذكّرها بعدد الساعات التي قضيتُها على الحواجز في المرّة الفائتة، وأؤخّر الزيارة.

ولكنْ؛ حين تحصل الزيارة تبدو وكأنها عودة من سفر بعيد، فتجتمع العائلة أو مَن يستطيع منهم الاجتماع، ونتناول غداء مشتركًا، تعقبه ظهيرة مستفزّة من الأحاديث التي أعتبرها ضريبة مضاعفة على زيارة العائلة. لم أكن أشعر فعليًّا أنني مَعني بأحاديث العائلة وهمومها، كنتُ بعيدًا تمامًا، في عالم آخر مختلف كُلّيًا. وتزيد غربتي عند أي حديث ديني ينسجم فيه أخي الكبير، أو دعوة متكرّرة للصلاة، أو أي سؤال شخصي عن حياتي في رام الله.

أما بدايات هذا الانفصال؛ فكان في سنوات مبكّرة، في عزّ الانتفاضة، كان أهلي مشغولين بها، ليس لهم انتماء تنظيميّ واضح، ولكنهم منحازون لكل ما هو إسلاميّ، وكانت الانتفاضة صعودًا مستمرًا لحركة حماس. زوجة أخي الكبير كانت ناشطة، بل قيادية، وتعتزّ العائلة بها، وكنتُ أشكّ بنشاط أخي، زوجها، لطالما شعرتُ أنه شخص مهمّ في حماس، ولكن الظروف الأمنية لم تسمح بإظهار ذلك.

والدي بحكم عمله تاجرًا وصاحب محال تموينية، كانت علاقته بحماس طيّبة، يشترون المساعدات التي يوزّعونها على الفقراء منه، ولكنْ؛ بطريقة متوارية، بدا لي أنه يستفيد من حماس كثيرًا، ولكنْ؛ دون أن يُظهر ذلك،

ويمكن مداراة الأمر بتبرّع سخي يقدّمه أبي للأيتام والفقراء وعوائل الشهداء والأسرى.

لم تفوّت العائلة بكل أفرادها أي مناسبة وطنية كبرى، جنازات الشهداء والمهرجانات الوطنية الجماهيرية. ومن طريقة تعامل المنظّمين والنشطاء مع أفراد عائلتي تأكدتُ أن لنا مكانة مميّزة، ولكنني لم أنشغل بها. بعد سنوات أدركتُ ذكاء أبي، فلم ينلنا أي سوء من الاحتلال أو من السلطة أو فتح، لم يُعتقل أحد من العائلة، ولم يدخلوا في الصدام الداخلي بين الفصائل، كان ذكيًا يعرف متى يتقدّم ومتى يتراجع دون أن يخسر، تاجر بالفطرة. ولذلك ربّما كان منشغلًا بكل ما يقع خارج البيت تاركًا البيت لأمّي.

كانت أمّي تتباهى بتديّنها. تجمع نساء الحي ووجاهات المدينة في المنزل للحديث بأمور الدِّين، ولا تتردّد في الإنفاق بسخاء على المؤمنات وضيافتهنّ، وحين تجتمع لديها الناشطات سياسيًّا في حماس تستعرض زوجة ابنها البكر أمامهنّ، فالكل يعرفها. تلك كانت تحيا بهوس واحد وحيد، التنظيم، الحركة. كنتُ أرصد هَوَسَها بكل ما له علاقة بحركتها، شاغل حياتها الوحيد. وأذكر جيدًا كيف كانت تنتشي وتملؤها سعادة غامرة حين ترى بنات أخواتها في الحركة يكبرنَ، وعليهنّ ملامح النضج والجمال، سمعتُها مرارًا تجاملهنّ، وتقول: "هيك بنتطمّن ع شبابنا".

لم يكن يُسعدها شيء مثل تدبير الزيجات بين شباب الحركة وبناتها، كأنها تشتري بذلك مستقبلًا للحركة، وتضمن استمرارها. ومن خلف باب غرفة الضيوف كنتُ أسمع تغزّلها بإحدى الأخوات أمام أمّ أحد الإخوة. كانت تعرف جيدًا أن الروابط الاجتماعية أهمّ شيء في الحياة التنظيمية، ولذلك تنهال بالقبلات والأحضان على أمّي بعد ترتيبها لأي اجتماع نسائي في البيت.

وأخطر مهمّات زوجة أخي تزويج زوجات الشهداء، تصبح الحركة وكأنها حمو أو حماة زوجة الشهيد ابن الحركة، ومستقبلها شيء يخصّ الحركة، لا

مشاعر ولا رغبات. هنالك زوجة أخي ومثيلاتها مَن ينظرن إلى الأمر كمهمّة، ويبحثنَ سريعًا عن أخ يتزوّج أرملة الشهيد، كل الاحترام والعناية الخاصة الذي تناله أرامل الشهداء يختفي عند تزويجهنّ، يمكن أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة لأحدهم، فالمهمّ أن تتزوّج بأي طريقة، وزوجة أخي، تجعل كل هذا ممكنًا بطريقتها النادرة في الإقناع وحرارتها العجيبة في كل ما يخصّ الحركة.

حين أفكّر بها وبمَن يشبهنها، حين أتذكّر اليوم مراقبتها وأخواتها في غرفة الضيوف من خرم مفتاح الباب، أعرف أن الحركة تقوم على عاتقهنّ قبل الرجال، وحين أتذكّر توجيهاتها المستمرّة للصغار، لأبناء وبنات الأخوات، وسؤالها المستمرّ لهم كم صاروا يحفظون من القرآن، قبل السؤال عن أحوالهم، أستغرب كيف ينشغل الناس بالحديث عن "رجال الدِّين" دومًا، ويَغفلون عن "نساء الدِّين"!

كان أخي سعيدًا بها، ولطالما تخيّلتُ علاقتهما الخاصة، امرأة بهذه الحرارة والقوّة والاقتدار، وبنضج بالغ في ملامحها وجسدها المكرّس لأخي، وبالخبرة الطافرة من كل شيء فيها.

عائلتي سعيدة، بنسائها قبل أي شيء، بنسائها المكرّسات لخدمة الرجال وإسعادهم، هذا ما لا تخطئه عين في اجتماعهم صباح كل جمعة على مائدة أمّي وأبي. تلك الوجوه كانت قد شبعت من ملذّات ليالي الخميس، هذه الأفواه التي لا تتوقّف عن ذِكْر الله والصلاة على النبي في تلك الصباحات، كانت تنغمس ليلًا في كل سوائل الشهوة.

كان المخطّط أن أصبر قليلًا حتّى أنضج، أن أسير على خطى إخوتي، وأقلّدهم، أن تتدبّر لي زوجة أخي عروسًا، كما تدبّرتْ لكثير من العائلة، تقف أمام والدة الشابّ الموعود، وتحرص على أن يسمعها، تتحدّث عن التزامها الدِّيني وأخلاقها وحفظها للقرآن وأهلها الطّيّبين، ثمّ بحركة غير متوقّعة، وكأنها زلّة لسان، تقول: "بنت كاملة، كل شي فيها كامل، من شعرها لحتّى أصابع رجليها، يا ربّي سامحني، حورية ... أستغفر الله".

كانت "أستغفر الله" تلك شلال إيحاءات، تستحمّ في مسقطه حوريات عرايا.

هذا ما كان مفترضًا، ولكنه لم يكن.

في عزّ الانتفاضة، اخترتُ البيت، على عكس كل أقراني، لم أخرج في مظاهرة، ولم أُلق أي حجر، كنتُ في نظر نفسي أصغر من ذلك، كنتُ أخاف من الخارج، أحبّ البيت، أتذرّع بمساعدة أمّي بأعمال البيت للهرب من شؤون الفتية الآخرين. أساعدها في غسل الصحون، وفي شطف الأرض، وفي نشر الغسيل.

في جولات اللعب الطويل بنفسي، عرفتُ الصابون، لا أقصد أنني لم أكن أعرفه قبلًا، ولكنه بدأ يثير في إحساسًا مختلفًا، وصرتُ حسّاسًا له، لرغوته ورائحته ومَلمسه على عضوي وعلى بدني. صرتُ أفاضل بين الروائح والنوعيات. وإن كان من بين ما تطلبه أمّي من الدكّان صابون، فإنني أسارع بنشاط هائل؛ لأذهب أنا وأجلب الأغراض. وهناك في الدكّان الصغير القريب شعرتُ بضيق الخيارات، فقرّرتُ تحمّل المشي للسوبر ماركت البعيد عن بيتنا، فقط لأُحسن خياراتي في الصابون، أمشي في عزّ الظهيرة الرطبة، وبشبشبي ذي المقاس الأصغر من رجلي، ويهون التعب والعَرَق والغبار حين أقف أمام صفّ طويل من الصابون الذي تتسلّل رائحته لخارج غطائه الورقي الهشّ. بل إنني كنتُ أنزع بعض الأغلفة، إن لم يكن صاحب السوبر ماركت يراقبني، وأشمّ بملء حواسّي الروائح.

كانت الروائح الأزكى إسرائيلية الصنع، وأغلى من الصناعة المحلّيّة، أو تلك القادمة من تركيا. أشتري أكثر من اللازم، ولا تلاحظ أمّي، أخبّئ بعض ما أشتريه؛ ليكون لي وحدي. صرتُ حسّاسًا للروائح العطرية تلك، ويمكنني أن أتحدّث عنها طويلًا، مهارة قد لا يعبأ بها أحد، ولكنها كانت مهمّة جدًا في عينيّ، ككثير ممّا أتقنه، ولا يعرف عنه الناس شيئًا.

ولعلاقتي بالروائح كنتُ أحبّ نشر الغسيل، وأستمتع بترتيبه بهدوء؛ لتضربه الشمس. وكانت أمّي معجبة بقدراتي في النشر، ونقطتنا الخلافية التي كانت تؤنّبني مرارًا بسببها، هي أنني كنتُ أنشر الملابس الداخلية كغيرها من الملابس على الحبل، وهي كانت تعتبر ذلك قلّة أدب، أو فعلًا مخجّلا، وينبغي عليّ نشر الملابس الداخلية داخل سلّة الغسيل بطريقة غريبة هي ابتكرتْها. لم أناقشها بالأمر كأنني كنتُ أفهمه. بعد مدّة فهمتُ أن نساء الحارة "الوقحات" برأي أمّي، ينشرنَ ملابسهنّ الداخلية وملابس أزواجهنّ صباحًا؛ ليقلنَ للأخريات إن لياليهنّ حافلة، وإن أزواجهنّ ما يزالون فاعلين جيدين.

شيء من أشياء كثيرة يعرفها الجميع، ولكننا نكتشفها كسرّ خطير حين نكبر".

أغسل وجهي بصابون سائل في علبة، لم أعد أرى صابون الطفولة، كأنه اختفى! أحاول شمّ الرائحة، فلا أجد شيئًا.

"لماذا لم أكن أخرج؟ هل كنتُ خائفًا؟ لا أدري، ربّما، لم أجد شيئًا ممّا يفعله أقراني يستهويني أو يثير فيّ حرارة. في المدرسة كنتُ أشعر بالإثارة تفور من أبدانهم وأعينهم، وهم يتحدّثون عن المواجهات على مداخل المدينة مع الإسرائيليين، عن رائحة الغاز والإطارات المشتعلة، وعن الدم. يتباهون بشجاعة فلان وقوّة علان.

بعد أشهر صاروا يُلملمون الرصاص الفارغ من بين أرجل المتظاهرين، لم تعد المظاهرات تصل إلى الحواجز الإسرائيلية على مداخل المُدُن، صارت المظاهرات داخلية، وفيها الكثير من الأسلحة والتهديد والوعيد والانتظار.

تحوّلت الانتفاضة من الشارع إلى التلفاز. نظلّ كلنا نشاهد القنوات التلفزيونية، أبو ظبي والجزيرة، لمعرفة ما يجري، شهداء واعتقالات وقصف، ثمّ عمليات وإطلاق نار وقتلى، دوّامة، والكل أمام التلفاز يتفرّج، نضحك لساعة، ونبكي لساعات.

مع اغتيال كل قائد من حماس كانت العائلة تدخل حدادًا غير مُعلَن، يجعل ممارستنا لأي شيء عادي فعلًا يستجلب ندمًا. أذكر ماذا حلّ بأخي الكبير يومًا وهو جالس أمام التلفاز يتابع أخبارًا وردت في الصباح الباكر عن عملية اغتيال كبيرة، حين بدأت أسماء المستهدفين تظهر على الشاشة، بدا وكأن وجهه يتشقّق غيظًا وحنقًا وحزنًا، جلستْ زوجته قربه، وحاولت التخفيف عنه، ولكن انفعالها وبكاءها هي أيضًا كان يحيلهما إلى كتلة ستنفجر.

نهض أخي، ولبس ملابسه، وهَمّ بالخروج، سأله أبي إلى أين، فلم يجب. ظللتُ طوال ذلك اليوم أراقب التلفاز يبثّ الأغاني الوطنية المليئة بالأشلاء والرصاص، متوقّعًا أن أقرأ خبر انفجار أو عملية في إحدى المُدُن الإسرائيلية متأكدًا أن أخي سيفعلها، ولم أنم إلا حين عرفتُ أنه مع زوجته في بيتهما.

كرهتُ التلفاز، وكرهتُ الساعات الطوال التي يضطرّ الجميع لقضائها في البيت، هذا قبل أن تأتي أيّام منع التجوّل القاتلة. كنتُ أكره اجتماع الجميع في البيت، كانت مساحتي الخاصّة تتقلّص، وتكاد تختفي. كرهتُ كل شيء، وكرهتُ الانتفاضة.

في الليل حين ينام الجميع، أحاول التنقّل بين القنوات الفضائية بحثًا عن أي شيء آخر غير الأخبار والرصاص والقتلى. القوائم المفضّلة وأوائل القنوات كلها للقتل، وما يقع في آخر الأرقام أو في قوائم متوارية هي قنوات أفلام وأغان، استكشفتُها كلها دون صوت، حتّى لا يستيقظ أبي أو أمّي، ويكتشفا أنني أبحث في محظورات محرّمة، في حين يسيل دمنا في القنوات الإخبارية والشوارع. كنتُ عطشًا إلى أشياء كثيرة، ولا شيء يروي.

ظللتُ عطشًا، حتّى دخل بيتنا الإنترنت، حاسوب ضخم، وشاشة ثقيلة، واتّصال بشيء اسمه الإنترنت.

قبل الإنترنت، كانت الصور والمجلات هي أول خبراتنا بالعري، أراها بين أيدي زملاء المدرسة، منقوعة بالعَرَق، وممزّقة من فرط التخبئة والمداراة،

وكانت دومًا ممهورة بكلمات وأحرف عبرية، فعلى الأغلب كانت ترد مع العمّال في إسرائيل، وتصل لأيادي مراهقي المدرسة الأشدّاء، لم أر في تلك المرحلة أية صورة دون إشارات إلى إسرائيل واللغة العبرية، في تلك المرحلة كان العُري إسرائيليًّا.

حاول أبي أن يقول لنا ما أخبره إيّاه فني الإنترنت الذي شبك الجهاز، كيفية استخدامه وخطوات التشغيل وغيرها، ولكن ذاكرة أبي خانته، فلم يفلح في تكرار الخطوات، إلا أنه تذكّر جيدًا، تحذيرات الخبير من العوالم الخطيرة التي تفتحها هذه النافذة، وتأكيده لأبي أنه قادر على كشف سلوك أي مستخدم للجهاز.

لم يخطر ببالي شيء حينها، لم يكن الإنترنت شيئًا عرفتُه من قبل. كان أبي يجلب كل حديث للبيت منصاعًا لإلحاح أمّي التي تشعر أنها في سباق عنيف مع الجارات والقريبات على كل جديد مكلف يصلح للتباهي، كان الفضل بمعرفتنا المبكّرة بكل منجزات التكنولوجيا عائدًا لمنافسات أمّي المحتدمة مع الأخريات.

بدأتُ ألتقط المعلومات عن هذا الإنترنت من المدرسة، من أقراني الذين يوفّرون مصروفهم اليومي؛ ليتمكّنوا من الذهاب لـ"مقهى الإنترنت"، وهو محلّ فيه صفّ طويل من الحواسيب المشبوكة بالإنترنت. وحين تجرّأتُ، ورافقتُهم، فهمتُ كل شيء. بدءًا من القواطع الخشبية التي تحيل كل شاشة وكرسي إلى كبينة، يشاهد فيها أحدنا ما يريد دون أن يراه أحد، مقابل أن يدفع شيقلاً واحدًا لكل نصف ساعة، وصولًا إلى تحذيرات أبي من السلوك على الإنترنت.

أبحث عن ترجمة المفردات العربية الجنسية إلى الإنجليزية من قاموس ضخم في مكتبة البيت، أحفظ الكلمة، وكيف تُكتَب، ثمّ أضعها في خانة البحث على محرّك البحث، كان ياهو أيّامها أو msn، ثمّ أنتظر ظهور الصور.

صور فقط، لم أكن أعرف كيف أصل إلى فيديوهات وغيرها. ثمّ والأهم أحذف كل شيء يشير إلى "سلوكي" على الإنترنت، كما يسمّيه أبي.

احتاج الأمر لأشهر، وخوف كبير من الانكشاف، حتّى اكتشفتُ مساحات أوسع من الصور. ولكنني وفي الوقت الذي انفتح فيه أمامي عالم هائل من المتواريات، شعرتُ بتقزّز متصاعد، يضاف إلى الشعور بالذنب والقلق من انكشاف جولاتي.

الصور والفيديوهات العشوائية تلك كانت توجعني في كثير من الأحيان، يصدمني قُبح كثير منها، أو ما كنتُ أراه قبحًا، لم أكن أعرف شيئًا عن تحسين خياراتي في البحث والاستكشاف، وخفتُ أن يتشوّه هذا العالم في ذهني. كنتُ صغيرًا.

أشعر بالأسى على ذاك الصغير الذي فُوجئ بكل شيء...

تركتُ الهَوَس بالاستكشاف ومتع تفريغ عضوي بعد المشاهدة أو بتأثير منها في فترات لاحقة في المكان الآمن، "الحمّام".

وتنبّهتُ إلى تلك القصص الطويلة التي يكتبها كثيرون عن مغامراتهم الجنسية، في المنتديات وصفحات مليئة بالكلام الذي أعرفه ولا أعرفه.

قصص مثيرة حقًا، مصرية وخليجية، ومليئة بمفردات محلّيّة، صارت قراءة تلك القصص متعتي القصوى. حتّى إنني أحفظ عبارات من أفضلها حتّى أبحث عنها مرّة أخرى ولا أفقدها. بدأتُ أكتشف أن ما يشغل كل لحظة من حياتي هو ما يشغل كثيرين كثيرين. شعرتُ بالمشاركة، وبأنني لستُ وحدي.

فتنتْني فكرة المشاركة تلك، معرفة بماذا أختلف عنهم، وبماذا أُشبههم، كان ممتعًا بشكل خاص تعرّفي على التسميات المختلفة للأعضاء الجنسية، أستمتع بتكرارها بصوت خفيض لأقرّر أيها أفضل وأنسب، إلا أنني لم أستخدم مع عضوي إلا ضمير الغائب، لم يكن يحمل اسمًا أو وصفًا، كانت الأسماء

والأوصاف هي لأعضاء الآخرين، هو موجود، ولكنْ؛ دون صفة أو اسم أو لفظ يدل عليه وحده.

كانت القصص أرحب بكثير من الصور والفيديوهات، وأخذتني إلى متع أقل كلفة. إلى أحلام طويلة وساعات لا تنتهي من التمدّد في سريري. كأنني ارتحلتُ إلى عالم مليء بكل متعة ونشوة ورغبة، أشكّل الرغبات والأجسام والمتع كما يحلو لي، أبتكر أوضاعًا ومداعبات ومشاهد، بنيتُ عالمًا متخيّلًا، ولكنه حقيقي، والأهمّ قليل المخاطر، ولا يمكن أن يفتح أبي فيه الباب، ولا تسمع أمّي فيه همهماتي وأنفاسي المنتشية، ولا يمكن تعقّبه من إخوتي وأخواتي.

كان فضاء واسعًا حرًا.

وكان جميلًا لدرجة أنني علقتُ فيه، بدأت المسافة بيني وكل شيء حولي تزداد، عائلتي وهمومهم، أقراني في المدرسة، مَن كان يمكن أن يكونوا أصدقائي.

انسحبتُ للعيش في داخلي دون تخطيط. كأنني صبية يخفيها أهلها عن الناس لعلّة ما، هكذا وصفتْ أمّي مرّة سلوكي.

كنتُ منفصلًا عن كل شيء إلا الحاسوب والمكتبة التي أزورها بحثًا عن إجابات على ما واجهني من خواطر، موضوعها الوحيد جسدي وحاجاته.

ومع الوقت صارت نوبات الشعور بالذنب والخوف من عقاب الله أقل حدّة، بعد أن كنتُ أبكي لساعات بعد متعي البسيطة خوفًا من عذاب وعقاب، صرتُ لا أكترث، ربّما لأن العقاب لم يأت، وتوعّدات الشيوخ الذين يملؤون شاشات الفضائيات وتملأ أمّي بأصواتهم البيت، لم يحدث منها شيء. صارت أفعالي عادية بالنسبة لي. ما كنتُ سأصدّق أنني الصبي نفسه الذي كان موقنًا بالجنّة والنار كأنهما خلف الباب مباشرة!

مضت الأشهر، وانحبستُ في البيت تحضيرًا لامتحانات الثانوية العامّة، انشغل أهلي عني بالتغيّرات التي كانت تعصف بما حولنا، الانقسام السياسي الذي خلّف أوضاعًا اقتصادية صعبة، عانى منها أبي وتجارته، وعانينا معه، ولكن التاجر فيه أفلح في إنقاذ تجارته وإنقاذنا.

كنتُ أفكّر بالجامعة والهرب إلى عالم أوسع.

علاقتي الملتبسة والخفية ملابساتها مع عائلتي تغيّرت بعد رؤوف، وتحديدًا بعد أشهر قليلة من توطُّد علاقتنا، وبالضبط حين اقترح عليّ رؤوف العمل في بار يعمل فيه.

كانت الفكرة غريبة عليّ تمامًا، فوجئتُ حين طرح الأمر، كنتُ أعرف أنه يعمل، ولكنْ؛ لم أكن أعرف ماذا يفعل بالتحديد. نعم، كنتُ من النوع الذي قد يصارح أحدًا بحبّه قبل أن يعرف ماذا يعمل وأين، أو ربّما هو رؤوف الذي علّقني به حتّى غدا موضوعًا غير قابل لا للنقاش ولا للبحث ولا المعرفة، معطى ثابتًا متنزّهًا عن الأسئلة.

احتاج الموضوع أكثر من زيارة لرؤوف في عمله قبل أن أقرّر بدء العمل هناك، وأكوام تطمينات من رؤوف بأنه سيرعاني، وسيعلّمني كل شيء حتّى يغدو العمل ممتعًا بالإضافة إلى كونه مفيدًا.

الحقيقة رغم كل الرعاية والحبّ الذي أشاعه رؤوف في المكان في زياراتي الأولى للبار إلا أن الدافع الرئيس لموافقتي على العمل واقتناعي بحديث رؤوف هو أن أتوقّف نهائيًا عن أخذ المال من والدي، ذاك المال الذي يبدو في ظاهره عربون محبّة وامتداد عائلة وصلة منزوعة الشروط، إلا أنه حبل وثيق، يجعلني مضطرًا على تقديم الأثمان في كل زيارة، والخوف من دفع أثمان باهظة حال انقطاعه إن عرفتْ عائلتي شيئًا عن حياتي هنا. اقتنعتُ سريعًا أن رباط العائلة الذي يدّعي الجميع قداسته يُشترى بالمال، ويُعمّد به.

لم أكن مَعنيًّا بنزاعات بسيطة وغمز ولمز يدور في العائلة عند أي مساهمة مالية لوالدي لصالح أحد إخوتي أو أخواتي، كنتُ أرى وأسمع الكثير من الكره والتوتّر حيال أي مال يتحرّك في العائلة، وأرى أيضًا كيف يبالغ أخي الثاني في برّ والديه طلبًا لرضى الله، وما يجودان به عليه، أو تغليفًا لما يجودان به عليه برضى الله. على الأغلب كنتُ حسّاسًا لكل هذه الإشارات، وأمنحها من الأهمّيّة الكثير، وأفكّر فيها طويلًا، ولذلك كله كانت فرصة الانفصال ماليًا عن العائلة لا تُضيّع، بل أصبحت سريعًا غاية وأسلوب حياة وخيارًا لا تراجع عنه.

"لا يمكنكَ أن تكون حُرًا بمال الآخرين"، عبارة رؤوف التي صارت يقيني.

بدأت حياتي الجديدة في "لوتس"، وهذا اسم البار الواقع في عليّة بناية من أربعة طوابق على الجهة المقابلة لكنيسة الأقباط في حي الماسيون. الاسم الساذج كان يختزن أسطورة يونانية ذُكرت في الأوديسة، يحكيها صاحب البار لكل الزبائن الجدد، ولعب عليها كثيرًا في تصميم الديكور الداخلي، وفي تصميم قوائم الطعام والشراب. ففي الأوديسة وبعد عودة أوديسيوس من نصره في طروادة، يصبّ عليه إله البحر اللعنات، فتستمرّ الرحلة لعشر سنوات، خلال رحلة العودة يُرسل الإله رياحًا تحمل سفن أوديسيوس إلى جزيرة، يأكل أهلها اللوتس، فيقدّمون له ولجنوده الزهرة، فيأكلونها، فتُنسيهم ما مضى، وتُنسيهم مرور الزمن، وينسون أنهم فعلوا ما فعلوا، فيكرّرون فعله كأنها أول مرّة، ولا ينجو من هذه الدوّامة إلا أوديسيوس ومجموعة من رجاله، ولولا عزيمته وإصراره على النجاة للوصول إلى زوجته التي تنتظره، لظلّ عالقًا هناك إلى الأبد.

السؤال الذي طرحتُه على أبي وليم صاحب البار حين أخبرني القصّة في زيارتي الأولى بعد أن عرّفه رؤوف عليّ، كان حول تأكده من الأثر النفسي الذي يقع على الزبائن حين يحكي لهم القصّة، فكأنه يقول لهم هنا ستثملون حتّى تفقدوا الشعور بالوقت، وبما حولكم، وستدخلون دوّامة من الدفع والشرب المتواصل!

ضحك بشكل جنوني، ما أقنعني أن هذه الفكرة لم تخطر له على بال.

حين أخبرني أبو وليم القصّة وراء تسمية البار في لقائنا الأول ذاك، شيء ما ذكرني بالجنّة، وبالحور العين اللواتي يفضّهنّ المؤمنون، وما إن يُخرجوا أعضاءهم من فروجهنّ حتّى تعود لهن بكارتهنّ، فيكرّرون الفضّ إلى ما لا نهاية. لعب خياليّ على شهوة المرّة الأولى التي يسهل بناء الأساطير عليها، هكذا يمكنكَ أن تأسر عقل الإنسان وذهنه حين تعده بإمكانية تكرار فعل شيء تقول قوانين الفيزياء والطبيعة والخبرة البشرية إنه بات ماضيًا، لا تمكن استعادته، فلا يمكن لمرّة أن تكون الأولى مرّتين.

ما أعرفه اليوم ومن كل صديقاتي أن فضّ البكارة لا يحمل أي متعة للذُّكُور سوى تلك المتعة الذهنية، متعة استعمال شيء للمرّة الأولى، لم يمسسه قبلًا أي بشر. مازحتُ الصديقات في جلسة ضحك، باستنتاج يقول إن الحور العين ربّما يكتسبنَ خبرة من كثرة الفضّ والرتق، فيحقّقنَ التوليفة الآسرة لشهوات الذُّكُور وخيالهم، البكارة مع الاحتراف، هذا شيء لا توفّره إلا الجنّة أو آلهة اليونان، ومؤخّرًا عيادات بدأت تتكاثر بالسّرّ في رام الله".

٢ نيسان ٢٠١٢

جنـــود إسرائيليـــون جائعـــون يحتجـــزون شـــاحنة أغذيـــة جنـــوب الضفّـــة احتجاجًـــا على نقـــص الطعام في قاعدتهـــم العســـكرية

وكالة معًا

(٦)

دفعتُ أجار الشقّة لشهرين وحدي، هكذا صرتُ أحصي غياب رؤوف، بالأشياء التي لم نعد نتقاسمها. أفكّر قطعًا للطريق على الهواجس والأمنيات بالإعلان عن بحثي عن شريك للسَّكَن، أو أكثر ربمّا، سأضعه في لوتس، وأفكّر أن يكون بالإنجليزية فقط، أرغب بمستأجرين أجانب، أوضح في الدفع، ومدد بقائهم أقصر.

أكثر من شهرين، مليئة بالتفاصيل التي كانت لتكون مختلفة مع رؤوف، مناقشات التخرّج التي لا أدري كيف اجترتُها، والأشياء التي صرتُ أتشاغل بها عنه، متابعة الأخبار ومشاهدة المباريات، والسؤال اليومي عن الصدف أو الأقدار التي جعلتنا نلتقي، رؤوف الذي ترك الجامعة، وعاد إليها، وبدّل تخصّصه، ثمّ عاد إليه، وفي فصله الأخير أدرك أن لديه متطلّبًا جامعيًّا لم يُنجزه، فسجّل فيه، فدخل محاضرة ليعثر عليّ. أحارب الصدف والأقدار منذ شهرين بالاعتياد على حياة بسيطة محدّدة، العمل والسَّكَن فقط، ولقاءات عابرة مع آرنو وأصدقائه.

"قلتُ لأهلي سأظلّ في رام الله أبحث عن عمل. أوهمتُهم بحصولي على عمل من المنزل، شيء عبر الإنترنت له صلة بتخصّصي، وأنني بدأتُ أحبّ تخصّصي، وأحضّر للدراسة في الخارج. حين تكذب على أهلك مرّة، فلن يتوقّف الأمر، هم أكثر مَن يسهّل عليك تبرير الكذب عليهم، كل شيء مباح في سبيل إبقائهم بعيدين عني، وبتوقّعات شبه معدومة تجاهي.

أمشي إلى العمل. الشمس حادّة، والصيف يرسل إشارات سطوته، كأنني

أكثر من يمشي في هذه المدينة، السيارات تخنق الشوارع، والغبار بدأ يملأ الأنحاء.

لو أن هذه الطرقات تتبدّل، وأصير خفيًّا، لا يراني أحد، أمشي وأضحك وآكل وأبكي دون أن يراني أحد، أسير فلا تتعرف إليّ الأعين، ولا تتوجّه صوبي الإشارات والكلمات.

في أيامي الأولى في رام الله شعرتُ أنني خَفيّ، ولا يراني أحد، لا أعرف الناس ولا يعرفونني، بعد حين تبدّدت تلك الحال المرحة، وبدأت العيون والوجوه تتكرّر، وصارت الدنيا التي بدت رحبة، تضيق وتضيق.

تعوّدتُ على قسوة الطرقات ومَن فيها، بل إنني أعبر الطرقات بكثير من الإنكار، إنكار أن كل ما يجري حولي قد يزعجني، أو يجرح فيّ شيئًا. تجاوزتُ الكثير إلا رؤية الوجوه القادمة من أيّام ماضية، زملاء المدرسة وأصدقاء الطفولة وكل مَن يعرف عائلتي.

لا يمكنني تفسير تلك الطريقة التي ينظرون بها إليّ، أحدهم، كان طالبًا في المدرسة الثانوية، أكبر مني بعدّة سنوات، سقوط متكرّر في المدرسة، وإصرار على نيل شهادة الثانوية العامة وحسب، وبأيّ طريقة، لماذا؟ للعمل في الأجهزة الأمنية.

كنتُ أمشي مع صديقة، عرفتُه حين رأيتُه عن بعد، يقف حاملًا حقيبة رياضية مع مجموعة من زملائه، تدلقهم مقرّات الأجهزة الأمنية كل خميس؛ ليعودوا إلى قراهم ومُدُنهم لقضاء نهاية الأسبوع مع عوائلهم، يتسكّعون في طرقات رام الله حتّى يؤمّنوا المواصلات.

ملامحهم واضحة، ولا يخطئها أحد، أجساد متضخّمة، وعضلات بارزة، وملابس كالحة، ونظرات جشعة، كأنهم على وشك الانقضاض على كل شيء.

حين رآني، تخيّلتُ أنه عرفني. ضحك.

كنتُ والفتاة على الجهة الأخرى من الشارع، ترك حقيبته مع أصدقائه، وانطلق صوبنا. حاولتُ الإسراع في المشي، فحثّ خطاه حتّى صار خلفنا تمامًا، تخيّلتُه يريد الحديث معي، مواجهتي أو أي شيء متعلّق بي، إلا أنه سار خلفنا، ينظر إلى ظهر الفتاة، يُلقي عبارات وأصوات، كنتُ متأكدًا أنه عرفني، ولكنه لم يوجّه لي أي كلمة. استدارت الفتاة، وحاولت إنهاء المطاردة، وقفتُ أنظر إليهما، هي تصيح وهو يواصل عبارات التحرّش الرخيصة المبتذلة التي سمعها من أقرانه، أو شاهدها في فيلم مصري. حاولتُ الحديث معه، رفعتُ صوتي، لم يكن ينظر إليّ أبدًا كأنني غير موجود، مددتُ يدي لأدفعه قليلًا، خفتُ من صورة الذليل الضعيف أمام فتاة تتعرّض لتهديد من ثور هائج. لكزتُه مرّتين، ولم ينظر إليّ، ولم يوجّه أي حركة صوبي. كنتُ خائفًا، وأحاول مداراة خوفي، فيظهر أكثر في رعشات أصابعي وصوتي.

أمسكتُ يد الفتاة، وجذبتُها نحوي؛ لنتابع سيرنا، ظلّ خلفنا بنفس الوتيرة والإصرار، ولم ينته الأمر إلا حين دخلتُ محلًا ممسكًا يد الفتاة، وفي الداخل تظاهرتُ بنيّتي شراء شيء ما، علّه يمضي، ويتركنا بحالنا. من خلف الزجاج، نظر إليّ، ضحك وذهب.

مشيتُ مع الفتاة إلى غايتها، وأنا ساهم تمامًا، سيطرت عليّ فكرة واحدة، أن كل ما فعله، متعمّد ومقصود. كأنه كان يقول لي إنه لا يراني، وإنني غير موجود.

اليوم أدرك كم علّمتني هذه الشوارع! وكم حفرتْ في نفسي وخوفي وحاجاتي! وكم جعلتني أفهم أكثر! حين كان رؤوف يحمل كتابًا ليقرأ، ويعرض عليّ في بعض الأحيان القراءة، كنتُ أجامله وأقرأ، ولكنْ؛ دون أن أشعر أنني تعلّمتُ شيئًا، كنتُ أتعلّم في الشارع ومن الناس ووجوههم.

وتعلّمتُ من رؤوف في هذه الشوارع، رؤوف موهوب في الطرق المختصرة، كنتُ وأنا أمشي إلى جانبه، وأختلس النظر إلى جانب وجهه بحبور، أتخيّله في مدينة كبيرة جدًا، يحفظها كباطن يده، ويسبق الجميع إلى غاياته.

حين نسير معًا أشعر وكأن العالم اختفى، لا أفكّر في شيء، يخترق أي حي أو شارع، مهما ملأه الزحام بثقة قائد عسكري، لا يخاف شيئًا، حين أسير معه أعرف أن أحدًا لن يضايقني.

شكل رؤوف وحركته كانا يبعثان على ثقة، لا يتجرّأ أحد على العبث معها.

رؤوف عرف الطريق المختصر إلى قلبي، واستخدمه، وهو يرحل.

لا يُخرجني من دروب التفكير والأسئلة إلا نهاية الطريق على باب لوتس. أدخل وأجلس إلى المشرب قليلاً قبل بدء العمل، ليلتنا حافلة، والناس تنفض عن أجسامها الليل البارد، وتستقبل الليالي الدافئة.

منذ أمد أفلحتُ في عزل البار عن رؤوف، وبات مكانًا ليس ككل الأمكنة التي تذكّرني به.

أدرك الآن كم كان اقتراحي أن يعمل في مكان آخر صائبًا، بعد أن خشيتُ علينا من المَلَل، معًا في الجامعة والبيت والعمل، هذا كثير على رؤوف وعلينا، لم أكن أراه كثيرًا عليّ، كان يمكنني أن أظلّ إلى جانب رؤوف سنين نقضيها لحظة بلحظة، ولكنني استشعرتُ خطرًا قادمًا حين بدأ الصمت يأكل أوقاتنا، ذهب للعمل في مكان آخر، أتنبّه إلى أنني لم أزره فيه يومًا، ولا أعرف عنه شيئًا، كنتُ مشغولاً بحالتنا المتدهورة. اليوم أشعر بقيمة تركه العمل في لوتس مبكّرًا، لو ظلّ هنا؛ لما تحمّلتُ البقاء بعد رحيله.

عامل الألمنيوم يحاول تصليح النافذة، ستشرع النوافذ جميعها من الآن فصاعدًا، أضواء المساء جميلة، يمكنكَ أن تجلس في شرفة لوتس أو أمام نوافذه لأيّام دون مَلَل.

وجه العامل يزدحم بالتشنّجات، وهو يحمل واجهة الزجاج، ويحاول تركيبها، أسمع صوت لهاثه وتنفّسه عن بُعد، وعُرُوق وجهه ترسم خرائط تتبدّل بسرعة.

أحبّ التمعّن في وجوه الناس، خاصّة إن كانوا في حال غير مألوفة.

أراقب الوجوه كلها. لم أتخلّص من عادتي القديمة في تخيّل كيف تكون وجوههم في لحظات نشوتهم. أظلّ أحدّق في الوجوه، وأتخيّل صورًا لها في لحظات النشوة، وأفكّر بأصوات أجسادهم وأنفاسهم.

هنالك وجوه تحمل في ضحكاتها وحركتها وانفعالاتها الكثير من الرغبة، وفي أحيان كثيرة يقشّر المشروب أغلفة وجوههم، فتظهر الرغبات تحتها.

أحيانًا أظنّ أن كثيرين وكثيرات يوقعون الآخرين بالرغبة بهم من خلال اللعب على هذه التخيّلات، يظلّون يرسلون تعابير وجوههم وأصواتهم بوتيرة هادئة ومستمرّة طوال السهرات، حتّى تكتمل صورة وجوههم في لحظات المتعة والانتشاء، فيرغب بهم الآخرون، يرغبون برؤية المشهد واضحًا تمامًا. وهنالك المتسرّعون والمتسرّعات، مَن يبدؤون مبكّرًا في فضح رغباتهم بانفعالات زائفة ومتسرّعة، هؤلاء يريقون ثمينهم بالمجان، فلا يفكّر الجالسون أمامهم في طلبه مرّة أخرى، أو السعي لنيله.

"أنت تفكّر بالوجه كعضو جنسي"، قال لي رؤوف مرّة. لا بأس، فليكن كذلك. مرّتْ عليّ وجوه لا يمكن إلا أن يحكم السِّحر خيالك حين تفكّر بانفعالاتها حين تضطرب بالرغبة.

كلّما أطلتُ النظر في وجه زبونة أو زبون جديد، فهو منهم.

أحاول جمع نَفس طويل، لكنه يتقطّع.

كيف أهرب من رؤوف وأحاديثه وكل ما فعل بي؟! كيف أتخلّص من كل ما قال لي؟! كيف أتعامل مع أكوام الافتتان التي ملأت عقلي وقلبي منذ عرفتُه؟

كنتُ قبل رؤوف شيئًا، وصرتُ بعده شيئًا آخر تمامًا. أغلب ما أعرفه عرفتُه من رؤوف. رؤوف غيّرني، غير أكثر الأشياء أهمّيّة في كياني، غيّر نظرتي إلى العالم والناس والحياة.

أزجي الوقت بتذكّر الأيّام الأولى التي علّمني فيها كل شيء عن عمل المطعم. أسبوعان من مراقبته وهو يعمل، قال لي: "اجلس، وراقبني". بكل بساطة جلستُ وراقبتُ، ثمّ أسبوعان صارمان من العمل والملاحظات. ثمّ صرتُ كما قال مازحًا: "مثل أي دارس للفندقة في المعاهد والكُلّيّات".

هو علّمني مراقبة الناس هنا، الوجوه الجديدة خاصة، يتأفّف بقية العاملين عند قدوم ضيوف جدد، لا نعرف عنهم شيئًا، ونحتاج لطاقة أكبر في التعامل معهم والحذر منهم ومحاولة كسبهم كزبائن دائمين. هذا كله يمكن أن تلحظه في جزء من الثانية من الامتعاض على وجه النادل حين يشاهد زبونًا جديدًا يدخل المطعم. تنطلق أجهزة إنذار صغيرة في رؤوسنا تدعونا للانتباه.

"عملنا ليس سهلًا، يجب أن تعرف كل شيء عن الزبائن دون أن يبدو ولو للحظة أنكَ تريد أن تعرف شيئًا"، وحين صفنتُ برؤوف كأنني أسأله: "طيّب، لماذا هذا كله؟!"، تابع يوضح: "الأوضاع ليست طبيعية، هذا متنفّس وملجأ ومهرب ومكان سرّيّ لكثيرين، الناس هنا ليسوا هم أنفسهم في الخارج، ونحن مُلزَمون بتوفير هذه المساحة لهم، وإعطائهم الشعور بأنهم حين يكونون هنا غيرهم، فهم في أمان، وهذا ممكن. هذا ضروري جدًا، وستُدركه سريعًا. والأهمّ أن كثيرين يأتون لتعكير الأجواء، لاستغلال الحالة أكثر من اللازم، لافتعال المشاكل، ولارتكاب المخالفات، أو ببساطة يأتي وهو يتوقّع أن يجد شيئًا في باله، ويتصرّف بناء عليها. عليكَ أن تكون حذرًا جدًا.

يأتي رجال الشرطة بلباس متخفّ، وكذلك الأمن والمخابرات وغيرهم. الأمر ليس معقّدًا بقدر ما يحتاج لحذر وانتباه مستمرّين".

هززتُ رأسي حينها كأنني فهمتُ كل شيء.

ظلّتْ عادتي في مراقبته حتّى بعد أن صرتُ متمرّسًا. كنتُ أشعر أنه يخاطبني في كل ما يقول أو يتعمّد أن يسمعني كلامه.

من مكانه خلف البار يتبادل أحاديث قصيرة مع الروّاد المحتاجين لمَن يحادثهم.

حاول أن يشرح لي طويلًا أي كلام مسموح، وما هي حدوده، ولأي مدى هو مهمّ في تميّزي عمّن يعملون مثل عملي. إلا أن أفضل طريقة للفَهْم كانت مراقبته.

سكارى حزانى خائفون محطّمون راغبون بالثرثرة مهمّشون يتسوّلون أي اهتمام، طالبو متعة يريدون خدمة، رَقْم هاتف لفتاة، منشطًا جنسيًّا، ومخدّرات، ومثقّفون يريدون تبادل حوار جدّيّ، وجديدو عهد بالشرب، يريدون اكتشاف أسرار هذه السوائل، وفتيات يحاولنَ النسيان، ولو لمساء واحد، وباحثون عن عمل، ومتباهون يعرضون قصصهم التي يظنّونها مثيرة.

هؤلاء كلهم يسمع منهم، ويجيبهم، ويتبادل معهم الأحاديث، والنتيجة أنهم يعودون إليه. هذه كانت ميزته الأهمّ، يعرف ما يقول لهم، وبأي لغة يحدّثهم، ومتى يستجيب لطلباتهم، ومتى يضع حدًّا. هذا كله في إطار لائق محترم، يليق بلوتس. لهذا كان أبو وليم يكاد يعبد رؤوف.

أذكر أحد الرجال، ظلّ يتردّد على رؤوف لأسابيع، ويتبادل معه الحديث، يعرض تجاربه بالحبّ، ويريد أن يسمع رأي رؤوف، ورؤوف يدير الحوار مع هذا الذي لا يعرفه. أذكر كيف أنهى رؤوف هذه الحالة، حين حدّثه الرجل منكسرًا عن أن حبّه الحقيقي كان لامرأة التقاها في رحلة، وعاشرها لساعات، ولم يعرف عنها شيئًا بعد ذلك. لم يعلّق رؤوف على القصّة، وهذا ما استفزّ صاحبها الذي اعتقد أنها قصّة نادرة مذهلة، وقال لرؤوف: "شو رأيك؟ ما حكيتْ شي؟". ابتسم رؤوف، وقال: "في ليلة واحدة يمكنك تبادل السوائل، لا الحبّ".

شعرتُ أنه نظر نحوي عندها.

المرّة الوحيدة التي كرهتُ فيها سلوكًا لرؤوف، كان حين بدأت فتاة

جلستْ قبالته على البار لساعات، بالبكاء. كانت تتحدّث إليه بمشاعر فائضة، ثمّ غرقتْ في بكائها. كان المطعم فارغًا تقريبًا. حينها خرج رؤوف من خلف البار، واقترب منها، واحتضنها طويلًا مع تمتمات وطبطبة على ظهرها.

شعرتُ بانقباض كبير، وكُره لتلك الملتصقة ببدنه. وأنهيتُ ما بين يديّ، وعدتُ إلى السَّكَن وحدي.

بعدها، حين تأكد من حنقي على فعلتُه ورفضي محادثته في اليوم اللاحق، قال لي: "يحبّ الناس الأشياء المجانية، وتلك الأحضان مجانية".

أول معرفتي برؤوف، كانت حياته صاخبة، يُقبل على الأشياء باندفاع غريب، كان هاتفه لا يهدأ، أسمع أصواتهنّ، صديقات عديدات، يغلق الهاتف على موعد مع إحداهنّ، ويستقبل موعد الأخرى. لهو مثير. لم يكن فضولي يغلب حذري، ولذلك لم أكن أساله عن شيء يتعلّق بعالمه الخاص ذاك. نقضي الوقت في الجامعة، ثمّ إلى رام الله نأكل أو نفعل أي شيء، يذهب إلى عمله، وأعود إلى بيرزيت.

حين اقترح عليّ أن أسكن معه، بدا وكأنه يدخل مرحلة جديدة، صارت الاتّصالات تتناقص، وسمعتُه محتدًا، وهو يتحدّث أكثر من مرّة. في أيّامي الأولى في السَّكَن معه فوجئتُ بصبية تطرق باب الشقّة، ارتبكتْ حين فتحتُ أنا الباب، بدت مشوّشة، وكأنها تريد الاعتذار أو القول إنها أخطأت بالعنوان، لكنها سألتْني عن رؤوف، وأخبرتُها أنه في العمل، رحلتْ، وكنتُ أسمع صوت بكائها، وهي تنزل درج البناية. صخب كل تلك النساء والفتيات حوله كان واضحًا، وكان يعطيني صورة عن شكل الحياة التي عاشها رؤوف قبل دخولي حياته، بدت الأمور واضحة أمامي، ما جعلني غير مضطر لسؤاله.

هل انتهى كل شيء بينه وبينهن بمجرّد سَكَني معه؟ لا أدري. كنا طوال الوقت معًا، ولكنْ: لا يخلو الأمر من أيّام لا أذهب فيها إلى العمل، وهو يخرج ولا يعود إلا فجرًا، أو تلك الزيارات المتقطّعة لأمّه وأخواته التي قد تطول كثيرًا.

لم أكن أسأله أين كان وماذا فعل، رغم أن تلك الأسئلة كانت تسمّم فمي الذي لا يقوى على لفظها، كانت علاقتنا من نوع لا يحتمل أسئلة عادية. لم تكن هنالك طريقة واضحة أو محدّدة لفعل الذي بيننا".

تهبط يد على رأسي، فأستيقظ من سرحاتي الطويلة، أبو وليم يمزح معي، لا أدرك ما يقول، فأبتسم. يلفّ ذراعه حول عنقي كأنه يخنقني مازحًا، يبدو أنه بدأ شربه مبكّرًا اليوم، أو أنه نجح في صفقة ما، شراء عقار أو بيعه. يتركني ويمضي.

يعاملني أبو وليم معاملة خاصة، ويبرّرها دومًا بأنني مختلف، يظلّ يقول أمام الجميع إنني الوحيد من بين العاملين في باره الذي يمكنني أن أبتسم للزبائن ابتسامة صادقة، لا تحمل في جنباتها أي دعوة لدفع إكرامية.

حين يكون في المطعم عند قدومي، يسارع مازحًا لإخراج الصندوق الخشبي الذي صمّمه لي خصيصًا حتّى أقف عليها حين أكون خلف البار، فلا أرهق ذراعي خلال العمل على حافة البار المرتفعة.

أنظر للشمس تغيب، يحلّ الأحمر القاسي الذي أفلحتُ طويلاً في الهروب من مراره بالعمل، وها هو اليوم يصطادني، فيجفّ صدري، وأخاف.

أفكّر بالاتّصال برؤوف، أتذكّر كل لحظات الضعف منذ رحيله، وكل مرّة اتّصلتُ به وسمعتُ رنينًا طويلاً خانقًا. لم يكن يقفل الخط بوجهي، حتّى لا يمنحني حتّى فرصة الاطمئنان على وجوده أو احتفاظه بهذا الرَّقْم، أسمع رنينًا طويلاً لا يقول شيئًا إلا أن رؤوف غير عابئ بي.

أقرّر ألا أتّصل به نهائيًّا، مهما بلغ بي الضعف.

٣٠ حزيران ٢٠١٢

إرجاء زيارة نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي شاؤول موفاز لرام الله ولقائه مع الرئيس عبّاس. وأمن السلطة يقمع مظاهرات شبابية مناهضة للزيارة

الوكالة الفرنسية

(٧)

لا أدري كيف سأتذكّر هذه الأيّام في المستقبل! هل سأندم عليها؟ هل سأحاول نسيانها بأي طريقة، ولكنْ؛ دون جدوى؟ هل سأعتبرها عمرًا ناقصًا ضائعًا مفقودًا لم يكن؟! أم أنني لن أعبأ بأي شيء؟! تمامًا كما أنا الآن.

هذا الصيف الذي يبدو مناسبًا للنزوات والنسيان، يلقي بي للنزوات، ويعذّبني بالتذكّر.

في الأيّام الماضية كدتُ أفقد عملي، وربّما أشياء أهمّ. لولا رفاق المطعم؛ لكنتُ تردّيتُ تمامًا، آه.. نعم، آرنو، لولا آرنو؛ لكنتُ في أسوأ حال!

لا أشعر أنني بكامل وعيي وقدرتي..

في البيت منذ يومين بعد ساعات بالمشفى رفقة آرنو. تسمُّم غذائي أو كحولي أو ماذا لا أعرف..

وضعوا لي عدّة أكياس معلّقة بيدي، وقالوا حين تنتهي داخل جسدي يمكنني المغادرة مع كيس أدوية أراها لأول مرّة. كل ما كنتُ أفكّر فيه ألا يتّصل أحد بعائلتي. آرنو طمأنني وأنّبني، قال إنني بتهوّري أدمّر كل شيء.

لم أعرف ما هو هذا "الكل شيء" الذي أدمّره.

أحاول الهرب... ولكنني كمَن يهرب من سجن في وضح النهار وأمام كاميرات المراقبة وأعين الحرّاس، ويصرخ بأعلى صوته منبّهًا الجميع إلى هربه.

حملني آرنو إلى الشقّة، اشترى بعض الطعام والسوائل اللازمة، ووضع الهاتف إلى جانبي لأتّصل به إن احتجتُ شيئًا.

أنا على هذه الحال من التشوّش منذ أيّام.

سأتّصل به، وأخبره برغبتي العودة إلى العمل. تعبتُ من التمدّد والأدوية المدوّخة.

أحاول تذكّر ما جرى لي. أضحك على نفسي. أتذكّر كيف كنتُ في أيّامي الأولى في لوتس. كم حاولتُ تنزيه نفسي عن كل شيء أراه ناقصًا دنيئًا.

"علقتْ بذهني لعبة كان يلعبها بعض الشبّان.

يجلسون في زاوية، ويبدؤون في النظر إلى الإناث الموجودات في البار، يشير أحدهم بطرف عينه لإحداهنّ، ويبدؤون بتخيّل كم كأسًا يلزمهم حتّى يقبلوا النوم معها، ويقدروا عليه.

الفكرة بسيطة، كلّما زادت المرأة قبحًا كان النوم معها بحاجة لشراب أكثر.

ويحدث أن توجد جميلة، فيردّ المسؤول على السائل إنها لو توفّرت، فسيعاشرها بكامل قواه العقلية، وبعدّة أكواب منبّهات، فيمازحه صديقه بأنها هي مَن تحتاج كؤوسًا كثيرة لتنام معه.

الطريف في اللعبة تعليقاتهم، وتصنيفهم لجمال النساء بمقياس الكؤوس.

مرّة سأل أحدهم عن واحدة، فتململ المسؤول، وقال إنه بحاجة لبرميل حتّى يستطيع الاقتراب منها.

عندها ردّ عليه آخر بالقول إنه بقنّينة واحدة ينام مع صديقه.

ضحكوا كثيرًا.

عاهدتُ نفسي يومها بمنتهى السذاجة ألا أقترب من سكران، ولا أجعله يقترب مني، أن أبعد عني تلك المعاشرات الثملة التي تنخفض فيها الاشتراطات والمعايير، وأبتعد عنها.

كنتُ أرتقي بجسدي وحاجاته وأطهّرها حتّى عن الأمور العادية والمألوفة، كنتُ أحاول أن أمنح كل شيء قيمة، وأحصّنه، ربّما كان ردّ فعل على امتهان حاجاتي.

ربّما..

أحيانًا أشعر أن كل شيء آتيه هو ردّ فعل، أن أكتشف إن كنتُ أفعل ما أفعل لأنني أريد فعله، أو أنني أفعل ما أفعل كردّ فعل، هو سؤال حياتي.

أخاف من فكرة كون أفعالي التي أعتبرها خيارات كاملة وحُرّة وقاتلتُ طويلًا من أجلها، هي مجرّد ردّ فعل لشيء فُعل بي ولي من دون أن أدري.

كنتُ أريد معيارًا لأفعالي ومحدِّدًا أنا أؤمن به، ولكنه كان يتلاشى كلّما اعتقدتُ أنني عرفتُه.

هذا ما كنتُه، والأيّام الماضية تشهد على أنه ماض بعيد.

لا أذكر أسماء مَن دخلوا الشقة معي في الأيّام الماضية. ولا أذكر ما فعلوا بي، وما فعلتُ لهم! تذكّرني الأوجاع في بدني والحرقة في عضوي، والبثور حول فمي.

شدّ في باطن قدمي وفخذي، كأن عضلاتي مُطّتْ حتّى تمزّقتْ، وبقع وخدوش في بدني، وتشنّج في أصابعي ويدي، كأنني كنتُ أتشبّث بأشياء تفلتُ مني..

بماذا كنتُ أتشبّثُ طوال الليالي الماضية؟

أتخيّل إجابة ... ثمّ أحاول ألا أتخيّلها.

كل شيء تشبثتُ به خذلني.

أتذكّر البكاء حين يستيقظ فيّ شيء وأنا تحت أحدهم أو أمامه. حين طلبتُ منه أن ينظر في المرآة إلى وجهي، وهو يدخلني، فضحك مستهزئًا.

"إن لم تنظر في وجهي، فأنت تفكّر في وجه آخر". ضحك، وطلب أن نُكمل ما نفعله. كأنه في وظيفة، كأنني عاهرتُه الصغيرة!

لا أذكر ما حصل بعدها، كنتُ أشرب كمجنون، وأعبُّ كل السوائل كبقرة، وأدخّن كل لفافة تقع في يدي كسجين، ولا أشعر بشيء.

ماذا أتوقّع من شخص عرفتُه قبل ساعة؟

أن يحبّني؟!

لماذا أنظر في وجوههم ولا ينظرون في وجهي! عن ماذا أبحث في وجوههم؟

يحضر الوجه الذي أبحث عنه. أقلّب بدني إلى الجهة الأخرى، وأفكّر برؤوف، أحاول أن أطبّب بتذكّره جروح الأيّام الماضية.

بمجرّد أن تلمس أصابعي كتفه كانت يده تتحرّك لتلمس كتفي، وحين أبدأ برسم دوائر صغيرة على الفجوة الخفيفة بين كتفه وصدره كان يبدأ بالهبوط بأصابعه نحو صدري ليرسم دوائر مماثلة.

حين كنتُ أريد شيئًا لنفسي، أي شيء، مهما كان غريبًا وغير اعتيادي، يكفي أنا أباشر بفعله له، ليستجيب فورًا كأنني أنا أحرّكه، ويفعله لي. لا أذكر أنه تأخّر للحظة عن مجاراتي مهما كانت حاله.

كانت علاقة تبادلية مكتملة، لا أظنّ أن أحدًا غيرنا اختبرها، وكانت مسرفة في التجريب أيضًا. لم أكن أمنع نفسي من فعل أي شيء أرغب بتجربته، وكان لا يتأخّر للحظة. كنتُ أظنّه أحيانًا يغيب عن الوعي بمجرّد اقترابي منه، ويصبح رهن إشارتي وحركاتي، ولكن المتعة العجيبة التي كانت تنضح من جسده كله تدلّ بكل وضوح على مقدار إصراره ورغبته.

بعد مغامرات متهوّرة بين جسدينا، فكّرتُ أنه أيضًا سعيد بهذا التبادل

المطلق، سعيد بالهمسة مقابل الهمسة واللمسة مقابل اللمسة واللعق مقابل اللعق. سعيد بهذه العلاقة التي لا طلب فيها ولا تفكير ولا موافقة ولا رفض، بل استجابة غير مشروطة. استجابة عمياء للرغبة المقابلة، واستجابة عمياء للرغبة الخاصة.

حتّى عضوي بدأ يتبدّل معه، بعد أن كان مركز كل شيء في حاجاتي الجسدية لم يعد كذلك، كأنني تعبتُ من استخدامه، كأنني رغبتُ بأشياء أخرى، كأنني لم أعد متأكدًا من أن ما يشعرني به هو ما أريده فعلًا أو ما أتوق للشعور به. كأنني سئمتُ منه. أكثر من عشر سنوات من الانشغال اليومي به، لعلّها أتلفتْ علاقتي به، أو لعلّني سئمتُه. لا أدري. لم أفكّر بالأمر كثيرًا، كنتُ أفكّر برؤوف وسعادتنا فقط.

كنتُ أسأل نفسي كثيرًا قبل رؤوف، ومعه عرفتُ أن الأسئلة تُفسد سعادتي، فتوقّفتُ عن طَرحها.

بعد جرعات كبيرة من رؤوف، تناولتُها على مهل وبلطف بالغ، اختفت الأسئلة، لم أعد مضطرًا للتفكير في ما إن كنتُ هذا أو ذاك.

تجاوزتُ الخواطر التي لازمتني منذ سنوات طوال، ومعها اقتنعتُ أن الإجابات حتّى لو كانت موجودة، فهي لن تغيّر شيئًا ممّا أريده، أنا كل الأشياء التي شعرتُها، حتّى لو كانت متعارضة متضادّة.

الريبة الوحيدة التي تسلّلتْ إلى نفسي كان التفاني مصدرها، إن كنتُ أريد لنفسي ما أفعل له وبهذه الرغبة العارمة، فكيف يمنحني المقدار الذي أريده، ولا ينتقص منه؟ كيف يدرك إلى أي حدّ أريد وكيف أريد؟ هل كان تفانيّ البارع في ما أفعل به وله، هو محرّك تفانيه البارع؟ هل كنتُ أعطيه تمامًا كما كان يعطيني؟ هل كنتُ أفعل بنفسي من خلاله؟ أفعل بنفسي وفقط؟ هل كان يحبّني؟ هل كنتُ أحبّه؟ أم أحبّني معه؟ أحبّني على الشاكلة التي أكونها إلا بوجوده؟

أتذكّر كمَن ينظر إلى صورة، مرّتنا الأولى. بعد جولة تنظيف طويلة في الشقة، كنا خلالها طفلين يلهوان بالماء على وقع أغانٍ شعبية تملأ البلد، كان المغنّي يتغزّل بزريف الطول خاصّته وأنا أنظر إلى زريف الطول خاصّتي، يطوي جسده، وهو يفرك زوايا الحمّام بليفة صفراء وعضلات جسده تستطيل وتتقلّص.

أنهينا التنظيف، ودخل ليستحمّ، والباب مفتوح، لا أدري إن تعمّد إظهار تعنّيه في الوصول إلى حاجيات استحمامه أم أنني مُن رأيتُ هذا وشعرتُ برغبة بالاقتراب.

عرضتُ المساعدة عليه، فاستدار نحوي بعضو شبه منتصب، فعبرت معدتي رجفة صغيرة على مراحل انتهت، وهو يقول: "تعال".

بعد ذلك اليوم لم تعد أجسادنا شيئًا يُفترض أن نداريه عن بعضنا، ذلك اليوم كان المقدمة لأيّام صارت فيها أجسادنا شيئًا يُفترض أن نتشاركه.

ولعلّ هذه المقدّمة نفسها، كانت مقدّمة لأيّامي هذه!

بعد هذا كله ها أنا ألقي بنفسي لمَن كنتُ أراهم حيوانات هائجة.

مشكلتي أنني منذ رحيل رؤوف صرتُ أفكّر في كل شيء.

كثيرون حولي كانوا مدفوعين بالفضول، بمجرّد الرغبة بالتجريب، وهذا كان يؤذيني بطريقة أعجز عن شرحها، يؤذيني حين أتذكّر كل الأثمان والأوجاع التي اضطررتُ لتقديمها وخوضها، كانت ولا تزال وستظلّ مسألة حياة، فكيف يمكن أن أشعر حيال مَن يتعامل معها كموضوع لفضوله ورغبته بالتجريب المدفوعة بالمَلَل أو السأم!

لذلك كنتُ أتجنّب هذه النوعية، وتجنّبتُ أستاذ الجامعة الذي راودني، ثمّ تزوّج إحدى طالباته. في داخلي كنتُ أحتقرهم إلى حدّ لا يُوصَف.

انهمكتُ في تنزيه جسدي وحاجاته إلى حدّ الهَوَس.

لذلك صرتُ منجذبًا لمَن أرى في وجوههم وأسمع في صوتهم وأحسّ في أنفاسهم ذاك التعب من درب طويل عبروه في الطريق إليّ، لمن يعرفون أنها مسألة حياة.

ولذلك أيضًا كان يمكن أن أغفر أي شيء إلا استغلال حالي هذه للتقرّب مني، عبر ادّعاءات وأكاذيب وقصص ملفّقة عن عذابات وصراعات، قالوا لي إنني مهووس بالمعذّبين والضحايا، كذّبتُهم ثمّ اعترفتُ لنفسي بأنني مهووس ربّما. صرتُ أدقّق في ادّعاءات كل مَن يقابلونني، وما أسهل كشفهم.

نحن أبناء هذا العذاب الجسدي والروحي نعرف بعضنا بعد تدقيق بالعينين لثوان أو بعد لمسة نعرف من ارتعاشها كم كانت بعيدة مشتهاة، ولذلك هي غالية لا تُقدّر بثمن.

أين ضاع هذا كله؟!

أريد أن أضحك على نفسي طويلًا، فلا أستطيع.

ضاع مع سوائل المجهولين التي رشقوها على ظهري وبطني وفخذي وفي داخلي.

أنا بحاجة لأنقع نفسي بالكلور حتّى أتطهّر منهم، أما داخلي؛ فلا أدري كيف وبماذا سأنقعه؛ ليعود كما كان.

أريد أن أهدأ، وأن أطمئنّ ألا أفكّر بهذا الجسد كل لحظة، ألا أخاف ممّا أشعر. هذا كل ما أريده".

أنهض لأغتسل.

أسمع رنين هاتفي المحمول من داخل حوض الحمّام. أستعجل للحاق بالاتّصال. آرنو يطمئنّ عليّ ويدعوني للخروج. أطلب منه أن يأتي لاصطحابي، فيدعوني لتناول فطور مميّز.

أغلق الخط، وأبتسم أمام هذا اللطف غير المفهوم.

لا يسألني آرنو عن شيء يزعجني، لا يوجّه لي النصائح، لا يتذاكى عليّ، لا يطلب مني شيئًا سوى الاهتمام بنفسي. وبعد أيّام تحولتُ فيها إلى رماد مسحوق، ها هو يُلملمني بلطف، يتحدّث معي عن كل شيء ممكن إلا ما قد يزعجني، ويطلب مني تناول الطعام في هذا المقهى الجديد. ثمّ فجأة يسألني عن اسم حسابي على فيسبوك؟

- "ليس لديّ فيسبوك".

يدهش بشكل غريب، ويكاد يصرخ: "معقول؟! لم أر أي شخص هنا بدون حساب فيسبوك؟!!"

أجيب مبتسمًا:

- "لا أدري، لم يُعجبني الأمر، وليس لديّ ما أقوله".

يضحك ويردّ بسرعة: "ليس مطلوبًا أن تقول شيئًا، يمكن أن تتابع وتقرأ!"

يضع يده على ركبتي، ويقول: "سنستغلّ هذا الصباح في إنشاء حسابكَ على فيسبوك.."

أستسلم مبتسمًا.

يلتقط هاتفه؛ ليصوّرني. أحاول الابتسام للصورة، أتذكّر أنني لا أملك صورًا لنفسي، صور الطفولة لدى عائلتي، أما معي؛ فلا صورة سوى وجهي.

يسألني أن أضع كلمة السّرّ التي أريدها، أضحك وأقول: "آرنو ١"

نضحك كثيرًا كأن شيئًا مفرحًا سيحدث بعد قليل.

نستغرق ساعتين في عالم أزرق ملّ منه الناس، وأنا أكتشفه اليوم. يضيف لي صفحات عديدة، ويكون صديقي الوحيد.

انهمكتُ في تنزيه جسدي وحاجاته إلى حدّ الهَوَس.

لذلك صرتُ منجذبًا لمَن أرى في وجوههم وأسمع في صوتهم وأحسّ في أنفاسهم ذاك التعب من درب طويل عبروه في الطريق إليّ، لمن يعرفون أنها مسألة حياة.

ولذلك أيضًا كان يمكن أن أغفر أي شيء إلا استغلال حالي هذه للتقرّب مني، عبر ادّعاءات وأكاذيب وقصص ملفّقة عن عذابات وصراعات، قالوا لي إنني مهووس بالمعذّبين والضحايا، كذّبتُهم ثمّ اعترفتُ لنفسي بأنني مهووس ربّما. صرتُ أدقّق في ادّعاءات كل مَن يقابلونني، وما أسهل كشفهم.

نحن أبناء هذا العذاب الجسدي والروحي نعرف بعضنا بعد تدقيق بالعينين لثوان أو بعد لمسة نعرف من ارتعاشها كم كانت بعيدة مشتهاة، ولذلك هي غالية لا تُقدّر بثمن.

أين ضاع هذا كله؟!

أريد أن أضحك على نفسي طويلًا، فلا أستطيع.

ضاع مع سوائل المجهولين التي رشقوها على ظهري وبطني وفخذي وفي داخلي.

أنا بحاجة لأنقع نفسي بالكلور حتّى أتطهّر منهم، أما داخلي؛ فلا أدري كيف وبماذا سأنقعه؛ ليعود كما كان.

أريد أن أهدأ، وأن أطمئنّ ألا أفكّر بهذا الجسد كل لحظة، ألا أخاف ممّا أشعر. هذا كل ما أريده".

أنهض لأغتسل.

أسمع رنين هاتفي المحمول من داخل حوض الحمّام. أستعجل للحاق بالاتّصال. آرنو يطمئنّ عليّ ويدعوني للخروج. أطلب منه أن يأتي لاصطحابي، فيدعوني لتناول فطور مميّز.

أغلق الخط، وأبتسم أمام هذا اللطف غير المفهوم.

لا يسألني آرنو عن شيء يزعجني، لا يوجّه لي النصائح، لا يتذاكى عليّ، لا يطلب مني شيئًا سوى الاهتمام بنفسي. وبعد أيّام تحولتُ فيها إلى رماد مسحوق، ها هو يُلملمني بلطف، يتحدّث معي عن كل شيء ممكن إلا ما قد يزعجني، ويطلب مني تناول الطعام في هذا المقهى الجديد. ثمّ فجأة يسألني عن اسم حسابي على فيسبوك؟

- "ليس لديّ فيسبوك".

يدهش بشكل غريب، ويكاد يصرخ: "معقول؟! لم أر أي شخص هنا بدون حساب فيسبوك؟!!"

أجيب مبتسمًا:

- "لا أدري، لم يُعجبني الأمر، وليس لديّ ما أقوله".

يضحك ويردّ بسرعة: "ليس مطلوبًا أن تقول شيئًا، يمكن أن تتابع وتقرأ!"

يضع يده على ركبتي، ويقول: "سنستغلّ هذا الصباح في إنشاء حسابكَ على فيسبوك.."

أستسلم مبتسمًا.

يلتقط هاتفه؛ ليصوّرني. أحاول الابتسام للصورة، أتذكّر أنني لا أملك صورًا لنفسي، صور الطفولة لدى عائلتي، أما معي؛ فلا صورة سوى وجهي.

يسألني أن أضع كلمة السّرّ التي أريدها، أضحك وأقول: "آرنو ١"

نضحك كثيرًا كأن شيئًا مفرحًا سيحدث بعد قليل.

نستغرق ساعتين في عالم أزرق ملّ منه الناس، وأنا أكتشفه اليوم. يضيف لي صفحات عديدة، ويكون صديقي الوحيد.

يتركني مع جهازه، ويذهب إلى الحمّام. أضع المؤشّر على خانة البحث كما علّمني منذ لحظات، أفكّر في كتابة مَن أبحث عنه لأرسل له طلب صداقة أو أنظر في حسابه من باب الفضول. لا يخطر ببالي إلا رؤوف.

أشعر بضيق، يصطاده آرنو بعودته قبل أن يتفاقم، يسألني إن كنتُ بحثتُ عن أصدقاء، فأقول لا. يقول: "ما رأيكَ بزملائكَ في المطعم؟".

أراها فكرة مناسبة، أبحث عنهم، غير متأكد من طريقة كتابة أسمائهم، إلا أن آرنو يعثر على بعضهم، ويرسل طلبات الإضافة.

لحظات وتصل رسائل تعجّب ومزاح منهم. أشعر بالألفة، وأتأكد أنني أحبّهم.

يفاجئني الناس بقدرتهم على القسوة، وكذلك بقدرتهم على اللطف، بل بقدرتهم على جمع هذه التناقضات. فجأة صرتُ طفل البار المدلّل، حين أتعب يحتضنني أحدهم، ويطلب مني أن أرتاح. مدلّل الجميع، كلهم إخوتي، كأنهم أدركوا ما بي، وتصالحوا معه لمرّة واحدة فقط، بل تصالحوا مع حالة واحدة فقط، هي حالتي.

مرّة، لم أتمالك نفسي، وبكيت عليها، ففوجئتُ بهم ينظرون إليّ. بعدها صرتُ مدلّلهم. كل مصائرنا المشتركة وشقائنا في العمل معًا، وكل ما نواجه، لم يفلح في إشعارنا بأن هنالك ما يجمعنا، إلا لحظة انفجار عاطفي بكيتُ فيها، ورأوني.

آرنو ينتشلني إلى صباح هادئ.

أفكّر في البحث عن أسماء بعض الصديقات، كنّ زبونات للمطعم، وصرنَ صديقات، أشعر بأفضلية نادرة على كل الشباب حولي، لديّ كل تلك الصديقات اللواتي لا أفكّر مرّتين قبل قول أي شيء لهنّ.

"يتكرّر مشهد ثابت في علاقتي مع أي فتاة عرفتُها، حين يبدو واضحًا

أنها متوجّهة صوبي تمامًا، يحدث في بضع ثوان ما تعوّدتُ على رصده، وتصنيف الفتيات بناء عليه. تتغيّر ملامحهنّ، جميعهنّ، كأن شيئًا بدا أوضح لهنّ، كأنهنّ أدركنَ بفطرتهنّ شيئًا ما.

بعضهنّ، يبدو واضحًا أنهن يفكّرنَ بالتراجع، ويتراجعنَ. أما مَن يتقدّمنَ بعد تغيّر ملامحهنّ؛ فهنّ أدركنَ شيئًا ما، وأستطيع معرفة ما أدركنَ بعد الحديث معهنّ.

هل أعترف بشيء خطير حين أقول إنني أخاف منهنّ قليلًا، أخشاهنّ، وأحاول التملّص!"

أتذكّر آية.. هل أبحث عن اسمها في فيسبوك؟

لا

يذهب آرنو إلى عمله، وأظل في المقهى الهادئ، كأنه وقت مستقطع. ولكنْ؛ بمجرّد اختلائي بنفسي حتّى ينقضّ عليّ عقلي المتعب، المهووس بتعذيبي معه.

"لا أجد أبأس ممّا حل بي في الأيام الماضية، ما صار عاديًا، أن تصحو وتعمل وتأكل وتسهر وتنام دون أن يرد على بالك مَن كان يملأ حياتك قبل أشهر! رؤوف لم يعد موجودًا في حياتي، بات خاطرًا يرد في بالي حين أسأم من التفكير بأشياء ترهقني، أو مجرّد سيال عصبي استفزّه التفكير بشيء قريب من رؤوف، فاستدعاه، قطعة ديكور لاستكمال المشهد ومواصلة التفكير.

وفي كل تذكّر له أتأكد أنني أنساه، حين أتنبّه للمدّة التي قضيتُها دون أن يخطر لي على بال. أفكّر بالمساحة التي كان يملأها من حياتي حتّى كأنه كان يشغلها كلها، ثمّ أفكّر كيف عالجتُ الفراغ الذي تركه، وبماذا ملأته.

وأسوأ ما في الأمر أن التذكّر لا يحمل إلا فكرة واحدة، كيف انتهى كل شيء.

في المرحلة بين البدء بنسيانه حتّى نسيانه كُلّيًا، يبدو أن الشيء الوحيد الذي يظلّ حاضرًا هو النهاية، كيف انتهينا، أو كيف بدأ النسيان وصار ممكنًا.

ومع الوقت وتكرار التفكير في النهاية المبكّرة تلك، تغدو الأمور أبسط وأكثر كثافة.

كان بيننا ماء، وبدأ يجفّ رويدًا رويدًا، هذا كل ما في الأمر.

كنا نحكي أكثر، نضحك أكثر، وبدأ الحكي يقلّ، والضحك أيضًا.

وحين أسأل رؤوف عن أي شيء يتغيّر بيننا، كنت أُسرّع في تجفيف الماء الذي بيننا.

سلوك رؤوف منعني من سؤاله عن الأشياء التي بدأت تتغيّر. وحين يفيض بي وأسأله، أدخل معركة خاسرة تُبعده عني أكثر.

حين لا أكون معه، في الجامعة أو في العمل، أظلّ أردّد في عقلي الكلمات التي أريد قولها له، أتخيّل الحوار كاملًا، العتب والسؤال والشكوى والصراخ والبكاء كاملًا، وأرتّب الأسئلة والإجابات والعبارات، سأقول هذه إن ردّ بتلك، سأجيبه بكذا إن سأل عن كذا، سأذكّره بذاك الوعد، وسأخبره بما لم أقله في مرّة سابقة.

أظلّ لساعات أردّد هذا كله في خاطري في انتظار رؤيته. وحين أعود للسَّكَن، وأجده، أحاول بدء الحديث، تفريغ كل هذا الكلام الطويل، محاولًا بثّ الحرص عليه مع كل كلمة. إلا أنه ينظر إليّ ببرود، ويقول إنه لا يريد أن يسمع، إنه تعب مرهق، إنه سئم من تكرار الكلام، رغم أنني لم أقل شيئًا!

أخشى من معركة خاسرة تُبعده عني أكثر، يقتلني سؤال أيهما أفضل، أن أسكت أو أنفجر؟

إذا انفجرتُ سيبتعد عني أكثر. وإن سكتُّ...

لا أدري

كنتُ أنهار لأتفه سبب، أتداعى لمجرّد التفكير برغبتي في إسماع رؤوف بعض الأغنيات وعدم تجرّئي على ذلك. أتحطم لرغبتي في سماع أغنية معه، ولقناعتي أنه لن يهتمّ بهذا، ولا يهتمّ بحاجتي لسماع أغنية معه.

صرتُ هشًا كجنين أخذوه من رحم أمّه، ووضعوه على الرصيف.

كنتُ أشعر أن كل الكلام الذي أردتُ قوله له ولم أقله يترسّب في بدني، وفي شراييني، وفي مسالك الدم. أنام ثقيلًا جدًا من الكلام المسموم الذي لم يخرج ورؤوف يبتعد.

كأننا كنا في عالم واحد، غادره رؤوف، وخلّفني فيه وحدي، كأننا كنا في أرض اللهفة والرغبة والكلام الخفيف عمّا نحسّ ونشعر، ثمّ غادر هو وتركني.

صارت الكلمات نفسها التي كانت تبعث في وجهه نورًا، تبعثُ فيه كل ملامح الضجر والسأم، بل والاستخفاف،

كأنّه كبر عليّ وعلى ما أحسّ وأرغب.

حين أحدّثه بأحاديث أيّام لهفتنا، كان وجهه يتغيّر، يصبح كملامح شابّ يدعوه الأطفال للعب معهم.

أخاف من القادم

حين كنتُ أخشى من دنوّ نهايتنا، كنتُ أجلس في زاوية بعيدة، وأشغّل الأغنيات بصوت خافت لتقول عني الكلام الذي أخاف من قوله لرؤوف خشية ردّ فعل يُفقدني إياه.

حين كانت فيروز تهمس وتنادي: "يا حلو شو بخاف إني ضيّعك"

كان حلوي يضيع مني وخوفي يتحوّل لحقيقة.

"نمشي على الجسر العتيق وتضيع مني بهالطريق"

مشينا على جسر الأشياء التي ظننتُ أننا تجاوزناها، وصارت خلفنا، وضيّعتُه حين ظننتُ أننا تجاوزناها فعلًا.

"يا حلو شو بخاف ليلة عاصفة.. يخطر ع بابك شي نجم، وتقوم تمشي بهالعتم، وإنطر أنا ع الباب إنطر خايفة".

جاءت الليالي العاصفة، ولا أدري ماذا خطر على بال رؤوف، وفي المنتهى كنتُ أنا من مشى في العتمة، وكنتُ أنا مَن انتظر أيضًا.

فعلتُ كل شيء.

تذكُّر هذا وحده كاف أن يملأ قلبي بالحقد والغضب.

هكذا انتهينا."

٢٣ آب ٢٠١٢

سـعودية تنجـب طفـلًا قلبه في الجانـب الأيمـن وكبـده في الأيسر

د ب أ

(٨)

"وين صار رؤوف؟"

يباغتني السؤال،

ليس موجّهًا لي، ولكنه يصدمني.

أنظر إلى وجوه الجالسين، لأتأكد إن كان أحدهم انتبه إلى وقع السؤال عليّ. أستدير بحثًا عن شيء أمسك به أو أشربه، أحمل كأسًا فارغة، وأدحرجها بين يدي. رحيل رؤوف عن لوتس حدث قبل أن يلحظ العاملون أي شيء خاص في علاقتنا، كان كتومًا ويضبط علاقته بالآخرين بصرامة، تبعث على الإعجاب.

وسؤالهم عنه في جلسة الشرب المتأخّرة هذه بعد أن رحل الجميع وارد، ولكن المفاجأة دهمتني.

رؤوف كزميل سابق، موضوع متوقّع في جلساتنا، نجلس لنسأل عمّن تركوا لوتس، وأين يعملون اليوم.

- "ما بعرف. ما حدا جاب سيرة"

يجيب خليل الذي يعدّ لي أي طعام أشتهيه هنا.

- "رؤوف ترك كل الشغل.."

يقول أحدهم.

- "أكيد بكون بشتغل جوّة، بيلدهم كل الشباب بتشتغل بتل أبيب".
قال توفيق، وانشغل كلٌّ بالنظر إلى كأسه.

أراقب الأسئلة كأنني لا أسمعها:

ثمّ فجأة قال محمّد:

- "بتصدقوني؟ كان يصلّي العشا بمسجد المصايف. شفتو قبل فترة".

يصمت الجميع، أسمع ضحكات بعيدة جدًا وحفيف أشجار وصراخ طفل، وأنا واجم كأنني أتفرّج على عرض ما.

يسألونه مرارًا إن كان متأكدًا، يؤكد الأمر، ويضيف:

- "سألتُ في جميع المطاعم والبارات، ولا خبر عنه. واضح.. ترك هالشغلة."

تعليقه يشعرني أننا نعمل في تجارة المخدّرات أو بيع الأعضاء البشرية!

أفكّر قليلًا وسط صمت الجميع، ربّما قال عبارته للدلالة على الطريقة الجديدة التي يُفترض أن رؤوف بدأ ينظر بها لعمله السابق.

أفكّر أو أهذي لا أدري..

تصبح الأشياء أخطر أو أسوأ، لا بقيمتها الحقيقة أو بطبيعتها الخاصة، بل بطريقة تعامل الناس معها، بمبالغاتهم إزاء كل شيء يرفضونه أو لا يحبّونه.

ليس غريبًا علينا مَن يتركون العمل في لوتس؛ لأنهم قرّروا الالتزام دينيًا، هنالك مَن كانوا يعملون معنا ويؤدّون الصلاة بشكل عادي. أما أن يكون رؤوف؛ فهذا كان أكبر من قدرتي على الفَهْم!

ثمّ إنني أعرف رؤوف، وأعرف جيدًا أن الأمر مختلف معه.

أتوه تمامًا.

أخشى من انتباه الجميع لحالة الذهول والوجوم التي اعترتني من حديثهم، كلهم ساهمون، ولكن توتّري يشعرني أن صمتي مريب، أحاول الضحك، وأقول: "يلا.. مش غريب بكرة نشوفه متزوّج وحدة محجّبة".

أنظر إلى وجوههم، فألحظ أن أثر تعليقي غريب، كأنهم يتساءلون عن علاقة ما قلتُه بسياق حديثنا!

يبدؤون بالنهوض والمغادرة.

أظلّ مكاني مقتنعًا أنني وحدي مَن سأذهل إن رأيتُ رؤوف متزوّجًا، ثمّ متزوّجًا بفتاة محجّبة. عالمي الخاصّ مع رؤوف وعنه لا يخصّ الجميع، وهذا واضح.

في هذه اللحظة تتّضح أمامي فكرة كنتُ أحاول رفضها دون تفكير، رؤوف تغيّر، كان يتغيّر ونحن معًا، وربّما تركني؛ لأنه يتغيّر. هذا شعور قلبي أكثر منه استنتاجًا مَبنيًّا على معطيات ثابتة، فأنا لم أعرف شيئًا عن رؤوف منذ غادر.

أمضي نحو البار بخطى مهزوزة، زادها السُّكْر اضطرابًا. أتخيّل رؤوف ملتزمًا مع زوجة محجّبة ملتزمة، ولديهما أطفال. ووجوههم جميعًا بيضاء، ويُظهرون سعادة ما، تخيّلتهم يشبهون إخوتي وزوجاتهم، أو أخواتي وأزواجهنّ. أتخيّلني مع كل الفتيات والسيدات اللواتي حاولنَ معه طويلًا، مَن جاراهنّ، ومَن أزاحهنّ برفق أو غلظة، نضحك جميعًا على أنفسنا.

هذا ما أتخيّله، أما في الحقيقة؛ فإن رغبة بالهرب من كل شيء تتعاظم في داخلي.

الشباب يقفلون المطعم.

يعرضون توصيلي للبيت، فأقول إنني أرغب بالمشي قليلًا.

أمشي، أنظر إلى ارتفاع المباني، ولا أفكّر إلا بأيها أنسب لسقوط أخير

ينهي كل شيء. أراقب السيارات المسرعة في آخر الليل، وأفكّر بالسرعة اللازمة لإيقاف كل شيء.

أفكّر أن إنهاء كل شيء وإيقافه سهل، ولكنني جبان".

بدلًا من ذلك أفتّش عن الهاتف للاتّصال بآرنو؛ لأخبره عمّا سمعتُ بشأن رؤوف، أو لأخفّف توتّري بالحديث عن الأمر كخبر مثير لا أكثر.

وسام

١٩ تشرين ثاني ٢٠١٢

أكثـــر مـــن مئـــة شـــهيد في غـــزة وتحذيـــرات مـــن كارثـــة إنســـانية

وكالات

(١)
وسام

كانت أماسيهما الجميلة تأتي دون موعد ولا تخطيط، يرسل لها رسالة قصيرة يقول فيها باختصار فائق إنه ينتظرها مساء في المطعم المعهود، ولا تردّ على الرسالة بأخرى، بل تسلّم آخر طفل في الحضانة لأمّه المرهقة من يوم عمل طويل، وتمضي إلى شقّتها على أطراف شارع الإرسال.

هنالك تغتسل وتتعطّر وتترك شعرها دون تصفيف أو تجفيف، تلبس ما توفّر وتمضي إليه، وفي الأيّام الرائقة ترتدي تنّورة أو فستانًا قصيرًا منذ أخبرها أن ساقَيْها هما الوحيدتان اللتان تُفلحان في تحريك عينيه المحدّقتين بوجهها. وحين لا يُسعفها الوقت للاغتسال وتبديل ملابسها، وتمضي إليه من الحضانة مباشرة، يمازحها في أقرب فرصة قائلًا: أحبّ رائحة الأطفال عليكِ.

كان عشاء عاديًّا، بل أدفأ من المعتاد، ربّما بسبب ريح في غير موعدها ألمّت بالمدينة، أو بسبب تشغيل الساقي لنظام التدفئة بعد عدّة أشهر من السبات. المهمّ أنهما شعرا بدفء إضافي ليلتها، وهذا الدفء هو ما قلّص المسافة بين وجهيهما لحدّ كثّف احتمالات القُبل واللمسات، وقبل أن يجتازا حدّ القبلة الخامسة كان الساقي يُنشّف الكأس الأخيرة، ويُعلّقها فوق المشرب متدلّية مرهقة من تلاعب الشفاه والأفواه والسوائل.

والقبلة الخامسة تعني أن موعد المغادرة قد حان، فالمطعم فارغ إلا منهما، والساقي يبالغ في حركات الانتهاء من يوم طويل حتّى يلحظا تأخّرهما. كان مزاجها رائقًا، فغمرتْه طالبة مناكفة الساقي قليلًا، ولكنه قبّل يدها، ونهض ليدفع ثمن الدفء والطعام والمماحكة. خرجا من الباب الخلفي

للبناية التي يستقرّ المطعم في أعلاها، فهو أقرب إلى تجمّع سائقي سيارات الأجرة الليليين، أولئك إمّا مشرّدون امتلكوا سيارات أجرة بقدرة عجيبة، أو أزواج مضطهدون، شرّدتهم زوجاتهم، أو كارهون للشمس، أو مشتغلون بثلاث مهن، أو مصابون بفوبيا الزحام، وكل أولئك يصاحبون الليل، وينتظرون في مكان معهود على بعد ثلاثة أزقّة.

وقفتْ تُوليه ظهرها ريثما أَدْخَلَ أزرار سترته في عراها عند الباب، تثاءبتْ حتّى فارقتْ دمعةٌ ماءَ عينها اليمنى، وأشعرتْها الريح ببرد الدمعة، فمسحتْها بطرف قميصها. رفع بصره إليها، نظر بتمعّن، فرضتْه ظلمة الزقاق، وضع يده على وجهها، وسألها بإلحاح إن كانت تبكي! ورغم أنها أخبرتْه بما حدث فعلاً، أنها تثاءبتْ، فانسلّت دمعة من ماء عينها، إلا أنها لم تكن مقنعة، فكرّر عليها السؤال، وزاد ارتباكها، بل فاقمت محاولاتها تأكيد ما حصل من شكّه في بكائها، أو على الأقل بدئها به.

تذكّر أن أمامه الليل بطوله ليتأكد إن كانت تبكي، فابتسم، وبدءا بالسير متلاصقين.

بالكاد أتمّا خمس عشرة خطوة، توقّف، ووضع يديه على صدره، وبدأ يفتّش في جيب سترته، ويسألها إن رأت أين وضع هاتفه المحمول، ترافقتْ إجابتها مع صوت حادّ لبوق شاحنة في نهاية الشارع، فخطا خطوتين إلى الخلف باتجاه باب البناية الخلفي، وهو ينظر داخل جيب سترته العميقة، وأدار لها ظهره منهمكًا في البحث عن الهاتف، والتفتتْ هي صوب نهاية الزقاق بعصبية مستنكرة زعيق الشاحنة في ذاك الشطر من الليل.

ما إن دخل ظلمة الباب حتّى اجتاح الصوت أذنيه مركّبًا، تلويح في الهواء زادت الريح من وضوحه، وارتطام يشبه صوت ارتطام رأسه مرارًا بإطار باب سيارات الأجرة، فصرخة غير مكتملة، بل مبتورة، فهي شهيق دون زفير، ثمّ صوت بدايات جري، ثمّ صوت ارتطام بالأرض كصوت الوسادة حين يلقيها أرضًا، ويضع رأسه عليها، ويضع رأسها على صدره.

رفع رأسه، واستدار ليجدها على الأرض مطروحة على ظهرها تنظر نحو السماء، وعلى بعد ثلاث خطوات بدن متدثّر بالسواد يركض مبتعدًا، وبقعة حمراء رآها بوضوح رغم الظلام تتّسع على صدرها، وتتفشّى إلى الإسفلت.

انتفض، وأخرج يديه من جيبه، ورماهما أمامه، ركض نحوها، انخفض قريبًا من وجهها، كانت تلتقط ثلاثة أنفاس دون أن تُطلقها، نظر صوب الهارب على بُعد خمسة أمتار وسكّين لمعت في يده اليمنى. حاول حملها. تركها سريعًا، ركض صوب الهارب، قطع ثلاثة أمتار وتوقّف، نظر إليها، رجع خطوتين، كانت تلتقط نَفَسين دون أن تطلقهما، أمسك رجليها، ثمّ تركهما، نظر إلى الهارب، نهض، وانطلق ليلحق به، أصبح على بُعد متجرين، ركض بكل عزم ممكن، قطع المتجرين، وقطع الهارب خمسة متاجر، التفّ ونظر إليها، رأى وجهها ساكنًا، ركض صوبها، حاول حملها، لم تلتقط أيّ نَفَس، وضع يده على وجهها، على صدرها، على رقبتها، مدّدها، ونظر نحو الهارب ينعطف نحو الشارع في نهاية الزقاق، ركض بكل ما استطاع من اتّساع قدمين، لم يعد يرى الهارب حتّى وصل إلى نهاية الزقاق، توقّف، نظر يمنة ويسرة، كان الهارب على يمينه على بُعد مئة وخمسين مترًا، هَمّ باللحاق به، نظر إليها، كانت بعيدة ملقاة قرب الرصيف كنقطة غائرة داكنة، توقّف، وركض صوبها وهي تكبر وتتّضح في عينيه، ارتمى عليها صرخ ونادى وخضّ جسدها بكلتا يديه، كانت ثقيلة بدون لون، ولا تلتقط أي نَفَس، نهض وركض صوب الشارع في نهاية الزقاق، كان وقع قدميه مدويًّا كأنه يزن طنًا وأكثر، وكان صدى الخطوات يتردّد في جوف الليل، وتتقاذفه البنايات على جانبي الزقاق، ركض بركبتين مهترئتين، وصل نهاية الزقاق، ونظر على امتداد الشارع من الجهة اليمنى، ولم يجد شيئًا، الشارع خال من أي شيء، لم ير شيئًا، نظر صوبها، ووجدها ملقاة كنقطة سوداء صغيرة جدًا على الإسفلت، ظلّ يقلّب وجهه بين الشارع الفارغ؛ حيث رأى ظهر الهارب منذ لحظات، وصوبها مكوّمة وسط الزقاق، كانت بعيدة جدًا، حاول الركض دون أن يدري إلى أين، رِجل تخطو نحو الشارع الفارغ ورجل تشدّه نحوها، بدأ يرتعش، ولا يفلح في إدخال الهواء إلى صدره، أمسك برقبته، وحاول الصراخ أو مناداة أيّ كان، لم يفلح،

أمسك رأسه بكلتا يديه، وشدّ شعره الطويل، وهو يقلّب وجهه بينها وبين الشارع الفارغ، وحين خطا خطوة باتجاهها مدركًا أن الهارب قد اختفى تمامًا بدأ يصرخ صرخات طويلة.

كان يمكن لأي محقّق شرطة أن يحتجزه كعنصر أهمّ في الجريمة، فهو مَن وجدتْه الشرطة على بعد عدّة أمتار من الجثّة، وينظر إليها وهو جالس على ركبتيه، ورأسه يتطاول حتّى يراها جيدًا دون أن يقترب أكثر، ولكن عناصر الشرطة والمحقّقين والضباط جميعهم ما كانوا ليفترضوا ولو من باب التحوّط أن يكون ذا يد في الجريمة، نحيبه كان مختلفًا عن كل ما عهدوه في سنواتهم في الخدمة، كانت تشنّجات صوته الطويلة كأنها تخرج من بدنه، من جلده، من جوفه من أحشائه، لم تكن أصواتًا مألوفة أو شبيهة بأيّ من تلك الأصوات التي يسمعها عناصر الشرطة حول الجثث، حتّى عويل الأمّهات على أطفالهنّ في حوادث سير كانت معقولة وقابلة للتصوّر والفهْم إلا أن الصوت القادم من مكان سحيق داخله كان لا يشبه شيئًا.

ولذلك لم يرد على بال أي من أفراد الشرطة الذين فاقوا الثلاثين في موقع الجريمة أن يكون موضع اتّهام، حتّى أنزقهم سلوكًا وأجفّهم قلبًا لم يفكّروا في الأمر، كل ما فعلوه أنهم تشاوروا على عجل في أفضل طريقة للتعامل معه، وقال أحد المحقّقين، إنه على الأغلب غائب عن الوعي، وإن كانت حواسّه وأطرافه تعمل، واقترح أن يتركوه حتّى ينتهوا من معاينة الجثّة، وحين تنقل في سيّارة المشرحة، يمكن الحديث معه، ودفعه للحركة.

أغلب الظنّ أن الشرطة وصلت بعد اتّصال موظّفين متأخّرين في نوبة عمل ليلية في شركة مطلّة على الزقاق، والساقي في المطعم كأنه غادر دون أن يلحظه أحد. وقالت التقديرات الأولية إنه لم يكن في الزقاق حين وقوع الجريمة إلا الضحية والجاني أو الجناة والشابّ. كانت الحلقة مفتوحة بشكل فادح، والتحقيق معه هو ما سيمكّن ولو بشكل أولي من ردم شيء من المسافة المفتوحة فيها.

عشرات الصور والعيّنات والتحليلات أُخذت في الزقاق لمدّة ثلاث ساعات، وإشارات إلى كاميرات المراقبة الموجودة في المنطقة وتحديد لها تمهيدًا للحصول على تسجيلاتها.

وهو على حاله في موضعه، ينظر إليها جاثيًا على ركبتيه.

سَرَتْ بين عناصر الشرطة والمحقّقين قناعة أن القصّة بأكملها لديه، ولا حاجة للبقاء في ذلك الزقاق حتّى طلوع الصباح، وإثارة بلبلة، قوامها الفضوليون وأولئك الذين لا يشغلهم شيء عن الجري والتمشّي في البواكير. سارعت الشرطة في أخذ كل ما تحتاجه من ساحة الجريمة، ثمّ وبخفّة مفاجئة واحتراف جافّ وضع أربعةُ مسعفين جثّتها على حمّالة فضّية، وبنترة واحدة صارت معلّقة بالهواء، ثمّ دفعوها داخل سيّارة تشبه سيارات الإسعاف، وهو يراقب بعينيه تقلّبها بين أيديهم. عندها اقترب منه أصغر المحقّقين، وأخذ بيده، ودعاه للسير، لم يتوقّف الانتحاب، بل ازداد بُعدًا، كأنه نداء قديم، لا يفهمه البشر.

أجْلَسَهُ المحقّق في المقعد الأمامي من سيّارة الشرطة، وجلس إلى جانبه، كان يمكنه رؤية وجهها يحدّق بسقف السيّارة التي وضعوها فيها، وهي مطروحة على الحمّالة، وعلى ما يبدو لم تفلح محاولات لابسي الأردية البيضاء في إطباق جفنيها. ظلّ رأسه ملتفًا صوب الخلف، ينظر إليها، حتّى تنبّهت الممرضة الجالسة قربها، وأسدلت الغطاء الأبيض على وجهها، وأغلقت الباب. حينها اعتدل في جلسته، وأدار رأسه، وبدأ ينظر إلى الطريق أمام الزجاج الأمامي، وفي اللحظة التي فارق وجهها بصره، بدأ ببكاء صامت. اختلس المحقّق النظر إلى مجاري الدمع على وجهه وصولًا لذقنه، وراقب تساقط بعض الدمعات في حجره، وتأكد المحقّق أنه بعد ساعة من هذا البكاء الرزين يمكن الحديث عن الجريمة، ويمكنهم أخذ إفادته ومعرفة الكثير عمّا جرى في ذلك الزقاق الكئيب.

(٢)

نور

"قبل لحظات كانت الساعة تمشي ببطء عجيب، حتّى تعبتُ من مراقبتها، وشربتُ كل المنبّهات الممكنة وأنا أنتظر رحيلهما، قبل لحظات كانا سعيدين، ملامحهما الجادّة كانت سعيدة جدًا، وأدركتُ سريعًا أن ما بينهما مميّز جدًا. قبل لحظات كنتُ مستمتعًا بهما، بحركاتهما، وباقترابهما، وبالقبلات الخفيفة، وبالحرارة التي تخرج من بدنيهما. قبل لحظات كنتُ أخفّف من إضاءة المطعم لأشعرهما بضرورة المغادرة بطريقة لبقة. قبل لحظات كانا يشكرانني بابتسامات لطيفة.

أحاول استرجاع ما حدث خلال الدقائق الماضية.

غادرا، وتأكدتُ من أن كل شيء جاهز للإقفال، لا أدري كم مضى من وقت، دقائق، أقل من ثلاث دقائق، وكنتُ أخرج من الباب الخلفي. وأجدهما.

خرجتُ من الباب وظهري للشارع، وأقفلتُ الباب، واستدرتُ لأمشي، فرأيتُها هناك ممدّدة على الأرض، والدم بقعة كبيرة. وعلى بُعد أمتار يقف الشاب ويداه مفتوحتان أمامه.

اقتربتُ منه.. عيناه ناشفتان تمامًا، كأنه رأى شبحًا، ونَفَسه مسروق.

كأنه يطلب النجدة دون أن يتكلّم.

أرعبني المشهد، فرفعتُ يدي كأنني أعلن براءة مبكّرة ممّا أراه. وتراجعتُ إلى الخلف.

الشارع خال تمامًا.

راقبتُه وهو يقترب منها، ويمسكها ويتركها لعدّة مرات، كان تائهًا كأنه يتحرّك بقوى غير ذاتية.

بدأت أصوات تقترب من آخر الشارع، والناس تتلاحق.

أتفرّج دون أي حركة، وأسترجع الدقائق الأخيرة. الشابّ غائب. كأن شيئًا دمّر حواسّه كلها. الناس تحاول الحديث معه دون أن يقول شيئًا.

فجأة

يركض باتجاه آخر الشارع. يتوقّف، يعود!

أرجع بخطواتي إلى الخلف، لأبتعد قدر الإمكان عنهم، ولأحصل على صورة أوسع، فالتفاصيل تتكاثر، أعداد كبيرة تتوافد، وكأن الليل المتأخّر انقلب إلى ظهيرة.

تصل سيّارة إسعاف.. الكل يركض، تصل حافلتا شرطة. يغلقون الطريق، وينشرون العناصر، ويُبعدون الناس.

الشابّ في مكانه، ينظر إليها، يلمسها، ثمّ يرتجف، يقترب الضابط منه، يمسك يده ويمشي معه إلى سيّارة شرطة صغيرة وصلت بعد الحافلتين. الشابّ يتمتم، لا أسمع ما يقول، كأنني أشاهد فيلمًا صامتًا فيه الكثير من الألوان، هذه أول مرّة أرى فيها جثّة خارج التلفاز والشاشات. أعود بنظري لأتأكد من أنها جثّة حقيقية.

يحملون الجثّة على سرير متحرّك، ويغطّونها، شرطي بلباس مختلف، كأنه يغسل الأرض من دمها.

أقرّر أن أظلّ في مكاني، ولا أخطو أية خطوة، يجب ألا أثير ريبة أحد، يجب أن أتصرّف كما ينبغي لشخص تصادف وجوده في مسرح جريمة.

إن تحرّكتُ، فربّما يلتفتون إليّ، ويلحقون بي. أنا ككل هؤلاء المتوافدين، فضوليّ يلحق أية جلبة.

أنظر إلى ساعة الهاتف، كيف مضى هذا الوقت كله؟!

هل أتّصل بأبي وليم؟ ماذا أفعل؟

هل أنا خائف؟ ولماذا أخاف؟

هل أعود إلى المطعم وأنتظر الصباح؟

أمشي باتجاه السَّكَن، لو أنني أستطيع الدخول إلى ما سجّلتْه كاميرا المراقبة عند المدخل، لعدتُ إلى المطعم لمشاهدة ما حصل بالضبط.

وجه الشابّ ثابت أمام عيني، لم أر وجهًا بتلك الحال، كأنه غير قادر على التعبير، ليس فيه شيء، كأن كل الأشياء التي شعر بها جمّدتْه، فصار وجهه خاليًا من أي شيء.

لماذا تُقتل فتاة مثلها؟

هل ستعود الشرطة لتصادر تسجيلات الكاميرا؟

هل كان عليّ الاتّصال بأحد؟

يجب أن أذهب باكرًا للمطعم للتأكد من أن الأمور تسير بطريقة صحيحة.

أشعر بثقة غير مألوفة، بثقة الشاهد الوحيد على حَدَث خطير.

أتذكّر صراخه، لم أسمعه قبل لحظات، ولكنه الآن واضح!

صراخه يسيطر عليّ. من أين خرج ذاك الصوت كله؟

لا يستطيع إنسان بإرادته إصدار صوت من هذا النوع!

يتقلّص جلد يدي ووجهي، أشعر بالبرد، أرتجف مع كل لحظة يتردّد في رأسي صوته.

لم يكن صوت حيوان حتّى! مزيج من احتكاك لوح حديدي فوق آخر داخل نفق، مع عواء وحش كبير..

أصل البيت، فتتبدّد الثقة، يحلّ محلّها الخوف والترقّب. لا أنام.

الشمس تطلع. أعدّ قهوة، وأجلس منتظرًا تقدّم الوقت لأعود للمطعم. أفتح فيسبوك لأرى إن كانت صفحات الأخبار تتحدّث عمّا حصل. لا أجد شيئًا، بالتأكيد لم تصل الأخبار بعد.

يرنّ هاتفي. أبو وليم يطلب مني الحضور سريعًا للمطعم.

خوفي يتزايد.

أركب بتاكسي من مكتب التاكسيات القريب، وأمضي إلى المطعم.

سبقتني الشرطة إليه، كانوا في المطعم يتحدّثون معه".

٢٠ تشرين ثاني ٢٠١٢

أعلنت الشرطة مقتل المواطنة ر. س البالغة من العمر ٢٩ سنة إثر طعنها في ساعة مبكّرة من فجر اليوم في شارع فرعي في حي الماسيون في مدينة رام الله، ولا تزال التحقيقات جارية لكشف ملابسات الحادث، ولم تُعلن الشرطة عن اعتقال أيّ مشتبه بهم في الجريمة

الناطق باسم الشرطة

(٣)

- سيد وسام، هل يمكنكَ مساعدتنا في الحصول على تفاصيل ما جرى قبل ساعات؟ هل يمكننا بدء الحديث؟

- نعم..

- أخبرنا أولًا ما علاقتكَ بها؟

- نحن معًا..

- حسب المعلومات المتوفّرة لدينا، فإن عائلتها خارج البلاد، وليس لدينا طريقة للاتّصال بأقارب لها، هل يمكنكَ مساعدتنا في هذا الجانب؟

- صحيح، جاءت من غزّة للدراسة هنا قبل ستّ سنوات أو أكثر، هاجر أهلها من غزّة بعد الحرب الأخيرة إلى السويد، فظلّت هنا.

- سنتحدّث في هذه التفاصيل أكثر، ولكنْ؛ الآن هل لديكَ اتّصال بعائلتها؟

- لا، حتّى هي لم تكن تتواصل معهم.

- هل لديكَ فكرة عن السبب؟

- لأنها رفضت العودة لغزّة، ورفضت الهجرة معهم.

- هل تزورها عادة في بيتها؟

- نعم، ولكننا نلتقي عادة في شقّتي؛ لأنها أكبر. شقّتها صغيرة جدًا.

- سيدي، هل يمكنكَ أن تخبرني بالتفصيل بما جرى منذ التقيتُما ليلة أمس؟

- التقينا كالعادة في المطعم، وخرجنا عند الثانية فجرًا، وعند الباب الخلفي، عدتُ لأتفقّد هاتفي، فسمعتُ ضربة، صوت ضربة قوية. نظرتُ خلفي، فوجدتُها على الأرض والدم يسيل من صدرها، ومَن طعنها كان يجري صوب الشارع والسّكّين بيده.

- هل هنالك ملامح مميّزة للفاعل؟

- أقصر مني قليلاً، ولم أر منه أي شيء، كان يلبس سترة سوداء وبنطال جينز.. لستُ متأكدًا من تفاصيل أخرى، ولكنني أتذكّر حجمه أو شكل جسمه.

- هل رأيتَ السّكّين في يده وهو يهرب؟

- نعم، كانت واضحة. ولمعت أكثر من مرّة.

- ماذا فعلتَ بعد ذلك؟

- لا شيء.

- ألم تحاول اللحاق به؟

- حاولتُ.

- هل شاهدتَ أي أشخاص أو حركة في المكان؟

- لا. كان الزقاق خاليًّا والشارع أيضًا. لم يكن هنالك أحد... لا أدري متى بدأ الناس بالوصول؛

- هل طلبتَ المساعدة أو النجدة من أحد؟

- لا.

- هل لديكَ أية شكوك في أي كان؟

- لا أدري.

- هل كانت هنالك أية إشارات أو أمور غريبة لفتتْ انتباهكَ في سلوكها في الفترة الأخيرة؟

- لا.. لا أظنّ. أظنّها كانت تبكي قبل أن يهاجمها..

- كانت تبكي؟

- لا أدري.

- لم يسرق منها شيئًا؟

- لا، لا. طعنها، وهرب.

- لماذا برأيكَ قد يطعنها أحدهم، ويهرب بهذه الطريقة؟

- لا أدري..

- سنتابع التحقيقات، ولضرورات إتمام تدقيقنا في كل المعلومات والبيانات ستبقى لدينا هنا اليوم، بل نريد منكَ بعض المعلومات التي ستساعدنا، وسنرسل وحدة لتفتيش شقّتها وشقّتكَ.

- نعم، سأعطيكم مفتاح شقّتي وشقّتها، معي المفتاحان.

- إن احتجتَ لأي شيء، فسيكون الكثير من العناصر حولكَ، ستبقى هنا في مكتبي، وبإمكانكَ الاستلقاء على الكنبة. وسنعدّ ملفًا تفصيليًّا عن بياناتها الشخصية، ونُطلعكَ عليه للتأكد من بعض التفاصيل...

- ماذا ستفعلون بها؟

- بمَن؟

- ...

- عفوًا، سنحاول الاتّصال بعائلتها..

- أنا عائلتها..

- نحن مضطرّون لاتخاذ الإجراءات الروتينية، ولحين اتّضاح كل التفاصيل، ستظلّ في مشرحة المستشفى الحكومي.

- هل تمكنني رؤيتها؟

- سأتأكد من الأمر، وأخبرك.

- ...

- لديّ سؤال أخير، سيدي، هل تستطيع تقدير الوقت بين طعنها واختفاء الجاني؟

لم يجبْ على هذه السؤال بسلاسة إجابته على الأسئلة السابقة، كان يحاول التماسك وإظهار قليل من الحزم والثقة، ولكن السؤال لم يكن إلا طعنة دقيقة وُجّهت لرأسه. انحنى في كرسيه، ونظر إلى الأرض، تحديدًا في المسافة بين أرجل الطاولة الخشبية، وظلّ يراوح ببصره بين كل رجلين، كأنه يقيس مسافة ما. ظلّ بصره يمضي ويجيء بين كل نقطتين على الأرض حتّى قاطعه المحقّق:

- سيد وسام، سنكون مضطرين لإعادة تمثيل الجريمة؛ لترشدنا إلى الكيفية التي حصلتْ بها...

- آها.. نعم... ربّما خمس دقائق.

يهزّ المحقّق رأسه، وكأن العبارة كانت دون معنى، ويظلّ وسام هامدًا في مقعده، يكرّر في رأسه "خمس دقائق"، تلك الدقائق الخمس غير الدقيقة ولا الأكيدة ستغدو منذ تلك اللحظة مداره الأبدي، ظلّ يفكّر بالسؤال وبإجابته غافلاً عمّا يدور حوله، ولم ينتبه إلى وضعهم كوب قهوة كبيرًا أمامه ذهبت

كل حرارته. انتهى به التوهان أمام المشفى الحكومي والضابط يقوده نحو المشرحة، ويعرّفه إلى رجل بدين أصلع ضاحك برداء أبيض ملطّخ ببقع بنيّة اللون، يمكن استنتاج أنها كانت دمًا قبل أيّام.

اندفع طبيب التشريح يرحّب به، ويُدخله إلى المشرحة.

"تفضّل، تفضّل، أهلاً بك، البقية بحياتكَ، دعني أجب عن أسئلتكَ، وقبل ذلك سأخبركَ بتقريري الأوليّ، ولعلمكَ، فإنني ومنذ أكثر من عشرين سنة لا أخطئ في تقاريري الأولية، يعني هم يأتون إليّ بالجثث، ويطلبون تقريرًا، ويذهبون لاستكمال تحقيقاتهم، وبعد أن يجمعوا كل ما مكّنتهم مهارتهم وآلاتهم من التقاطه وتجميعه، يطلبون مني تقريرًا نهائيًّا في ضوء ما قدّموه لي من معلومات وتقارير. هم يظنّون أنني بحاجة لجهودهم ومعلوماتهم. يتركون المنتسبين حديثًا للشرطة ليكتبوا لي تقارير تساعدني، بالتأكيد أنت لا ترغب بقراءة أي من تقاريرهم، حتّى لغتهم مخزية كأنهم أطفال تعلّموا الكتابة حديثًا. لا يعلمون أنني منذ أكثر من عشرين عامًا لستُ في حاجة لهم. هذه مهنة مهمّة، ونادرون جدًا مَن يتقنونها، تحتاج لذكاء نادر وصبر وثقة وقوّة، وقبل كل شيء تحتاج لتدريب.

هل تعلم أن أفضل تدريب هو التدريب الذاتي، في شبابي كنتُ أخدّر أجزاء من جسدي موضعيًّا، وأبدأ بتشريحها لألقي نظرة عليها، وأعيد إغلاقها مرّة أخرى، هكذا تدرّبتُ، وفي أحيان كثيرة كنتُ أدفع لمسؤولي الشرطة ليسمحوا لي بالدخول إلى هنا في سنوات الشباب، وأظلّ طوال الليل أفحص الجثث، طبعًا لم يكونوا يسمحون لي بالاقتراب إلا من جثث المشرّدين ومَن لا أهل لهم. يمكنكَ القول إن كل مشرّد مات في المدينة ساهم في زيادة خبرتي".

ضحك كأنه قال نكتة النكت! يقهقه حتّى يسيل لعابه، فيدير ظهره، ويمسح ما انفلت من فمه، ويحاول ترتيب قميصه، ويدسّه في بنطاله. لا

كل حرارته. انتهى به التوهان أمام المشفى الحكومي والضابط يقوده نحو المشرحة، ويعرّفه إلى رجل بدين أصلع ضاحك برداء أبيض ملطّخ ببقع بنيّة اللون، يمكن استنتاج أنها كانت دمًا قبل أيّام.

اندفع طبيب التشريح يرحّب به، ويُدخله إلى المشرحة.

"تفضّل، تفضّل، أهلاً بك، البقية بحياتكَ، دعني أجب عن أسئلتكَ، وقبل ذلك سأخبركَ بتقريري الأوليّ، ولعلمكَ، فإنني ومنذ أكثر من عشرين سنة لا أخطئ في تقاريري الأولية، يعني هم يأتون إليّ بالجثث، ويطلبون تقريرًا، ويذهبون لاستكمال تحقيقاتهم، وبعد أن يجمعوا كل ما مكّنتهم مهارتهم وآلاتهم من التقاطه وتجميعه، يطلبون مني تقريرًا نهائيًا في ضوء ما قدّموه لي من معلومات وتقارير. هم يظنّون أنني بحاجة لجهودهم ومعلوماتهم. يتركون المنتسبين حديثًا للشرطة ليكتبوا لي تقارير تساعدني، بالتأكيد أنت لا ترغب بقراءة أي من تقاريرهم، حتّى لغتهم مخزية كأنهم أطفال تعلّموا الكتابة حديثًا. لا يعلمون أنني منذ أكثر من عشرين عامًا لستُ في حاجة لهم. هذه مهنة مهمّة، ونادرون جدًا مَن يتقنونها، تحتاج لذكاء نادر وصبر وثقة وقوّة، وقبل كل شيء تحتاج لتدريب.

هل تعلم أن أفضل تدريب هو التدريب الذاتي، في شبابي كنتُ أخدّر أجزاء من جسدي موضعيًّا، وأبدأ بتشريحها لألقي نظرة عليها، وأعيد إغلاقها مرّة أخرى، هكذا تدرّبتُ، وفي أحيان كثيرة كنتُ أدفع لمسؤولي الشرطة ليسمحوا لي بالدخول إلى هنا في سنوات الشباب، وأظلّ طوال الليل أفحص الجثث، طبعًا لم يكونوا يسمحون لي بالاقتراب إلا من جثث المشرّدين ومَن لا أهل لهم. يمكنكَ القول إن كل مشرّد مات في المدينة ساهم في زيادة خبرتي".

ضحك كأنه قال نكتة النكت! يقهقه حتّى يسيل لعابه، فيدير ظهره، ويمسح ما انفلت من فمه، ويحاول ترتيب قميصه، ويدسّه في بنطاله. لا

يرتدي أيّ زيّ مميّز أو لباس عمل، مجرّد رداء أبيض بالكاد يغطّي ظهره، لا يلبس قفّازات، ولا كمامة، عادي كأنه يعمل في متجر لبيع الخضار والفاكهة.

"هل تعلم من الأفضل أن أشرح لكَ التقرير بالاستعانة بالجثّة، ما رأيكَ؟"

ظلّ وسام صامتًا يراقب شبه الآدمي الواقف أمامه ممسكًا بمشرط دقيق، وبياض يديه السمينتين الخاليتين من أيّ شعرة، يشي بأنه ينقعهنّ في سوائل غريبة، أو أنه لا يغادر هذه القاعة الباردة، ولا يبرحها، فلا ترى يداه الشمس.

"لا داعي، أخبرني بما لديكَ سريعًا، الضابط ينتظرني".

تبدو على الأصلع ملامح ضيق، وتختفي الإثارة من وجهه وحركة بدنه:

" لا بأس، كما تريد... ببساطة، السّكّين اخترقت صدرها، وكسرت ضلعين، وأحدثتْ جرحًا في عضلة القلب، هذا طبعًا نتيجة الطعنة المباشرة. وعند سحب السّكّين، انفجرت الشرايين والأوردة المغذّية للقلب والخارجة منه، وانشطر جزء من الرئة اليسرى، وخارجيًّا انشقّ الثدي الأيسر. طول السّكّين يتجاوز الخمسة والعشرين سنتيمترًا، وعرضها في أعرض نقطة بحدود ستة سنتميترات. هلا اقتربتَ قليلًا؛ لأبيّن لك كيف طعنها، أخبروني أنكَ لم تر لحظة الطعن".

اقترب منه، فوقف بمحاذاته، كتف وسام الأيسر يكاد يلاصق الكتف الأيمن للمشرّح الذي بدأ بالشرح:

" جيد جيد، يبدو أنه سار بمحاذاتها، وحين وصل إلى هذا الموضع تحديدًا، رفع سكّينه، ووجّه لصدرها طعنة خلفيّة هكذا..."

مدّ يده أمامه، والمشرط فيها وشفرته باتجاه خارج كفّه، ثمّ حرّكها نحو الجهة اليمنى حتّى كاد المشرط يلامس صدر وسام. أعاد تكرار الحركة، وهو يشرح:

- هل أدركتَ كيف تمّ الأمر؟ ولأنه سحب السّكّين سريعًا، انفجرت الأوردة والشرايين، وتفاقم النزيف، وتوفّيت.. المسكينة.

- هل تقصد أنه كان يمكنني مساعدتها؟

ارتبك المشرّح، وبدأت تظهر على وجهه ملامح إنسان:

- ما علاقة هذا بحديثي! لم أقل شيئًا عن إنقاذها.

- ماذا كان يمكنني أن أفعل في تلك اللحظة؟

- لا أدري.

- لو كنتَ مكاني ماذا كنتَ ستفعل؟

- أنا خبير تشريح، ربّما كان يمكنني إيقاف النزيف بطريقة ما، ولكن هذا غير ممكن في حالتكَ.

انبعث الصمت من كل شيء في القاعة الباردة، فقاطعه الشابّ:

- هل تعرف كم المدّة بين الطعنة ومفارقتها الحياة؟

حكّ المشرح جبينه، ونظر إلى الأرض في حيرة:

"خمس دقائق... ربّما".

حرّك وسام رأسه؛ لينظر بعيدًا، فوجد رأس الضابط يطلّ من نافذة زجاجية في باب المشرحة، خرج دون أن ينظر إلى مسؤول المشرحة.

انطلق مع المحقّق في سيّارة الشرطة صوب مكان الجريمة، وبدأ يشعر بدوار شديد، وأحس أن معدته ستُلقي بكل شيء، شعر بالقيء يصل إلى فمه، وهو يبتلعه، ولو طالت الطريق لدقيقتين إضافيتين، لما أفلح في مَنْع نفسه من دَلْق كل ما في بطنه خارجًا.

أحاطت الشرطة بالمكان حتّى بدا مقفرًا، نزل من السيّارة، وعرّفه الضابط بمحقّق جديد مبتسم، قال له:

- نعلم أن هذا يُتعبكَ، ولكننا بحاجة لإعادة تمثيل الكيفية التي جرت بها الأمور حتّى نستوفي متطلّبات التحقيق، وبعدها يمكنكَ العودة إلى حياتكَ.

أية حياة سيعود إليها! ولكنه يجيب:

- بالتأكيد.

- طبعًا لدينا بضع ساعات من الحديث لا بد من إتمامها. تحدّثنا مع عائلتها، ولكنهم لا يستطيعون الدخول للضفة كما قالوا..

انتظر منه الضابط تعليقًا، ولكنه لم يعلّق.. فتابع الضابط طمعًا في أيّ ردّ فعل:

- يعني في حالات كهذه لا يتأخّر الأهل مهما كانت علاقتهم بالميت، ومهما كانت ظروفهم، لم نشعر أنهم حريصون على القدوم...

لم يردّ بشيء. تابع الضابط:

- هل تظنّ أن لهم علاقة بالأمر؟ أنتَ أقرب الناس لها كما تقول، وبالتأكيد تعرف شيئًا..

شعر بالقيء يخرج من فمه، ويسرّعه الحنق، فهو لا يعلم شيئًا بخلاف ما يتوقّع الضابط، وهذا ما يحرق معدته وحلقه..

ولتجنّب خروج القيء والتوتّر قال:

- هل عرفتُم أي شيء جديد عن الفاعل؟

- نحن نتابع تحقيقاتنا، ولا شيء حتّى الآن.

ردّ الضابط بثقة.

كانت دقائق غريبة، بدأت محاولة إعادة تمثيل الحادث، وبالحدّ الأدنى من الطاقة شرح لهم ما جرى، مع فترات شرود طويلة، كادت تدفع المحقّقين للشكّ بما يقول، ولكن خلاصة شهادته الممثّلة كانت مطابقة لكل ما توصّلوا له من خلال تحقيقاتهم التفصيلية. كان يرتجف، ويحاول إظهار حزم غير مطلوب في موقف كهذا، وكرّر تمثيل المشهد عدّة مرّات، وطلب من المحقّق أن يتأكد من الوقت الفاصل بين طعنها واختفاء الجاني.

من أعلى البنايات القريبة كان كثيرون يراقبون. بدا المشهد وكأن أحدهم عالق في صندوق يركض في اتجاهين متضادّين بفعل قوى خارجة عن إرادته.

أخبره المحقّق أنهم سيُعيدون فتح الزقاق أمام المارّة ومستخدميه، وأنه يمكنه الاستراحة قليلًا، وعليه القدوم متى تطلّب الأمر إلى قسم الشرطة لاستيفاء التحقيق، ولضرورات أمنية ستتولّى الشرطة نقله إلى حيث يمكث، وستتولّى دورية مراقبته خلال الأيّام القادمة، حفاظًا على أمنه وسلامته قبل كل شيء، وأعطى المحقّق أوامره للبدء بإزالة الحواجز والمعدّات، وفَتْح الزقاق.

مع لملمة الشرطة لمعدّاتهم، وبدء اقتراب الناس من نهاية الزقاق، بدأ يشعر باضطراب كبير، ولم يقوَ على الوقوف، وبدأ مَن حوله يسمعون نحيبًا خافتًا، كان هذه المرّة مواء طويلًا مع دموع تتكاثر على وجهه، كان يشبه الأطفال حين يدخلون في نوبات بكاء غير مفهومة، ولا محدّدة الأسباب، كان ينوح بأصوات خافتة، لا يقطعها إلا إدخال الهواء بفوضوية إلى فمه.

بالكاد مضت عشر ساعات على الحادثة، كان خلالها غائبًا عن إدراك حقيقة ما جرى، وكان نحيبه ذاك إيذانًا بأنه بدأ يدرك أنها اختفت من حياته، ولن تعود إلى الزقاق، ولن يلتقيا في المطعم، ولن تأكل من طبقه، ولن تدعي عدم انتباهها حين يحكي لها أي شيء لمجرّد الرغبة بتكراره مرّات ومرّات، ولن تخبره قصص الأطفال المزعجين المملّين وأمّهاتهم المهملات، ولن تتعلّق

(٤)
نور

"أجْلَسَ أبو وليم الضابطَ ومساعديه على إحدى الطاولات، وقدّم لهم القهوة وبعض البسكويت. كان واضحًا أنه يشاغلهم حتّى ينجز اتّصالاته مع زبائنه المحترمين في الأمن والسلطة، وما كادوا يُنهون فناجينهم حتّى كانت هواتفهم ترنّ، ويردّون بلهجة مؤدّبة على المتّصلين.

يبتعد الضابط قليلًا عن الطاولة وأبي وليم، يمشي صوب إحدى النوافذ، وهو يعبث بطرف الستارة، ويهزّ رأسه مكرّرًا، مفهوم، أكيد، أكيد، سيدي، لا تقلقوا.

يعود إلينا قائلًا إن لديه أسئلة بسيطة جدًا، وسيغادر الجميع بسرعة. يبدي أبو وليم ترحيبه، ويجلس للإجابة عن الأسئلة طالبًا مني الاقتراب.

يعرّف الضابط إليّ قائلًا إنني مَن كنتُ أمس في البار عند وقوع "الجريمة".

تبدو كلمة "جريمة" غريبة علينا جدًا، وعلى الضابط أيضًا، فاستخدم بدلًا منها "الحادث".

يطلب الضابط هويّتي، فأعطيه، وكعادة كل مَن يرى هويتي يحتاج لبضع نظرات بين صورتي فيها ووجهي، كأن الفرق بين الصورة ووجهي يحتاج لتدقيق كبير، أو لتساؤل حتمي "كيف أصبح مَن في الصورة على هذا الشكل؟" كما قال لي رؤوف مرّة.

يبدأ أسئلته، وأحاول التصرّف بعفوية:

- هل الشابّ والمقتولة من زبائنكم؟

- منذ مدّة يأتيان هنا، بشكل متقطّع، ربّما مرّة كل أسبوعين.

- هل يتأخّران دائمًا؟

- ربّما هذه أكثر مرّاتهما تأخّرًا.

- طيّب.

يصمت الضابط كأنه لا يعرف ماذا يمكن أن يسأل أيضًا، ثمّ يتابع:

- ماذا كانا يطلبان؟

يفاجئني السؤال، فأنظر لأبي وليم، فيهزّ رأسه، ويقطب حاجبيه كأنه يقول لي قل أي شيء.

- ليس هنالك طلب محدّد، كأي زبون.

- أقصد كيف كانت حالهما النَّفْسية والذهنية، هل يشربان كثيرًا؟ خمورًا؟ أو يدخّنان شيئًا؟

- لا أذكر بالضبط، لم يكن في طلباتهما أو في سلوكهما أي شيء غريب.

يتمتم كأن الإجابة لم تُعجبه.

- هل تعرف عنهما أي شيء؟

- لا.

- ولا أية معلومة أو تفصيل؟ هم زبائن، وربّما لاحظتَ أو تعرف أيّ شيء مفيد.

- حضرة الضابط، لا شيء يلفت انتباهي، من الواضح أنهما على علاقة، ربّما علاقة أو حتّى خطوبة أو زواج. لا أركّز كثيرًا في تفاصيل الزبائن الشخصية، وسياسة المطعم لدينا أن نتجنّب العلاقات الشخصية مع الزبائن.

ليس لدينا "سياسة للمطعم"، ولكنني أحاول اختصار الأمر، والتخلّص من أية أسئلة. ولكن الضابط يتابع:

- هل حصل أي شيء لفت انتباهكَ أمس؟ حول المطعم أو في المنطقة؟

- لا، أبدًا.

- أريد منكَ أن تُملي على الشرطي هناك ما حصل منذ لحظة خروجكَ من المبنى حتّى مغادرتكَ المكان، بالتفصيل، كل شيء وكل ملاحظة.

- حاضر.

ينهض الضابط، ويمشي قليلًا مع أبي وليم، وأظلّ أنا والشرطي أروي له ما رأيتُ بالتفصيل، وهو يكتب. لا يسألني شيئًا. أحكي، وهو يكتب بدون أي سؤال.

أنتهي ممّا لديّ، وهو يكتب. لوهلة أفكّر في أهمّيّة أن أقرأ ما كتب، ربّما كتب على لساني ما لم أقله، منظره يوحي بموظّف متسيّب، ولا يأخذ عمله بجدّيّة. وطريقته في النظر إلى وجهي مُريبة.

يُلملم الأوراق، ويأخذها للضابط، وأنا جالس مكاني.

أنهض نحو النافذة، فأجد الضابط يدخّن في الخارج، والشرطي معه يُطلعه على الأوراق. أنظر في المكان بحثًا عن أبي وليم، فلا أجده.

أعود لمراقبة الضابط والعنصر من النافذة، فيدخلان المبنى.

يقترب مني الضابط، ويطلب بعض التوضيحات، أمور متعلّقة بالوقت والمسافات والألوان وعبارات ربّما سمعتُها من الشابّ وأوائل عناصر الشرطة، وبعض التفاصيل الدقيقة المتعلّقة بما قلتُه في الأوراق.

ينتهي من التعديل بالقلم الأحمر الذي يحمله، يضع الأوراق جانبًا، وينظر إليّ مع حركة من شفاهه لم أفهمها. يطلب هاتفي المحمول، أُخرجه من جيبي، فيأخذه من يدي، ويمشي بضع خطوات، وهو يضغط على أزراره، يبحث فيه، ربّما في الرسائل أو قوائم الاتّصال، ليس لديّ في هاتفي شيء أقلق من اطّلاع ضابط عليه، فلا أتوتّر، ولا أقلق. فقط أفكّر في أنه لو صادر

هاتفي، فإنني لن أتمكّن من الاتّصال بأي كان، فذاكرتي لا تحفظ أية أرقام. آه، نعم، رَقْم وحيد لا يزال مستقرًا في ذاكرتي، رَقْم رؤوف، الذي لا أدري إن كان لا يزال يستعمله.

يعود الضابط، ويطلب من الشرطي أن يسجّل رَقْم هاتف يصل لي مباشرة، ويقول لي بلغة أستشعر فيها تهديدًا، إنني مُلزَم بالردّ على الاتّصالات والتواجد لدى الشرطة في حال طلبتْ ذلك.

أعطيهم رَقْم هاتفي. وأجلس على أقرب كرسي.

يخرج أبو وليم من غرفة مكتبه حاملًا الحاسوب، يأخذه منه الشرطي، ويؤكد له الضابط أنهم بمجرّد أخذ تسجيلات الكاميرا سيُعيدون الجهاز، يحرّك أبو وليم يده كأنه يقول إن إعادة الجهاز ليست أمرًا مهمًا.

يخرجان.

يقترب مني أبو وليم، ويقول: "إحنا ما إلنا دخل، هذه إجراءات بسيطة، لا تقلق. ولا تنسَ عملكَ مساء، يجب أن يكون كل شيء طبيعيًا. سيقلّ الزبائن الليلة، ولن تكون مرهقة".

أمشي إلى المخزن، أرتمي على كنبة قديمة، ننام عليها حين يأكلنا التعب، يجتمع عليّ القلق والنعاس والإرهاق ووجع في ركبتي وطنين في أذنيّ.

أستيقظ على ضجيج في الخارج، ولا أتمكّن من تحريك أطرافي ولا النهوض لرؤية ما يجري، يدخل المحاسب، ويقول لي بإثارة هائلة إنهم في الخارج يعيدون تمثيل الجريمة مع صديق المقتولة، وكأنه يدعوني للمشاهدة معه.

أحاول النهوض للحاق به، فتعبر لمعة صداع رأسي وعيني اليسرى، وترمي بي على الكنبة مرّة أخرى، وأغيب".

(٥)
وسام

٢٣ تشرين ثاني ٢٠١٢
جمعيات حقوقية تطالب بوقفة جادّة ضد قتل النساء في الأراضي الفلسطينية

جريدة الحياة

عند السابعة والنصف صباحًا كان وسام ينتظر أن يفرغ الضابط من قراءة ما لديه من مستجدّات التحقيق. هزّ رأسه، وحرّكه بالهواء كمَن يحاول التخلّص من شيء علق به، وقال للضابط بحزم مع عينين حمراوين دامعتين: "متى ستفعلون شيئًا؟"

اعتدل الضابط من خلف مكتبه، وتغيّرت ملامحه، وبدأ يتحدّث بوتيرة متصاعدة: "ألا ترانا نفعل كل شيء ممكن؟! ماذا تريد أكثر؟! وهل تعلم أنكَ سبب في هذا التأخّر، لا أفهم كيف لا تتوفّر لديكَ أيّ معلومة مفيدة عنها...".

عاد الوجع الغريب يضغط على مؤخّرة رأسه. اتّكأ على الحائط خلفه، وضغط بمؤخّرة رأسه عليه، علّ الألم يتراجع.

بدا وكأنه سيسقط. ولكن الدموع أنقذتْه. وقال بهدوء وعينين مغمضتين:

- أرجوكَ.. لا تتّصلوا بي، ولا داعي لوجودي هنا. لم أنم..

نهض الضابط، ووضع يده على كتفه، وقال: سنوصلكَ لبيتكَ.

لم يذهب لشقّته، مضتْ به سيّارة الشرطة إلى بيت عائلته. أبوه وأمّه في حداد على ميّتة، لا يكادون يعرفونها. مدّدتْهُ أمّه على سريرها، وحضّرت له طعامًا. الكل ينتظر كلامه، ولكنه لا يقول شيئًا. وضجر أهله من القصّة كلها يتعاظم.

"احكي خلّينا نساعدك" هكذا اختصر أبوه الأمر. لم يردّ رغم توسّلات أمّه. مَن تخلّى عن مساعدة أبيه المقتدر في ما مضى لماذا سيطلبها الآن؟! كانت تقولها ملامحه لا لسانه.

نام لساعات طوال، وظلّت أمّه تنظر من زاوية الباب لتتأكد من أنه لا يزال يتنفّس. وضعتْ طعامًا قرب السرير، علّ الرائحة توقظه، برد الطعام مرّات ومرّات. غلبها التعب ليلاً، فنامت، واستيقظ.

خرج إلى الصالة، وهناك وجد كوم صُحُف. وضعها أمامه، وجلس يقرأ. خبر طويل بصياغات متشابهة في كل الجرائد عن بيان للشرطة يعرض آخر ما توصّلوا له في التحقيق في ما تسمّيه الجرائد "حادثة القتل". استنتج أن الشرطة تردّ على أقوال جهة أخرى، والمضمون تبريريّ، ويحاول الإمساك بزمام قضية تبدو صعبة. لم يكن في حال تسمح له بالتفكير أكثر.

جال في البيت يبحث عن هاتفه، ولم يجده. بدأ يحاول تذكّر أين وضعه. انفجر قلقه، خاف أن تكون اتّصلت به، وهو لا يجيب.

هذيان عارم، صار مقتنعًا أنها تتّصل في تلك اللحظات، وهاتفه ليس معه.

خرج من البيت، ومضى نحو شقّته بحثًا عن هاتفه.

استيقظتْ أمّه على هاتفها يرنّ، وعنصر شرطة يخبرها أنهم يتابعونه، فلا تقلق. أنهت الاتّصال، وبدأتْ بالقلق الفعلي على ابن، أعفاها من همومه

طوال حياته، وها هو يعود بمأساة لا تفلح لا هي ولا أبوه ولا أحد في إدراك حقيقتها.

في شقّته وجد هاتفه، ولم يجد اتّصالًا منها، هدأ لأنه لم يفوّت اتّصالها، كأنه كان ممكنًا ببساطة. وجد رسائل كثيرة من أصدقاء وصديقات وأرقام غير مسجّلة لديه. عبارات متشابهة، ولكنها حقيقيّة. استيقظ من هذيانه على وقع مفردة "حياتكَ" التي تملأ الرسائل بصيغ وسياقات مختلفة. فكّر أنها المرّة الأولى التي تحيل فيها مفردة "حياتكَ" إلى شيء يخصّه وحده، فحياته كانت دومًا شيئًا لاثنين. منذ شاهدها لأول مرّة قبل أكثر من ستّ سنوات، بل يوم شاهدتْه هي. تذكّر ذاك اليوم الأوضح في حياته.

عرس لصديقه وصديقته، حضره فرحًا بهما على غير عادته مع الأعراس. وتحت إلحاح أصدقاء مشتركين، اندسّ في حلقة الدبكة مع أقلّ من عشرة شبّان، يحاولون ضبط إيقاع أرجلهم وأكتافهم مع غناء شعبي، يهزّ حديقة الفندق؛ حيث العرس.

أزعجه الاضطراب، فخرج من الصفّ، وبدأ ينظّمهم. لم تمض دقيقة إلا والشبّان يهوون على الأرض الخشبية برجل واحدة، ويخترقون الهواء بيدين اثنتين. أعجبه ما فعل، فدار مع الطقس. مغمض العينين يعبّ هواء باردًا، يخبط الأرض بقَدَم قوية، يضحك كل ما أحسّ بقطرة عَرَق جديدة على وجهه، ومع كل نقلة في الإيقاع.

بالنسبة له كانت دقائق من المتعة الخالصة، والفرح بصديقه وصديقته اللذين شكراه بأعينهما على هذه الرقصة البديعة.

أما بالنسبة لها، من زاوية نظرها بعيدًا على الجهة الأخرى من بركة السباحة التي تتوسّط حديقة الفندق؛ فإن قناعة تفشّت في رأسها حتّى غدت مؤكّدة، أنه يمكنها أن تحبّ أحدًا خلال دقائق فقط، خلال جولة دبكة، لم تتجاوز الربع ساعة. ابتسمتْ حتّى بانت أسنانها وهي تراه يعود ليجلس

في مقعده، وضحكت في داخلها؛ لأنها أدركت ما حلّ بها.

بعدّة رسائل قصيرة، كانت صديقة مشتركة تعدها أن تُعرّفها عليه، ولأن أجواء الفرح في ساعته الأخيرة لا تُفوّت، افتعلتْ صديقتهما لقاء عَرَضيًّا، كأيّ سلامات عابرة في عرس غاصّ بالبشر. فكّرتْ، وهي تقترب مع صديقتها من الطاولة؛ حيث يجلس، بماذا ستقول أو تفعل، كان الوقت أقصر بكثير من الوصول لإجابات..

- مرحبا..

- أهلا أهلا.

- حابين نشكرك ع الدبكة..

يضحك ويحكّ ذقنه بباطن يده حرجًا..

تقول:

- ربا.

- أهلا أهلا، تشرّفنا.. وسام.

حلّ صمت قصير، قرّرتْ ربا أنه عدوّها الأهمّ، وتصرّفت على سجيّتها، كما تفعل جميلة واثقة سمراء بملامح حادّة. قالت لصديقتها ضاحكة: خلص، شكرًا، بتقدري تروحي...

ضحكوا ثلاثتهم.

كانت بهذه العبارة تقول كل شيء، وتختصر على نفسها المقدّمات المربكة المليئة بالكذبات الصغيرة وحسابات المتردّدات. ليلتها جلست في الكرسي الفارغ إلى جانبه مَن ستشغل كل المقاعد بجانبه خلال سنوات قادمة.

ابتسم وهو يتذكّر. ابتسم وبكى كما سيظل يفعل منذ سقوطها على الإسفلت، كأن الضحك والبكاء شيء واحد. تذكّر سؤاله لها بعد حين من أين جاءتْها كل تلك الثقة في أنه متوفّر، وغير مرتبط؛ لتُقدم على فعلتها. وكانت لديها إجابتان واحدة عملية وأخرى لعوب. الأولى أن لا شيء فيه يقول إنه مرتبط، في عرس وحده، وبأصابع شاغرة، ونظراتِ مَن يعرفنه من الحاضرات. أما اللعوب؛ فهي أن أي فتاة عاقلة ما كانت لتسمح لحبيبها بتقديم عرض كهذا أمام تلك العيون كلها. ضحك كما يضحك دومًا للكذب الأبيض الذي يسمّيه الناس غزلًا.

إلا أن الحسرة خنقتْه. حلّتْ صورتها مُلقاة على الشارع. الصورة الأكثر وضوحًا.

غسل وجهه، وبلّل رأسه، وقرّر أنه بحاجة لتركيزه وقواه لمعرفة ماذا جرى، لخَنْق ثعابين الأسئلة التي بدأت تتزاوج في مؤخّرة رأسه، وتفقس فيه وجعًا لا يُطاق.

حاول تحديد الأسئلة حتّى يعرف ما يفعل.

هل كان لديها ما تُخفيه عنه؟ مَن الذي يمكن أن يكون مَعنيًّا بقَتْلها؟ أو ربّما الاعتداء عليها فقط؟ هل حصل خطأ ما؟ ربّما كانوا يريدون شخصًا آخر؟ ربّما الفاعل مجنون! مهووس! ربّما كان سيسرقها، ولكنْ؛ لاحظه وهرب؟ ومنذ متى تحصل جرائم سرقة من هذا النوع هنا؟ وهل يغامر سارق مجنون بقَتْل إنسان للحصول على ما في جيبه من مال، لا يعرف قيمته! وأين؟ في رام الله! هل هناك مَن يصفّي حسابًا من خلالها؟ هل أهلها متورّطون؟ هل كانت تحبّ أحدًا من قبل، ولم يفلح في استعادتها، فقتلها؟ هل كانت علاقتهما هي السبب؟

كل سؤال يصطدم بالثاني، فيعطبه، ويصبح بلا معنى. كلها أسئلة متّصلة بالماضي، بشيء لا علاقة له باستعادتها. كلها أسئلة يجب أن تكون في

تحقيق الشرطة، لا في رأسه مع الثعابين. كلها أشياء لا يمكنه العثور على إجابات شافية لها. كلها بنت خوفه وقلقه وفضوله. أما المأساة، أما الحزن والألم؛ فلا علاقة لها بكل هذا. كلها متّصلة بسؤال محدّد، يبدو أمام عينيه مختلفًا: "ماذا كان عليّ أن أفعل؟ أنْ أحاول إنقاذها؟ أم ألحق بالقاتل؟".

ظل حتّى الصباح يسير في مسارات من الأفكار تنتهي عند هذا السؤال. يقتنع أنه سؤاله الخاصّ، سؤاله الأهمّ، وفوق ذلك كله، هو سؤال اليوم، سؤال بعد أن رحلتْ، ولم يعد فعل شيء ممكنًا.

قرّر العودة إلى الزقاق، ليفكّر، ليفعل أي شيء بدلًا من البقاء في شقّة، كل ما فيها يتكالب عليه، كأن الأشياء التي كانت لهما تتّهمه بما حدث، وترسل بغضًا وكآبة تجاهه، أدوات المطبخ والتلفاز والأبواب والسرير ورفّا الكُتُب، ومعطفان لها خلف باب غرفة النوم. كل ما في البيت لهما يهاجمه.

(٦)
وسام

٢٨ تشرين ثاني ٢٠١٢
الشرطــة تمشّــط أوكارًا لســارقي
الســيارات ومهرّبــي المخــدرات قــرب
رام اللــه

بيان صحفي
لدائرة العلاقات العامة في الشرطة

قضى كل صباح منذ الحادثة في الزقاق، يمشي في المسافة بين موضع سقوطها حتّى آخر نقطة وصلها، وهو يجري ويرجع خلف القاتل.

كان يفكّر أول الأمر، ثمّ غدا مجرّد مشي دون أي هدف واضح. كأن قوى عقله نضبتْ.

وظلّ الشارع وجهة صحفيين وصحفيات وأناس يتحدّثون عن الجريمة، ويأتون إلى مكان تنفيذها للمُعاينة والمشاهدة رغم أن المكان لم يتغيّر فيه شيء. بقعة الدم كانت الإضافة الوحيدة في تلك الليلة، وغُسلت بعد ساعات، واختفتْ. كان كل شيء طبيعيًّا أمام المتفرّجين الكُثُر.

أفلحت الشرطة في شيء واحد، أن يُبعدوا الصحافة والناس عنه، فلم يتسرّب شيء عن علاقته بالضحية، وظلّ مجهولًا للناس الذين انشغلوا بها، إلا أصدقاء قليلين يعرفون، وهؤلاء كانوا أحرص على خصوصيّته من الشرطة، وما كانوا ليُورّطوه بالإشارة إليه.

بالنسبة لأهل المدينة كانت المقتولة صورة فتاة جميلة ملأت الصحف والمواقع الإخبارية وفيسبوك، والمعلومات الشحيحة عنها تجعل الانشغال بالقضية مثيرًا. ليست أي ضحية عابرة، بل صندوق قصص من نوع مختلف وغير مألوف. ضحكتها في الصورة المنشورة لها في كل مكان كانت دعوة هائلة للفضول.

شُحّ المعلومات كان وقود الأكاذيب والتنبؤات، وفي بلد قتلها التكرار، صارت الجريمة حديث الجميع، ولكلٍّ تحليله، انشغل الناس عن كل شيء بالجريمة، وصار الكل محقّقين ومصادر مُطّلعة. كان يمكن وضع عنوان كبير على مدخل المدينة يقول إن المدينة مشغولة، مشغولة بالجريمة.

وفي أطراف المشهد يحلم صحفيون شباب ومبتدئون بخبطتهم الصحفية الكبرى، يحلمون بسبق صحفي في بلد لا جديد فيها. وهؤلاء أنهكوا الشرطة والناس والمحيطين بلوتس وجميع مَن يبدو وكأنه قريب من الحادثة بالأسئلة ومحاولات الاستمالة والاقتراب واختلاس أية معلومة. وكلٌّ يجذب الأمر لمساحته، مَن يحذّر من القاتل الطليق، ومَن يلمّح لانتشار العصابات، ومَن يغمز بضعف الشرطة وقدراتها، ومَن يحذّر من دور للاحتلال. وبلغ التهويل مبالغ غريبة، قيل إنها عصابة غامضة تقتل الجميلات، وقيل إنهم أهلها قتلوها انتصارًا لشرف أهدرتْه، وقيل إنها أحبّتْ شابًا من غير دينها، فقُتلتْ، وقيل إن عائلتها متورّطة في قَتْل قديم، وحان الثأر، وقيل إنهم متطرّفون، وقيل إنها متورّطة في سوء كبير، أفضى بها إلى القتل. صارت الجريمة مهبط هواجس الناس وخوفهم وعللهم وتخرّصاتهم، والمقتولة مادّة ثرية، تلوكها الألسن السابحة بلعاب كثير. كان التأكد من زيف كثير من هذه الأحاديث والأخبار ممكنًا، ولكن أحدًا لم يكن يريد أن يتأكد.

وتحت الضغط كان محقّقو الشرطة وصغار الضباط يتناوبون على جلسات تقريع من مسؤوليهم الذين يريدون حلًا، يريدون قاتلًا تُلقي الشرطة عليه القبض، ثمّ تلتقط له صورًا كثيرة، تحتلّ الصفحات الأولى والشاشات،

هذا كله ليهدأ الناس، وتستعيد السلطة شيئًا من هيبتها. كانت نهايات اجتماعات الصراخ في مكاتب مسؤولي الأمن تنتهي بعبارة محدّدة: "افعلوا شيئًا، أي شيء.. تصرّفوا، وخلصونا من وجع الراس هذا".

وكلّما ازداد وجع الرأس كانت احتمالات ما قد تفعله الشرطة وقوى الأمن تزيد وتتنوّع، فالملفّ لا بد أن يُغلَق بأي طريقة، والبلد لا تحتمل هذا التوتّر كلّه.

في الزقاق وعلى الشاشات وتحت مسمّى "شاهد عيان" ظهر الكثير من النزقين والمشرّدين والمدّعين، كلهم زعموا أنهم شاهدوا شيئًا على صلة بالجريمة، ومنهم مَن ادّعى أنه يعرف الضحية، ومنهم مَن زعم أنه أول مَن وصل إلى مكان الحادث، كان هؤلاء أكثر من يتلاعب بالناس والصحافة والشرطة.

ووسام في الخلفية البعيدة يراقب، ويحسّ بأن الأمر لم يعد يَعنيه وحده، يشعر بالتهديد من هؤلاء كلهم. يهرب لشقّته، وينطوي؛ ليعيد ترتيب الأمور، ليتملّك ما حدث وحده، ليتأكد أنه صاحب الأمر كله. وأن ما يحرق رأسه هي أسئلته التي لا إجابة لها إلا لديه.

ماذا كان عليه أن يفعل؟ أن يُنقذها، أو يمسك بالقاتل؟

لماذا عجز عن أيٍّ منهما؟ من أين أتى هذا العجز المطبق؟

لو أنه أمسك بالقاتل؛ لعرف كل شيء. سأل نفسه ما قيمة كل شيء إن لم تكن هي موجودة! ما قيمة أي شيء، وهي ميتة.

ربّما عرف شيئًا يُشوّه صورتها في رأسه، ربّما سمع من القاتل كلامًا يُقلّص مأساته، ربّما عرف أنها خدعتْه، خانتْه، تلاعبتْ به، فلن يأسف عليها، ربّما لم يكن إلا شيئًا استعملتْه لفترة، تسترّتْ به عمّن يريدون قَتْلَهَا، ربّما لم تكن له، ربّما فعلتْ ما يستحقّ..

خاف من المسافة التي يمكن أن يقطعها عقله، والاحتمالات التي يقدر

هذا كله ليهدأ الناس، وتستعيد السلطة شيئًا من هيبتها. كانت نهايات اجتماعات الصراخ في مكاتب مسؤولي الأمن تنتهي بعبارة محدّدة: "افعلوا شيئًا، أي شيء.. تصرّفوا، وخلصونا من وجع الراس هذا".

وكلّما ازداد وجع الرأس كانت احتمالات ما قد تفعله الشرطة وقوى الأمن تزيد وتتنوّع، فالملفّ لا بد أن يُغلَق بأي طريقة، والبلد لا تحتمل هذا التوتّر كلّه.

في الزقاق وعلى الشاشات وتحت مسمّى "شاهد عيان" ظهر الكثير من النزقين والمشرّدين والمدّعين، كلهم زعموا أنهم شاهدوا شيئًا على صلة بالجريمة، ومنهم مَن ادّعى أنه يعرف الضحية، ومنهم مَن زعم أنه أول مَن وصل إلى مكان الحادث، كان هؤلاء أكثر من يتلاعب بالناس والصحافة والشرطة.

ووسام في الخلفية البعيدة يراقب، ويحسّ بأن الأمر لم يعد يَعنيه وحده، يشعر بالتهديد من هؤلاء كلهم. يهرب لشقّته، وينطوي؛ ليعيد ترتيب الأمور، ليتملّك ما حدث وحده، ليتأكد أنه صاحب الأمر كله. وأن ما يحرق رأسه هي أسئلته التي لا إجابة لها إلا لديه.

ماذا كان عليه أن يفعل؟ أن يُنقذها، أو يمسك بالقاتل؟

لماذا عجز عن أيّ منهما؟ من أين أتى هذا العجز المطبق؟

لو أنه أمسك بالقاتل؛ لعرف كل شيء. سأل نفسه ما قيمة كل شيء إن لم تكن هي موجودة! ما قيمة أي شيء، وهي ميتة.

ربّما عرف شيئًا يُشوّه صورتها في رأسه، ربّما سمع من القاتل كلامًا يُقلّص مأساته، ربّما عرف أنها خدعتْه، خانتْه، تلاعبتْ به، فلن يأسف عليها، ربّما لم يكن إلا شيئًا استعملتْه لفترة، تسترّتْ به عمّن يريدون قَتْلَهَا، ربّما لم تكن له، ربّما فعلتْ ما يستحقّ..

خاف من المسافة التي يمكن أن يقطعها عقله، والاحتمالات التي يقدر

رفع رأسه، واستدار ليجدها على الأرض مطروحة على ظهرها تنظر نحو السماء، وعلى بعد ثلاث خطوات بدن متدثّر بالسواد يركض مبتعدًا، وبقعة حمراء رآها بوضوح رغم الظلام تتّسع على صدرها، وتتفشّى إلى الإسفلت.

انتفض، وأخرج يديه من جيبه، ورماهما أمامه، ركض نحوها، انخفض قريبًا من وجهها، كانت تلتقط ثلاثة أنفاس دون أن تُطلقها، نظر صوب الهارب على بُعد خمسة أمتار وسكّين لمعت في يده اليمنى. حاول حملها، تركها سريعًا، ركض صوب الهارب، قطع ثلاثة أمتار وتوقّف، نظر إليها، رجع خطوتين، كانت تلتقط نَفَسين دون أن تطلقهما، أمسك رجليها، ثمّ تركهما، نظر إلى الهارب، نهض، وانطلق ليلحق به، أصبح على بُعد متجرين، ركض بكل عزم ممكن، قطع المتجرين، وقطع الهارب خمسة متاجر، التفّ ونظر إليها، رأى وجهها ساكنًا، ركض صوبها، حاول حملها، لم تلتقط أيّ نَفَس، وضع يده على وجهها، على صدرها، على رقبتها، مدّدها، ونظر نحو الهارب ينعطف نحو الشارع في نهاية الزقاق، ركض بكل ما استطاع من اتّساع قدمين، لم يعد يرى الهارب حتّى وصل إلى نهاية الزقاق، توقّف، نظر يمنة ويسرة، كان الهارب على يمينه على بُعد مئة وخمسين مترًا، هَمّ باللحاق به، نظر إليها، كانت بعيدة ملقاة قرب الرصيف كنقطة غائرة داكنة، توقّف، وركض صوبها وهي تكبر وتتّضح في عينيه، ارتمى عليها صرخ ونادى وخضّ جسدها بكلتا يديه، كانت ثقيلة بدون لون، ولا تلتقط أي نَفَس، نهض وركض صوب الشارع في نهاية الزقاق، كان وقع قدميه مدويًّا كأنه يزن طنًا وأكثر، وكان صدى الخطوات يتردّد في جوف الليل، وتتقاذفه البنايات على جانبي الزقاق، ركض بركبتين مهترئتين، ووصل نهاية الزقاق، ونظر على امتداد الشارع من الجهة اليمنى، ولم يجد شيئًا، الشارع خال من أي شيء، لم ير شيئًا، نظر صوبها، ووجدها ملقاة كنقطة سوداء صغيرة جدًا على الإسفلت، ظلّ يقلّب وجهه بين الشارع الفارغ؛ حيث رأى ظهر الهارب منذ لحظات، وصوبها مكوّمة وسط الزقاق، كانت بعيدة جدًا، حاول الركض دون أن يدري إلى أين، رِجل تخطو نحو الشارع الفارغ ورجل تشدّه نحوها، بدأ يرتعش، ولا يفلح في إدخال الهواء إلى صدره، أمسك برقبته، وحاول الصراخ أو مناداة أيّ كان، لم يفلح،

أمسك رأسه بكلتا يديه، وشدّ شعره الطويل، وهو يقلّب وجهه بينها وبين الشارع الفارغ، وحين خطا خطوة باتجاهها مدركًا أن الهارب قد اختفى تمامًا بدأ يصرخ صرخات طويلة.

كان يمكن لأي محقّق شرطة أن يحتجزه كعنصر أهمّ في الجريمة، فهو مَن وجدته الشرطة على بعد عدّة أمتار من الجثّة، وينظر إليها وهو جالس على ركبتيه، ورأسه يتطاول حتّى يراها جيدًا دون أن يقترب أكثر، ولكن عناصر الشرطة والمحقّقين والضباط جميعهم ما كانوا ليفترضوا ولو من باب التحوّط أن يكون ذا يد في الجريمة، نحيبه كان مختلفًا عن كل ما عهدوه في سنواتهم في الخدمة، كانت تشنّجات صوته الطويلة كأنها تخرج من بدنه، من جلده، من جوفه من أحشائه، لم تكن أصواتًا مألوفة أو شبيهة بأيّ من تلك الأصوات التي يسمعها عناصر الشرطة حول الجثث، حتّى عويل الأمّهات على أطفالهنّ في حوادث سير كانت معقولة وقابلة للتصوّر والفَهْم إلا أن الصوت القادم من مكان سحيق داخله كان لا يشبه شيئًا.

ولذلك لم يرد على بال أي من أفراد الشرطة الذين فاقوا الثلاثين في موقع الجريمة أن يكون موضع اتّهام، حتّى أنزقهم سلوكًا وأجفّهم قلبًا لم يفكّروا في الأمر، كل ما فعلوه أنهم تشاوروا على عجل في أفضل طريقة للتعامل معه، وقال أحد المحقّقين، إنه على الأغلب غائب عن الوعي، وإن كانت حواسّه وأطرافه تعمل، واقترح أن يتركوه حتّى ينتهوا من معاينة الجثّة، وحين تنقل في سيّارة المشرحة، يمكن الحديث معه، ودفعه للحركة.

أغلب الظنّ أن الشرطة وصلت بعد اتّصال موظّفين متأخّرين في نوبة عمل ليلية في شركة مطلّة على الزقاق، والساقي في المطعم كأنه غادر دون أن يلحظه أحد. وقالت التقديرات الأولية إنه لم يكن في الزقاق حين وقوع الجريمة إلا الضحية والجاني أو الجناة والشابّ. كانت الحلقة مفتوحة بشكل فادح، والتحقيق معه هو ما سيمكّن ولو بشكل أولي من ردم شيء من المسافة المفتوحة فيها.

(٨)
نور

٦ كانون أول ٢٠١٢

الناطق باسم الشرطة يؤكد اعتقال مشتبه به على ذمّة قضية حادثة قتل الفتاة في رام الله.

ويطلب من المواطنين الامتناع عن ترديد الشائعات وتناقل الأخبار الكاذبة

صفحة الناطق باسم الشرطة على فيسبوك

"هذه الزنزانة، كأنها تحبس أفكاري، كلها متّصلة بما جرى، كيف جعلني هؤلاء أفكّر وأشعر وكأن لي علاقة بما حدث! هذه الغرفة تفرض الأفكار عليّ، وتشعرني أنني متورّط بما جرى، وأن لي صلة به. هنا أواجه ما حاولتُ تجنّبه في الأيّام الماضية، "لا علاقة لي بما جرى" لم تعد ذات معنى، أنا المعتقل الوحيد على خلفية الجريمة..

أكرّر في رأسي كل ما سمعتُه وعرفتُه عن القضية، عن المقتولة وعن حبيبها أو خطيبها وعن الشرطة التي تريد فعل أي شيء يُظهرها بمظهر الاقتراب من حلّ القضية. وأكرّر ما أعرفه عن الإشاعات والصحافة والفضوليين وكل شيء سمعتُه في الأيّام الماضية، لعلّني أجد لنفسي مخرجًا. بدأتُ أخاف فعلًا من أن يقودني صمتي وحاجة هؤلاء لإثبات سيطرتهم على الأمن إلى السجن،

كأنني لستُ فيه!

لا أعرف كيف! ولكنهم قادرون على إبقائي هنا لأسابيع، وربّما أشهر. مَن سيأبه لي أو لحالي، وأنا هنا؟ لا محاميًا ولا أهل ولا أصدقاء ولا أحد، من تمديد إلى تمديد، لا أظنني قادرًا على الاحتمال أكثر. أشعر بفقداني أي قدرة على التركيز والتفكير، أظافري سوداء، لم أرَ وجهي منذ أيّام، أشعر برائحتي النتنة، ملابسي دبقة، ولا أدري كيف أطبق شفتي على أسناني بكل ما عليها من عفن.

عائلتي... أظنّهم مشغولين بي على طريقتهم، يفكّرون بكيفية النجاة ممّا يلحق بابنهم لا إنقاذه، وربّما كانوا أول مَن صدّق، أنا لم أشعر أنني أحدّث أهلي في اتّصالهم الأخير.

هكذا ببساطة صرتُ تكثيف كل الشرّ ومحلّ كل الشكوك والازدراء خلال أيّام، يمكن أن أموت هنا دون أن يعبأ أحد. سيتعاملون معي كخطأ تمّ تصحيحه.

أحاول ترتيب ما جرى واستغلال ما تبقّى في رأسي من طاقة؛ لأفهم كيف أمنعهم من الاستمرار في احتجازي كمُتّهم وحيد بجريمة قتل، تُظهر الكاميرات وشهادة الشابّ أنني بريء منها! أحاول ترتيب ما جرى، لم يزرني محام، ولم يسمحوا لي بتحقيق جدّيّ. لا أفلح في ترتيب شيء إلا الشتائم التي سمعتُها والصفعات والركلات.

"بدي أقطعلكْ زبّكْ، وأريحكْ منّو؛ لأنه ع الفاضي"، "بدّك تقنعني إنّك ما بتعرف شي عن القحاب اللي بعبّوا البار بالليل!"، "إنت بتعرف إنو احنا بنعرف كل حركة عملتْها ومع مين؟"، "بدّي أعرف أسماء، بدّي أعرف من وين بيجوا اللي بشرمطوا عندكْ"، "كل اللي شرمطوا عليكْ اعترفوا، بلاش تكبير راس ع الفاضي، وجاوب، ليش البنت بتيجي عندكم ومين القوّادين اللي مداومين عندكْ؟".

(٨)
نور

٦ كانون أول ٢٠١٢

الناطق باسم الشرطة يؤكد اعتقال مشتبه به على ذمّة قضية حادثة قتل الفتاة في رام الله.

ويطلب من المواطنين الامتناع عن ترديد الشائعات وتناقل الأخبار الكاذبة

صفحة الناطق باسم الشرطة

على فيسبوك

"هذه الزنزانة، كأنها تحبس أفكاري، كلها متّصلة بما جرى، كيف جعلني هؤلاء أفكّر وأشعر وكأن لي علاقة بما حدث! هذه الغرفة تفرض الأفكار عليّ، وتشعرني أنني متورّط بما جرى، وأن لي صلة به. هنا أواجه ما حاولتُ تجنّبه في الأيّام الماضية، "لا علاقة لي بما جرى" لم تعد ذات معنى، أنا المعتقل الوحيد على خلفية الجريمة..

أكرّر في رأسي كل ما سمعتُه وعرفتُه عن القضية، عن المقتولة وعن حبيبها أو خطيبها وعن الشرطة التي تريد فعل أي شيء يُظهرها بمظهر الاقتراب من حلّ القضية. وأكرّر ما أعرفه عن الإشاعات والصحافة والفضوليين وكل شيء سمعتُه في الأيّام الماضية، لعلّني أجد لنفسي مخرجًا. بدأتُ أخاف فعلًا من أن يقودني صمتي وحاجة هؤلاء لإثبات سيطرتهم على الأمن إلى السجن،

كأنني لستُ فيه!

لا أعرف كيف! ولكنهم قادرون على إبقائي هنا لأسابيع، وربّما أشهر. مَن سيأبه لي أو لحالي، وأنا هنا؟ لا محاميًا ولا أهل ولا أصدقاء ولا أحد، من تمديد إلى تمديد، لا أظنني قادرًا على الاحتمال أكثر. أشعر بفقداني أي قدرة على التركيز والتفكير، أظافري سوداء، لم أر وجهي منذ أيّام، أشعر برائحتي النتنة، ملابسي دبقة، ولا أدري كيف أطبق شفتي على أسناني بكل ما عليها من عفن.

عائلتي... أظنّهم مشغولين بي على طريقتهم، يفكّرون بكيفية النجاة ممّا يلحق بابنهم لا إنقاذه، وربّما كانوا أول مَن صدّق، أنا لم أشعر أنني أحدّث أهلي في اتّصالهم الأخير.

هكذا ببساطة صرتُ تكثيف كل الشرّ ومحلّ كل الشكوك والازدراء خلال أيّام، يمكن أن أموت هنا دون أن يعبأ أحد، سيتعاملون معي كخطأ تمّ تصحيحه.

أحاول ترتيب ما جرى واستغلال ما تبقّى في رأسي من طاقة؛ لأفهم كيف أمنعهم من الاستمرار في احتجازي كمُتّهم وحيد بجريمة قتل، تُظهر الكاميرات وشهادة الشابّ أنني بريء منها! أحاول ترتيب ما جرى، لم يزرني محام، ولم يسمحوا لي بتحقيق جدّيّ. لا أفلح في ترتيب شيء إلا الشتائم التي سمعتُها والصفعات والركلات.

"بدي أقطعلكْ زبّكْ، وأريحكْ منّو؛ لأنه ع الفاضي"، "بدّك تقنعني إنّك ما بتعرف شي عن القحاب اللي بعبّوا البار بالليل!"، "إنت بتعرف إنو احنا بنعرف كل حركة عملتْها ومع مين؟"، "بدّي أعرف أسماء، بدّي أعرف من وين بيجوا اللي بشرمطوا عندكْ"، "كل اللي شرمطوا عليكْ اعترفوا، بلاش تكبير راس ع الفاضي، وجاوب، ليش البنت بتيجي عندكم ومين القوّادين اللي مداومين عندكْ؟".

كل كلمة كنتُ أحاول قولها كانت تسحق بأسئلتهم وعباراتهم. لم أفهم إن كانت تلك الجولات هي تحقيق الشرطة أم ماذا، وحين أطلب محاميًا يضحكون. يهرشون أعضاءهم، ويُفخّمون أصواتهم، وأظلّ أشعر أن خراء سيخرج من أفواههم.

"ما بدّك تحكي مع أهلك اللي مش متعرفين عليك؟"، يحاولون استفزازي.

حاولتُ الصراخ أكثر من مرّة، فانتهى الأمر بأحدهم جالسًا على وجهي، يحاول خنقي.

يظلّ يدخل كل حين شخص بلباس مَدَني، يُظهرون له احترامًا، يقول مجموعة جمل مفكّكة، ويخرج. يصرخ في وجهي: "أمثالكْ سبب كل شيء بصير فينا.. خربتوا البلد.. عبّيتوها قرف.. ما بتستحي من حالك.. هاي أرض شهدا وإنتو معبيينها نجاسة.. احكيلي اسم واحد من الجواسيس اللي بيجوا عندكم". ينظر إلى عناصر الشرطة، ويتمّم: "الله رح يسخطنا بسببهم".

أفكّر بردود كثيرة، أبصقها بوجهه، ولكنْ؛ في عقلي فقط، حين أعود لهذه الزنزانة.. أفكّر في شتمه وسؤاله عمّن يتحدّث بالضبط، أفكّر في أن أخبره أن قادته هم الجواسيس، وهم مَن يدنسون أرض الشهدا التي يتحدّث عنها، وهو يساعدهم. أظلّ أخفّف عن نفسي بتخيّلي وأنا أشتمه.. أتخيّلني أركله، أغرز رأس المسدّس في مؤخّرته، وأطلق رصاصة تخرج من عضوه.. أهذي وأخاف وترتفع حرارة بدني، وأخشى أن يفتك بي القهر والضعف.

أنا بالنسبة لهم أقل من حشرة يتسلّون بها. إن استمرّ الأمر على هذه الحال، سأموت هنا، ومَن سيدري بي؟!

هل عليّ أن أعثر على متّهم، وأرمي باسمه؛ لأتخلّص من هذا العذاب؟

يقفز محمود إلى ذهني، يقفز وأنا أحاول التفكير بما جرى بطريقة مختلفة، بافتراض ما لا يخطر على البال من أول مرّة. لماذا يخطر لي محمود؟ لا أدري.

أذكر كيف فاجأني منظره حين واجهتُه يوم بدئه العمل حين عرّفني عليه أبو وليم، وقال إنه عامل النظافة الجديد. نظرتُ إليه مرحّبًا.

لا يمكن أن تمنع عينيكَ من النظر إلى جبينه. رغم أنني حاولتُ. جبين محمود مشقوق، أو مسطوح، بسكّين عرضيًّا. كأن أحدهم حاول فتح جمجمته، أو سار بالسّكّين على تجعيد عرضيّ بعرض جبينه.

الشقّ العرضي بلون زهري، انتبهتُ في ما بعد أن درجته اللونية تتغيّر من وقت لآخر، ربّما تبعًا للحرارة أو تدفّق الدم. أحيانًا يبدو وكأنه أُصيب بهذا الجرح الفريد قبل لحظات.

ابتسمتُ لمحمود، وحاول الابتسام. وفكّرتُ حينها بمشاهد لإصابته تلك. فكّرتُ مرارًا بسؤاله، ولكنني حاولتُ أن أبدو مختلفًا عن بقية الناس، مَن يسألونه عن جرحه الصارخ عند أول حديث معه.

لمّح لي أبو وليم أنه بحاجة لبعض الشبّان "الزعران"، أولئك القادرين على تسوية بعض مشاكله في البلد، وعلى التعامل مع نوعيات مزعجة من الزبائن. ومحمود كان من أولئك، "ابن مخيّم" على حدّ وصف المدير، وكانت الصفة تلك كافية برأيه؛ لأفهم لماذا جلبه للعمل، وما هو دوره.

ليس هنالك أسوأ من العمل في تنظيف دورات المياه في البار، أكثر العاملين توتّرًا هم مَن يعملون في تنظيف الحمّامات، ليس توتّرًا وحسب، بل حساسية تجاه كل شيء، الناس والزبائن والموظّفون وصاحب المطعم وكل شيء. حالة من الحنق المستمرّ الذي لا يبرّده شيء.

لم يبقَ محمود معنا طويلًا، اختفى قبل فترة، وقال أبو وليم إنه لا يريده، بدا وكأن مشكلة حصلت، ولا يريد الحديث عنها.

لم أفكّر بمحمود كثيرًا، إلا في ليالي الخميس حين أُستنزف تمامًا، وأنظر إليه لأخفّف عن نفسي برؤية مَن هو أسوأ حالًا مني. باستثناء وجهه المشوّه

بالشريط الزهري في جبينه، فقد كان شكل محمود يعجبني، قوامه مصقول بالعمل، ولو أمكن استبدال وجهه وملابسه لكان مميّزًا فعلًا. كان يلفت انتباهي حين يلبس ملابسه بعد العمل، ويهمّ بالمغادرة، ولكنه اختفى قبل أن يتراكم اهتمامي به.

هل يمكن أن يكون محمود هو مَن قتل الفتاة؟

يتجسّد السؤال أمامي، وأفكّر فيه، وأتجنّب التفكير بلماذا خطر ببالي، إلى سؤال افتراضي عن لماذا سيقتلها محمود؟ صار مشكوكًا فيه ببساطة، ودون تفسير. ألأنه غادر بطريقة مريبة، وعلى الأغلب بمشكلة؟ إما بسبب إهانته أو حرمانه من بعض حقوقه المالية؟ أم بسبب شجار مع أبي وليم؟ أم خطأ في العمل بالغ أبو وليم في خطورته؟ ربّما قصّر في عمله؟ ربّما أهانه أحد الزبائن، فلم يحتمل؟ ربّما انهار من تنظيف فضلات البشر بعد استمتاعهم الذي لا يحلم به أبدًا؟

في لوتس يرى محمود كل الذين لن يصبح مثلهم مهما تعب واجتهد، يرى أحلامًا، ويقتنع فورًا أنه غير قادر على تحقيقها، يرى كل ما يتمنّاه، ويرى كيف لن يناله. احتجتُ لكثير من الإصرار وتوجيهات رؤوف حتّى أتوقّف عن الأمل بحياة شبيهة بحياة بعض روّاد لوتس.

هل انتقم محمود من لوتس ومن صاحبه ومن كل شيء؟ هل انتقم ممّن كان ينظّف برازهم وبولهم المليء بالكحول وقيأهم بعد نوبات جنون؟

ربّما اختار ضحية عشوائية، وانتقم ببساطة. من لوتس ومن داخله ومن خارجه أيضًا.

بالتأكيد هو خبير بالخناجر والسكاكين والطعن، شخص بجرح عريض في جبهته بالتأكيد هو خبير بأدوات هذه الجروح، أصلًا ربّما جُرح في شجار حادّ، أنا لم أر خصمه في ذاك الشجار، وما حلّ به لأتعاطف مع محمود، ربّما خلّف فيه عاهة.

أتنفّس كثيرًا

أعاتب نفسي، ها أنا أتّهمه لأنه مجروح في جبهته، ولأنه ابن مخيّم.

كما يتّهمني بهائم الشرطة؛ لأنني لست مثلهم، لأنني لا أهرش زبّي، وألعب به حين تمرّ أية امرأة، أو تُذكر سيرتها.

ألوم نفسي طويلًا، ألومها على قسوتها وتقلّبها وتأثّرها بكل القتامة التي تحيط بها. ألوم نفسي على عدّة أيّام في مركز توقيف، جعلتني أشبه مَن يحتجزونني ويَبصقون عليّ كل ما رغبوا.

أبحث عن مقطع من الحائط غير ملوّث بشيء، أو أقلّ تلوّثًا؛ لأسند ظهري إليه، وأهدأ، أخشى النوم، منذ أيّام لا أنام، لا أدري ماذا يمكن أن يفعلوا بي وأنا نائم، فعلوا كل شيء بي وأنا مستيقظ وبكامل قواي، فمَن يدري ماذا يمكنهم أن يفعلوا إن وجدوني نائمًا؟!

أتمنّى لو أنني محتجز مع آخرين، أتسلّى بالحديث معهم، أشعر بأن هنالك آخرين غيري في قبو القذارة هذا.

لا يَعنيني مَن قتلها، ولا يَعنيني محمود.

يجب أن أخرج، بأيّ طريقة.

أهرب للأفكار، وأشمّ الروائح، سجائر وقهوة وقرف.

هل يجري في المطعم نشاط غير طبيعي، ولا أعرف به؟ هل هنالك أسرار لا أعرفها، ورحتُ ضحيّتها؟

هؤلاء يريدون إهانتي، ويريدون بكائي، ويريدون أن أقول لهم ما يودّون سماعه عني وعمّن عرفتُهم، لإشباع فضولهم الممحون، ويودّون إفساد داخلي الذي حاولتُ أنا الضعيف حمايته رغم كل شيء. يمكنهم أن يأخذوا كل شيء، هم وأهلي والناس، إلا داخلي، إلا روحي التي أغسلها بالبكاء عند كل خسارة.

بالشريط الزهري في جبينه، فقد كان شكل محمود يعجبني، قوامه مصقول بالعمل، ولو أمكن استبدال وجهه وملابسه لكان مميّزًا فعلًا. كان يلفت انتباهي حين يلبس ملابسه بعد العمل، ويهمّ بالمغادرة، ولكنه اختفى قبل أن يتراكم اهتمامي به.

هل يمكن أن يكون محمود هو مَن قتل الفتاة؟

يتجسّد السؤال أمامي، وأفكّر فيه، وأتجنّب التفكير بلماذا خطر ببالي، إلى سؤال افتراضي عن لماذا سيقتلها محمود؟ صار مشكوكًا فيه ببساطة، ودون تفسير. ألأنه غادر بطريقة مريبة، وعلى الأغلب بمشكلة؟ إما بسبب إهانته أو حرمانه من بعض حقوقه المالية؟ أم بسبب شجار مع أبي وليم؟ أم خطأ في العمل بالغ أبو وليم في خطورته؟ ربّما قصّر في عمله؟ ربّما أهانه أحد الزبائن، فلم يحتمل؟ ربّما انهار من تنظيف فضلات البشر بعد استمتاعهم الذي لا يحلم به أبدًا؟

في لوتس يرى محمود كل الذين لن يصبح مثلهم مهما تعب واجتهد، يرى أحلامًا، ويقتنع فورًا أنه غير قادر على تحقيقها، يرى كل ما يتمنّاه، ويرى كيف لن يناله. احتجتُ لكثير من الإصرار وتوجيهات رؤوف حتّى أتوقّف عن الأمل بحياة شبيهة بحياة بعض روّاد لوتس.

هل انتقم محمود من لوتس ومن صاحبه ومن كل شيء؟ هل انتقم ممّن كان ينظّف برازهم وبولهم المليء بالكحول وقيأهم بعد نوبات جنون؟

ربّما اختار ضحية عشوائية، وانتقم ببساطة. من لوتس ومن داخله ومن خارجه أيضًا.

بالتأكيد هو خبير بالخناجر والسكاكين والطعن، شخص بجرح عريض في جبهته بالتأكيد هو خبير بأدوات هذه الجروح، أصلًا ربّما جُرح في شجار حادّ، أنا لم أرَ خصمه في ذاك الشجار، وما حلّ به لأتعاطف مع محمود، ربّما خلّف فيه عاهة.

الشكّ يُفسد عقلي. يجب أن أخرج.

رائحتي تقتلني.

أريد أن أبكي، أن أصرخ، أن أسبّ أي شيء. أخاف من الجنون إن طال بي الأمر هنا.

كلهم حيوانات، أنا لم أعرف في حياتي إلا حيوانات.

لا أملك أي سيطرة على أفكاري، أنفاسي تتلاحق، وصوت طَرْق آت من الأعلى يزيد من تشنّج عضلات معدتي.

كيف يمكن أن أحسم إن كنتُ في حال طبيعية؟ أم لا؟ وأنا لا أرى إلا نفسي، منذ أشهر طويلة لا أرى إلا نفسي، لا يمكنني أن أقول إنني جبان، ممحون، ضعيف، مضطرب، أو عكسها تمامًا، إن كنتُ لا أرى إلا نفسي؟

ومَن هم حولي ومَن كانوا حولي، لم يكونوا يصلحون؛ ليكونوا مرايا، أرى فيها نفسي وأحكم، أو على الأقلّ، أهتدي إلى تلك "الصفات" الأسلم إلحاقها بنفسي.

مَن هم حولي ومَن كانوا حولي ظلّوا في عينيّ من طينة أخرى غير طينتي، أنا بحاجة لآخرين، يمكنني أن أرى نفسي بينهم، يصلحون؛ ليكونوا مرايا. ثمّ أتمكّن بوجودهم من قياس موقعي إليهم.

كانت هذه حاجتي، منذ سنوات، أن أبحث عن مرايا ملائمة.

بدأتُ أنزاح رويدًا رويدًا، ويتبدّل الناس حولي شيئًا فشيئًا، الأماكن والوجوه واللغة والإيماءات. كان ما حولي يتبدّل ببطء، هل كان يتبدّل وحده؟

هل كنتُ أتبدّل، فيتبدّل ما حولي؟ أم كان ما حولي يتبدّل، فأتبدّل؟

أول الأمر كان السؤال ملحًا وحاضرًا، مع الوقت صرتُ أتبدّل ويتبدّل ما حولي دون أسئلة وتفكير، كأنها الحياة، كأنه ما يحدث للجميع.

في اللحظات التي كنتُ أُقنع نفسي فيها أن هذا ما يحدث للجميع، كنتُ أصطدم فجأة بمَن لم يتبدّلوا. بمَن ظلّوا كما كانوا. كأن الزمن توقّف بهم تمامًا عند نقطة معيّنة، أو أنهم أوقفوه عند تلك النقطة تحديدًا.

لماذا أشعر بأنني ومَن حولي اليوم غدونا نعرف ما يجري؟ لماذا أتغيّر أنا ومَن حولي كل يوم، ولكن الجميع ما يزالون كما هم، بل إنهم يتمسّكون بما هم عليه بعنف لا أفهمه. عنف يكاد يفتك بي.

"إحنا مش الناس"، هذه قناعات رؤوف التي زرعها في عقلي.

"مهما تبدّلت الظروف وتبدّلنا يجب أن نظلّ مدركين أن هذا يخصّنا نحن فقط، ولا يمكننا التعامل معه كشيء يخصّ الجميع".

أفكّر برؤوف تفكيرًا خاليًا من أيّ عاطفة... كس أخته.

أسأل نفسي هل كانت أفكاره هذه ناتجة عن فَهْم؟ أم جُبن؟ هل كان يعرف؟ أم كان جبانًا؟

رؤوف الفهمان جبان، منفصم بألف وجه، لم يواجه يومًا، أما أنا؛ ففي مواجهة كل يوم.

مَن كان يتخيّل ذلك!

رؤوف المكتمل المكتفي بكل شيء وعن كل شيء، الذي لم يرفع بوجهه أي كان يدًا ولا كلامًا، ولم يهمس في إثره، ولم يشر إليه، يهادن ويستسلم. أما أنا الخرقة البالية، ممسحة انفعالات الآخرين ونزواتهم وتصوّراتهم؛ أختار المواجهة أو أستسلم لحصولها، ولا أتراجع؟

هل كان هذا خيار رؤوف؟ وهل ما أنا فيه خياري؟

طَرْق هائل على الباب الحديدي، ينادي أحدهم: "يلا اطلع".

لا يتحدّثون معي، ولا ينظرون إليّ، ولا حتّى ينطقون اسمي، كأنني حامل

لمرض مُعد ينتقل بالكلام أو النظر.

أمشي خلفه إلى الطابق الثاني. كل شيء في هذا البناء دبق ومقرف، كأنهم لم ينظّفوه يومًا. سوائل متيبّسة على الجدران وكل درجات اللون الأسود على الأرض وعلى كل شيء.

وأعقاب سجائر في كل مكان. كل خزق بالجدران دحشوا فيه عقب سيجارة.

بصاق، بلغم، في كل مكان.

ماذا يفعلون هنا سوى البصق والقرف؟

أحاول ألا أنظر في وجه أحد، حتّى لا يرصدوا نظرة القرف التي تملأ عينيّ. في الحقيقة نحن نتبادل القرف، هم ينظرون إليّ كأنهم ينظرون لشيء مقرف، وأنا لا أرى هنا إلا القرف.

لو يأخذ خيالي المتعب استراحة فقط، ويتوقّف عن تخيّل سيل المشاهد، كيف تقترب منهم نساؤهم؟ كيف يعاشرونهنّ، إن كان الظاهر منهم بكل هذا القبح، فكيف الباطن؟ ما تحت الثياب؟ مَن يحتمل رائحة عَرَقهم؟ هل هنالك ما هو أقبح من شعر أجسادهم في مواضعهم العفنة؟

يجب أن أتوقّف عن التفكير بهم، يجب أن أخرج بأية طريقة.

أقف عند باب غرفة دخلها العسكري، ثوان، ثمّ ينادي عليّ، أدخل.

يخرج العسكري، وأقف أمام طاولة الضابط.

ينادي على العسكري، ويطلب منه إغلاق الباب. لم أقلق. لا أخاف من هذه الألاعيب. لستُ ضعيفًا.

يبدأ بالطَّرق على الطاولة مرّات ومرّات. دون حديث. أظلّ واقفًا، ولا يطلب مني الجلوس.

يقول بلغة تهديد: "لولا كفالة صحابكْ، كان بهدلتَكْ هون. إنت لازمكْ إعادة تأهيل. ابعدْ عن كل اللي حواليكْ، ما في حدا يحميكْ، لو وقعت كمان مرّة.

روح اتعالج.

انصرف".

عند باب مركز الشرطة يعطونني حاجياتي، هاتفي ونقودي وبطاقة هويّتي، وينفي الشرطي وجود سلسلتي الفضّيّة، بالتأكيد سرقها. لا أعبأ. أخرج من باب المركز. أتأكد أنني لم أكن متّهمًا في جريمة القتل، بل بأكثر الجرائم شيوعًا في العالم، محاولة أن أكون أنا.

البرد في داخلي شديد، تهبّ نسمات تحمل رائحة الدواجن والعلف، من داخل المحلات المغلقة، تلك الرائحة التي تعبر أنفي عند رؤية نشارة الخشب على الرصيف، في الداخل هنالك حيوانات في محالّ سيّئة التهوية والتدفئة محبوسة لتُعرض للبيع صباحًا، أمام مقرّ الشرطة بالضبط.

لا يَسمح لي الجوع بالتفكير بها".

ليس في جيبي سوى بضعة شواقل. أشتري كرت اتّصال بعشرة منها، وأتّصل:

- ألو.

- آرنو.

- وينك؟ وينك؟

- أنا ع المنارة، بتقدر تيجي توخدني؟

أجلس قرب الحائط الحجري على الرصيف، أراقب الدوّار الفارغ، وأكاد أغفو على الإسفلت.

(٩)
وسام

٢٢ كانون أول ٢٠١٢
حالـــة الطقـــس: أجـــواء غائمـــة
إلى غائمـــة جزئيًّـــا والفرصـــة مهيّـــأة
لســـقوط أمطـــار
موقع وكالة الأرصاد الفلسطينية

جلس لأكثر من نصف ساعة في غرفة الانتظار في عيادة الطبيب. أقنع نفسه أن هذا أفضل، على الأقلّ لوالده الذي اضطرّ للسفر لمتابعة أعماله، وأصرّ على مراجعته لطبيب نفسي كما أوصى الجميع. والجميع هم الشرطة وبعض الأصدقاء.

بعد أن أبلغتْه الشرطة أن عائلة ربا طالبت بدَفْنها، شعر أبوه أن الأزمة صارت أزمة ابنه فقط. حتّى إن الشرطة لم تتّصل بابنه لتُعلمه بالدفن، فلا صفة تربطه بالراحلة، كان مسمّى "حبيبته" بلا معنى عند الشرطة والدوائر الرسمية. شكّ الأب أن أسرتها حاولت الضغط لإقفال الأمر كله، فهم لا يريدون مشاكل غير محسوبة تأتي من جثّة وشابّ معلّق بها، لا يعرفون عنه شيئًا.

خرج الطبيب فجأة، نظر إليه، وسأل كأنه يتأكد: "وسام؟؟"، هزّ وسام رأسه، ابتسم الطبيب، وطلب منه الدخول.

نظر وسام إليه، وهو يستقرّ على كنبة كبيرة، ويطلب منه الجلوس على

أخرى تشبهها. الطبيب بياقة عريضة تغطّي رقبته كلها، تصلح للمصابين بتضخّم في الغدّة الدرقية، ولحية غير مشذّبة ولا طويلة، متروكة دون حلاقة عمدًا، وتوحي بمظهر عميق أو غير متساهل.

لم يُمهله ولا ثانية، واندفع يقول:

"أهلا بكَ.. لديّ تصوّر واف عمّا جلبكَ إليّ، وأعلم أن حدثًا كالذي مررتَ به لا يجعل خياراتكَ مقصودة تمامًا، أو فلنقل خاضعة لقدر معتبر من التفكير والتقدير، ولكن هذا لا يهمّ بصراحة. يمكنكَ أن توقفني متى أحببتَ، يمكنكَ فعل ما تريد..

تختلف طريقتي عن غيري من الأُطباء في مجالنا.. عفوًا، هل زرتَ طبيبًا نفسيًّا من قبل؟"

يحرّك وسام رأسه نافيًا، وينزلق قليلًا في الكنبة.

"جيد.. أقصد طيّب.. هنالك مَن يسمعون للمعالَج، يوجّهون له أسئلة، ويطلبون إجابات، أو يتركون مرضاهم يتحدّثون كما يشاؤون.. عفوًا، أنت تدرك أن لفظ "مريض" في حالتنا شائعة.. هل يزعجكَ؟"

هزّ رأسه نافيًا.

تابع الطبيب بملامح متحمّسة: "جيد جدًا.. أنا أتحدّث، أقدّم توصيفي وتحليلي للأمور، وتعلّق أنت عليها. طريقة مختلفة قليلًا، إن رغبتَ، سأبرّرها لكَ".

لم ينتظر الطبيب إجابته، وتابع: "نحن نتعامل مع أنماط من البشر، مع مشاكل رائجة وعامة، ولدينا تصنيفات واضحة ومحدّدة للمشاكل، يمكنكَ تخيّل الأمر كدليل إرشادي فيه كل ما قد يواجهنا، وضع فيه العلماء كل الحالات الممكنة. سنقع في التعميم وفي التصنيف الجائر، وهذا طبيعي. غيري يبدأ من المريض؛ ليُوهمه أن حالته فريدة وخاصّة. أنا أطرح عليكَ ما

أعتقد أنه إطار مناسب لنعمل فيه، وأنت تعدّل عليه. أنت معالج نفسكَ، أنا وسيط، إن أحببتَ".

كان وسام ينظر للطبيب، ويغيب عن ناظريه، ينظر في أثاث الغرفة بألوانه الدافئة، يمرّ على الكُتُب التي لم يمسسها أحد منذ زمن، صورتان بالأبيض والأسود لرجلين أنيقين بلحى طويلة، لوحة كبيرة لجدول مياه تجلس قربه امرأة تدير ظهرها، وفي أعلى اللوحة قمّة جليدية، يبدو أنها مصدر مياه الجدول.

ترنّ في أذنه بعض كلمات الطبيب، فيتابع ما يقول:

"حين تعيش مأساة طامة تهتزّ ثقتكَ بكل شيء، لا سيما وجودكَ وفَهْمكَ لما حولكَ، سيصبح كل كلام تسمعه ذا قيمة وحكمة، سيصبح كل كلام عابر لحظي عادي، يحمل قيمة متعالية ومُفسِّرة.

ستبدأ بتحليل كلمات نادل المقهى وسائق التاكسي وموظّفي الاستقبال في الشركة، ستجد الدنيا كلها تنطق بالحكمة، وتحيل بطريقة أو بأخرى إلى أسئلتكَ أنت، تحديدًا تلك الصعبة التي لا إجابة لها.

حتّى الإجابة عن سؤال عن أحوالكَ سيغدو عميقًا وحمّالًا لأوجه عديدة من الفَهْم والتأويل والتحليل.

مأساتكَ تضع كل شيء في إطار مذهّب، وتمنحه قيمة إضافيّة، تسلّط الضوء على أي شيء عابر، وتمنحه مركزية البقعة المضاءة في المسرح المعتم.

ستشعر أن هنالكَ كاميرا سينما عظيمة تخلّد كل خطواتكَ ونظراتكَ وانفعالاتكَ، وستشعر دومًا أن هنالك جمهورًا مختارًا بعناية ينتظركَ، وينظر إليكَ.

المأساة تحوّلكَ بطلًا من نوع فريد، كل ما يقوله ويفعله مهمّ، بل الأهمّ. ستشعر أنكَ استجمعتَ كل مآسي الأرض والبشر، وستشعر أن كل ما قيل من شعر وأغنيات خالدة يقصدكَ، ويدلّل عليكَ. وستشعر أن الوجود بكل

ما فيه تضافر لإعطائكَ ما تستحقّ من لحظات الألم والاختبار والامتحان. ستصبح مأساتكَ أكبر من حجمها الفعلي، ولن تدرك بعد حين ما كانت عليه بالضبط، وما حجمها الحقيقي وقيمتها الصريحة.

صدّقني، لن تفلح في استعادة مأساتكَ، كما كانت أول الأمر.

ما أفعله هنا، وما تحتاج فعلًا لفعله معي أو بمساعدتي هو تخليص مأساتكَ من كل ما علق بها، تجريدها من كل هذه الهالة ومواجهتها صافية مسطّحة خالية من العمق والتعقيد المتوهّمين.

سأعطيكَ مثالًا. حين يموت أحدنا أو يغيب عنا، نبدأ بإيلاء كلامه الأخير أهمّيّة مضاعفة، هذه حقيقة بسيطة وموضوعية. ستصبح بسمته الأخيرة حمّالة دلالات، سيصبح صوته وهو يسألنا عن مكان مطعم أو متجر لحنًا عميقًا، سيكتسب آخر مَن تحدّث إليهم أهمّيّة كبرى، وستغدو آخر أغنية سمعها قطعة موسيقية خالدة، بل ربّما موسيقى تصويرية للنهاية التي آل إليها.

حتّى نهايته ستصبح تراجيدية على وجه خطير وغير مسبوق حتّى لو كانت عادية، بل مفرطة في عاديّتها.

هل حدّثتَ وصاحبتَ أو عرفتَ مصابًا بمرض مزمن؟ أولئك مَن يبدأ الأطباء بإخبارهم بالمدّة الباقية لهم بين الأحياء؟ هؤلاء في الغالب يدركون الأمر، ويبدؤون بالحديث والتصرّف بطريقة تبدو مفتعلة، أو هكذا نظنّها نحن، حتّى طلبهم للماء عند العطش يبدو شيئًا عميقًا.

ألم تسأل نفسكَ لماذا يميل العجائز إلى الحديث بلغة مختلفة عنا؟ إما لأنهم أدركوا الأمر أو لأنهم دخلوا في تلك الحالة، حالة التهيئة للرحيل القريب، حين يغدو كل شيء مهمًا.

صدّقني، عرفتُ حالات لسيدات مفجوعات بأبنائهنّ، كلهنّ اشتركنَ

بمعضلة واحدة، آخر مرّة طلب منهنّ أولادهن طلبًا، ولم يلبينَه. إحداهنّ كانت قادرة على تجاوز كل شيء متّصل برحيل ابنها الوحيد إلا سؤاله لها أيّ قميص يلبس قبل أن يغادر البيت حين لم تجبه بوضوح.

فعليًا لم يكن فقدها لولدها هو مركز مأساتها، بل كانت عدم إجابتها عن ذلك السؤال اليومي العادي.

المأساة تضيف لحياتكَ تعقيدًا لم تألفه، ومهمّتكَ هي تبسيطها.

حتّى ركوبكَ في حافلة نقل عامة ومشاهدتكَ من خلف الزجاج للمشاهد نفسها التي تراها كل يوم، العمّال الكسالى يشرعون أبواب متاجر معلّميهم، عمّال النظافة المتأخّرون المتبرمون، العجوز تحمل مشترياتها قبل طلوع الشمس، الشرطي البليد يشرب القهوة. سيغدو هذا كله وكأنه مشهد سينمائي خالد مليء بالعبرات والدموع، بل ستنطلق في حياتكَ موسيقى تراجيدية، لحن خالد كلحظاتكَ كلها.

والليل.. سيصبح الليل بيئة مأساتكَ الخصبة. سأعطيكَ مثالًا واحدًا. الليل والضوء.. الأضواء العادية، أعمدة الإنارة، أنوار المحلات التجارية واللوحات الإعلانية وأضواء السيارات والحافلات.. لن تظلّ أضواء وحسب، مجرّد جزئيات من ضوء منقولة في الهواء، بل ستصبح بقعًا متمدّدة متفشّية تنقلكَ إلى عالم المأساة. سيبعث فيك الضوء ليلًا عوالم متخيّلة لم تطأها قَدَم، ولم يصل إليها بشريّ.

ينبغي أن تحذر. هنالكَ مَن يذهبون إلى تلك العوالم، ولا يعودون منها أبدًا، بدلًا من أن يعيشوا فيهم، ستعيش فيهم، ولن يستردّهم منها شيء.

تيه مطلق.

يبدأ الأمر بالبحث عن مخرج، ثمّ يحدث مع كثيرين أن يستعذبوا ذلك التيه، ويتوقّفوا عن البحث، يحبّون تيههم. لا تصدّق أن كل الناس يبحثون عن

طريق، هنالك مَن يستعذبون فكرة الطريق، ويحاولون جاهدين أن يظلّوا إما باحثين عنه أو سائرين فيه بأقدام، لن تصل بهم إلى شيء؛ لأنهم لا يريدون أن يصلوا أصلاً.

عرفتُ كثيرين حين وجدوا المخرج أشاحوا بوجوههم عنه، وعادوا للطريق.

هذا كله في كفّة، وفي الأخرى.. الذاكرة

والذاكرة هنا، خصمنا اللدود، تتحالف مع المأساة. المأساة أشبه بمقوّ سرّيّ ينفذ إلى الذاكرة، فيبعث فيها نشاطًا سِحْريًّا، فتتذكّر كل شيء. ستتعجّب من قدرتكَ على التذكّر حين تحلّ المأساة.

ستسطو الذاكرة المأساوية على ماضيكَ كله، وستسطو أيضًا على حاضركَ ومستقبلكَ. حتّى حاضركَ سيتحوّل إلى ذكريات أيضًا.

ما أسرع تحوُّل الحاضر إلى ذكريات حين تحلّ المأساة، ستتذكّر الحاضر، وهو يحصل، وستذكر مستقبلكَ أيضًا.

هذه المرحلة الأولى، يا عزيزي، وبعد أن نحدّد معًا أين أنتَ من هذا كله سننتقل إلى المرحلة التالية. وهي على صلة بالذكريات طبعًا.

الذكريات تفعل بالإنسان دومًا، هي تجعلني وتجعلكَ موضع فعل لها، وهذه هي الحال الاعتيادية للذكريات في حياتنا، وحين نقول في حديث ما إنني أتذكّر كذا وكذا، فهذا تعبير غير دقيق، ولا أدلّ على عدم دقّته من أنكَ حين تمارس فعلاً تدعوه "التذكّر" لا تحصل على النتائج التي تريدها غالبًا، ولكنكَ وفجأة ودون أي سياق تجد الذكريات التي كنتَ تبحث عنها طويلاً، تحضر في ذهنكَ. حينها تتأكد من كونكَ موضوعًا لفعل الذكريات، ولستَ فاعلاً.

في حالتكَ اليوم نحن بحاجة لقلب الأمر، لا بد أن نفعل بها بدل أن تفعل بنا.

حين تلمّ بكَ مأساة، فعليكَ الحذر ممّا نسمّيه بسهولة "الذكريات"، ولا بد أن نفتح ورشة عمل دؤوبة للتعامل مع الذكريات.

عرفتُ أنكَ مدقّق حسابات، هذا جيد؛ أي أنك بحكم العمل تدرك أساسيات الأرشفة والتصنيف. ما سنفعله مع الذكريات يشبه العمل في الأرشفة والتصنيف.

كلنا نفعل جزءًا من هذه العملية المعقّدة دون وعي، ولكنْ؛ بشكل جزئي، والأمهر في الأرشفة هو الأقدر على تجاوز هيمنة الذكريات وسطوتها، سيجعل منها موضوعًا هو الفاعل فيه.

لا بد هنا من لفت انتباهكَ إلى أمر مهمّ، يستعين الكثير من الناس حين يمرّون بتجربة الفقد بمَن يعينهم في عملية الأرشفة الواسعة للذكريات، لن نناقش هذا الخيار الآن، ولكنْ؛ لا بد من وضعه في خلفية رأسكَ، وأنت تفكّر بالأمر كله...".

وجد الطبيب في وسام حالة فريدة، مأساة مغرية للافتراضات النظرية، الفجيعة الكاملة دون مقدّمات منطقية، والتي تطيح بالإنسان من ذرى السعادة إلى مهاوي البؤس. حالة الحبّ الطهراني المخلص الذي لا يحتمله العالم. والشباب المدهوم من الموت. وهل يمكن تجاوز الموت وهزيمة تبعاته؟

كان الطبيب يعقّد المأساة، ويوسّعها، ويتركه ليخوض حربًا على جبهات عدّة. كان سؤالًا واحدًا، ذرّره الطبيب إلى أسئلة تتوالد بمجرّد طرحها أو بدء التفكير فيها.

هل هنالك حلّ ذهني لأزمة واقعية؟ هل يمتلك العقل تلك القدرة على معالجة المأساة؟ تحويلها من حَدَث وجودي إلى أسئلة عقلية قابلة للتفكيك والدحض؟

كان الطبيب نتيجة وجوده خارج العقل صاحب المأساة، وخارج العواقب التي خلّفتها المأساة في صاحبها، يقترح الأسئلة، ويخترع الإجابات، ورغم كونه أذكى من عدم ملاحظة أن هذه الحُرّيّة التي يجول في فضائها غير متوفّرة لعقل صاحب المأساة، إلا أنه تعامى عن هذا الأمر تحديدًا. تعامل معه وكأنه غير مدرك، ولا موجود. ربّما لأنه يدرك أنه شرط مُعطِّل لقدرته على النظر والتفكير في الحالة.

كانت حالة مُغرية، والصراحة معها تعني خسارة فرصة مراقبتها.

في بلد يعتقد فيها الناس أن الطبيب النفسيّ مختصّ فقط بالمجانين والمختلّين عقليًا، كان وجود وسام في عيادة الطبيب حالة نادرة، ينتشي الطبيب معها، تُشعره بما فقد منذ عاد إلى رام الله بعد سنوات الدراسة في أمريكا، تُشعره أنه طبيب نفسي فعلاً، كالرجلين الأنيقين بلحى طويلة في الصور التي تملأ عيادته وبيته. حتّى كأن الطبيب يشكر في سرّه المأساة والفقد؛ لأنهما يُرضيان غروره عن نفسه، وما يفعل وهو يتحدّث مع هذه الحالة الفريدة. سيطرت الإثارة عليه، عاد لتخيّلاته القديمة عن نفسه، محاضرًا في جامعة عريقة أمام مئات الطلاب المذهولين، لا يحدّ حديثه شيء، يمرّ في الأروقة، فيسمع همس الطالبات عن عبقريّته، ويسارع زملاؤه لشكره على المحاضرة العامة آملين ألا يتأخّر نشرها في مجلّة علمية؛ ليستخدموها مرجعًا ومصدرًا.

يُسكره الحديث، فينسى نفسه، ويمعن في ملء العيادة بشروحاته:

"تخيّل الذكريات موادّ أو علبًا متنوّعة الأحجام والأشكال والألوان في مخزن مظلم واسع. هذا هو رأسكَ.

كل علبة متّصلة بشيء، بمرحلة ما، ربّما ربع العلب من طفولتكَ، ونصفها متعلّقة بأبيكَ وأمّكَ، عشرها متعلّق بالمنزل الذي نشأتَ فيه، جزء منها متّصل بالمدرسة، وآخر بالأصدقاء، وجزء منها متّصل بـ"الراحلة".. اعذرني على استخدام هذه المفردة، فهي أفضل بالنسبة لي من سواها.

مرهون بالعلاقات. يحمل العامل الشابّ العلبة الواردة، ويبحث عن علب على صلة بها؛ ليضعها معها، ولذلك قد تكون هنالك علبة في مكان ما، تحمل صوت مواء قطّة صغيرة، عضّتْكَ في طفولتكَ، فإذا مررتَ في طريقكَ إلى العمل بقطّة صغيرة، وماءتْ، وسمعتها، فإن علبة المواء الجديدة حين تدخل المخزن يتلقّفها العامل الشابّ، ويضعها عند علبة المواء القديم.

هذه الحركة البسيطة، حركة العامل من لحظة التقاط العلبة الجديدة حتّى الوصول للعلبة القديمة، ووضعها معها، وتحريك كل العلب المحيطة، هي التذكّر ببساطة.

حركة العامل داخل المخزن هي التذكّر، وما يحكمها هو ما يدخل إلى المخزن من علب وعلاقتها بالعلب السابقة.

لا تعتقد أن الأمر بسيط إلى هذا الحدّ، فحركة العامل صوب العلبة القديمة لتوضيب الجديدة قريبًا منها، تعني المرور بأعداد هائلة من العلب، لذلك قد تجد نفسكَ تتذكّر أشياء لا تبدو لكَ ذات صلة بمواء القطّة، هذه ببساطة علب اتّصلتْ بمئات، اتّصلت بها علبة مواء القطّة الأولى، وما أكثرها من علب.

المعضلة هنا هو في تعقّد العلاقات بين العلب وتركّبها وتنوّعها، وهذا التعقيد نساهم فيه نحن في مرّات كثيرة. حين نتذكّر حادثة ما في موقف معيّنة، تدخل علبة مركّبة، متّصلة لا بالحَدَث فقط، بل في الحَدَث وعلاقته بالتذكّر نفسه.

وأسوأ مثال على هذا هو رَبْطنا ذكرياتنا بمَن نحبّهم، نتذكّر خوفنا في موقف ما، فنقول لأنفسنا إننا مطمئنّون بوجودهم اليوم حولنا، في هذه الحالة يتحوّل الموقف المخيف في الماضي إلى شيء متّصل بمَن يحبّوننا، حتّى وهم لم يكونوا معنا في حينه... الحكي أيضًا من أهمّ عوامل الإرباك. حين تحكي ذكرياتكَ تختلط تجربة الحكي مع الذكرى، وتندمج بها، وتتركّب

علب معقّدة، عن كل شيء رافق الذكرى، وكل شيء اتّصل بلحظة الحكي عنها، أمام مَن حُكيت، وفي أي ظرف وكل عنصر آخر كان متوفّرًا لحظتها.

صحيح لابد لي من تأكيد نقطة بسيطة، وهي أن المخزن غير محدود. أعرف أن تخيّل الأمر صعب، ولكنه كذلك، ويمكنك تخيّل عدّة نسخ من العامل الشابّ يتحرّكون بكل دأب لتوضيب كل ما يرد إلى المخزن من علب.

مهمٌ هنا أن يكون واضحًا، أنه كلّما دخلتْ علبٌ أكثر على صلة بعلبة أو علب موجودة سابقًا، فهذا يعني قناعة العمّال الشباب بأهمّيّة تقريب كل هذه العلب إلى المقدّمة؛ لأنها مهمّة، ولا تزال تستقطب علبًا جديدة، وهذا أظنّه واضحًا. فبدلًا من أن يضطر العمّال لقطع مسافات من مؤخّرة المخزن كلّما جاءت علبة، يضعون كوم العلب عند الواجهة، فموضوعه حارّ، وآنيّ.

ولذلك يمكنكَ أن تفهم أن ما يقبع في مؤخّرة المخزن من علب تشكّل بمجموعها موضوعًا أو خبرة ما، تصبح مَنسية، وتستقرّ في المؤخّرة البعيدة؛ لأنه لا تدخل المخزن علبٌ على علاقة بها؛ أي أنكَ لا تتعرّض في حياتكَ اليومية إلى ما له صلة بها، ولذلك لا تتذكّرها...

طبعًا.. العامل العجوز هنا، يمكن أن يُفسد الأمر إذا قاده مزاجه الصرف إلى تلك النواحي، وعبث بها فجأة. وهذا في الغالب لا يحصل، إن كنتَ تعيش حَدَثًا حارًا، فالكل مشغول بما يرده من علب بأعداد هائلة.

ببساطة، يا صديقي، ولأجل كل ما مضى، يغادر الناس البيت الذي عاشوا فيه حَدَثًا سيئًا، ولذلك أيضًا نسافر بحثًا عن حياة جديدة بعد ظروف كارثية. بكل بساطة، نحن لا نريد التعرّض للمشاهد والأصوات والروائح التي تدخل إلى مخزننا علبًا صغيرة، فيضعها العمّال عند أكوام العلب المتّصلة بمآسينا، فنتذكّر.

طموحنا دومًا هو تجنّب هذه الشوارد الصغيرة التي تبعث على التذكّر.

يا عزيزي.. أسوأ ما في التذكّر أنه لا يطابق الماضي تمامًا، قد يشبهه إلى حدّ بعيد، إلا أنه لن يكون مثله تمامًا. التذكّر إما أجمل من موضوعه، أو أقبح منه.

هل تعرف لماذا يعود عشّاق إلى بعضهم بعد انفصالهم؟

لأن تذكّرهم لأحبائهم كان أجمل من أحبّائهم، تذكّرهم لحياتهم قبل القطيعة أجمل من حياتهم قبلها.

أما مَن لا يعودون، فتذكّرهم أقبح ممّا مضى، أقبح وأقوى من الحنين والشوق والرغبة.

لو كان التذكّر مطابقًا تمامًا لما مضى، لانتفى الزمن، لتمكّنّا من أن نعيش في لحظة ما كل عمرنا، نكرّرها ونُعيدها ويظل يمنعنا تذكّرها الدقيق عن التقدّم.

إن تعاونتَ معي، فسندخل إلى تذكّركَ، ونرفض الاستسلام له، سأريكَ كيف يفاقم تذكّركَ من ضعفكَ اليوم، وكيف يمكنكَ أن تتغلّب عليه وعلى الضعف".

سكت الطبيب، كأنه انتظر ردّ فعل ما، إعجابًا على الأقل بما قال بانفعال وتأثّر بالغين.. ولكن وسام لم يقل شيئًا. نهض من مكانه ومضى نحو باب العيادة، وخرج. كانت تلك المرّة الوحيدة التي دخل أو سيدخل فيها عيادة طبيب نَفْسيّ.

يا عزيزي.. أسوأ ما في التذكّر أنه لا يطابق الماضي تمامًا، قد يشبهه إلى حدّ بعيد، إلا أنه لن يكون مثله تمامًا. التذكّر إما أجمل من موضوعه، أو أقبح منه.

هل تعرف لماذا يعود عشّاق إلى بعضهم بعد انفصالهم؟

لأن تذكّرهم لأحبائهم كان أجمل من أحبّائهم، تذكّرهم لحياتهم قبل القطيعة أجمل من حياتهم قبلها.

أما مَن لا يعودون، فتذكّرهم أقبح ممّا مضى، أقبح وأقوى من الحنين والشوق والرغبة.

لو كان التذكّر مطابقًا تمامًا لما مضى، لانتفى الزمن، لتمكّنّا من أن نعيش في لحظة ما كل عمرنا، نكرّرها ونُعيدها ويظل يمنعنا تذكّرها الدقيق عن التقدّم.

إن تعاونتَ معي، فسندخل إلى تذكّركَ، ونرفض الاستسلام له، سأريكَ كيف يفاقم تذكّركَ من ضعفكَ اليوم، وكيف يمكنكَ أن تتغلّب عليه وعلى الضعف".

سكت الطبيب، كأنه انتظر ردّ فعل ما، إعجابًا على الأقل بما قال بانفعال وتأثّر بالغين.. ولكن وسام لم يقل شيئًا. نهض من مكانه ومضى نحو باب العيادة، وخرج. كانت تلك المرّة الوحيدة التي دخل أو سيدخل فيها عيادة طبيب نَفْسيّ.

(١٠)
نور

١٣ كانون ثاني ٢٠١٣
فرنسا تقتل أكثر من مئة شخص في غارات جوّيّة ضمن تدخّل عسكري في مالي
وكالات

"في الطائرة..

أبكي على كل شيء خلّفتُه ورائي، أبكي على الأشياء التي أتذكّرها، والتي لا أتذكّرها، والتي أحاول ألا أتذكّرها، وأبكي على أماكن قد لا أعود إليها، وأبكي على ما كان يمكن أن أفعله في تلك الأماكن.

وأبكي على غربتي، ومن الخوف، ومن الطائرة، وكل هؤلاء الغرباء الذين لا أعرفهم، أبكي حين أضطرّ لسؤال موظّفي الأمن عن أشياء تبدو بديهية للآخرين، وأبكي من نظرات الناس، وأبكي من عالمي الضيّق والصغير، وأبكي من كل الحزن الذي تجمّع فيه. أبكي عليّ وعلى سذاجتي. حتّى أكاد أشعر أن رأسي سيجفّ، وعينيّ ستسقطان.

نصل، أفعل كالجميع، أمشي في المسارات الطويلة، ينتهي الفَحْص بابتسامة موظّف أمن، أخرج.. أو أدخل فرنسا".

آرنو ينتظر بين الجموع، بالكاد أقوى على المشي وفتح عينيّ من النعاس والتعب والقهر والخوف.

يبتسم حين يراني، ويسرع باتّجاهي. أرتمي عليه، فيلتقطني أكثر من كونه يحتضنني، لستُ بكامل قواي حتّى أقرّر إن كان في حضنه الكثير من اللهفة والرغبة كما لديّ.

أظلّ ملقى على صدره لوقت طويل.

يمسك رأسي بيديه، ويرفع وجهي قبالة وجهه، ويقبّل شفتيّ بهدوء ومباغتة، وبالكاد أبادله قبلته.

يمسك بيدي، ويحمل حقيبتي المهترئة، ونمشي بعيدًا عن الجموع بحثًا عن أي مخرج.

نصل سيارته، يُجلسني إلى جانبه بعد أن أُرجع كرسيي إلى الخلف حتّى أستلقي. يُدخلني إلى الكرسي، ويطلب مني أن أرتاح، ويجلب غطاء خفيفًا، ويضعه على جسدي حتّى كتفيّ، ويُغلق الباب بهدوء.

يجلس خلف مقود السيّارة، ويبدأ قيادة السيّارة بهدوء وتركيز.

مع خروجنا من مواقف المطار الضخم، يتبدّى لي أن غروب الشمس وشيك.

بنصف عين أراقب ما يجري.

نحن نسير باتّجاه الشمس.

يضغط على زرّ تنظيف الزجاج الأمامي، فيندلق الماء، وتتحرّك المسّاحات لثوان.

صارت الصورة أوضح. بقيتْ بضع قطرات على الزجاج تقاوم الرياح، وتلتمع بلون أصفر وبرتقالي وأحمر على وقع مغيب الشمس.

القطرات كأنها نجوم صغيرة وخاصة، تقاوم الفناء.

أراقبها، فترسل إليّ كثيرًا من الهدوء والراحة. ومع تلاشي النجمة الأخيرة وعبور آخر أشعّة الشمس إلى داخل السيّارة قبل سقوطها في العتمة، يصبح تنفّسي منتظمًا، عدّة أنفاس طويلة من أسفل رئتي، ثمّ انتظام غاب عني طويلاً.

اليوم، انتهى شهران، أو أقلّ قليلاً، قضيتُها مختبئًا في شقّة آرنو في رام الله من كل شيء، اتّصالات أرقام غريبة، ومن أفكار أهل ومعارف يبحثون عني، بل لا أظنّهم بحثوا عني أصلاً.

في تلك المدّة، رتّب آرنو لكل شيء، وقبل كل شيء أقنعني بمخطّطه، وضمن لي أنه سيعمل معي، وسيساعده آخرون، باع محتويات شقّتي لباعة الأثاث المستعمل، ربّما لنفس الشخص الذي اشتراها رؤوف منه، وأعاد الشقّة لصاحبها، وأنهى حسابي مع أبي وليم.

ثمّ كتب المقترح الذي تحدّث عنه سابقًا، فيلم أو كتاب عن "تجربتي" تهتمّ بها مؤسّسة في بلاده، راسلهم، وأقنعهم بالموافقة سريعًا.

ثمّ بدأ إجراءات استصدار جواز سَفَر لي، ثمّ فيزا وتكاليفها، ثمّ حجز طيران وترتيبات مالية.

سافر قبلي لتسوية بعض الأمور، استهلكَ ليالي، وهو يطمئنني، ويشرح لي كل شيء، ويؤكد لي أنني غير قادر على المواصلة بهذه الطريقة، وربّما أضطر إلى خيارات أقسى، وحاول إشعاري بمقدار خوفه وقلقه عليّ بعد ما حصل، وأخبرني أنه باتّصالاته ومعارفه يُدرك أن وضعي أخطر ممّا أتصوّر.

في الأيّام القليلة، قبل موعد سَفَري، كنتُ في الشقّة وحيدًا، وقد اشترى لي كل ما قد أحتاجه، ووضع طعامًا كافيًا في الثلاجة، كأنني حيوانه الأليف الذي خلّفه وراءه عند سَفَر طارئ. في تلك الأيّام استهلكتْني الأسئلة، وفكّرتُ في الهرب، دون أن أدري إلى أين، ألم يكن السَّفَر هربًا؟ كنتُ أفكّر

بالهرب من الهرب؟ فكّرتُ بكل شيء لي في تلك البلد، بكل شيء أحببتُه، بكيتُ كثيرًا، اشتقتُ لعائلتي، لإخوتي وأبي وقراءتهم القرآن في صلاة المغرب والعشاء، ولضحكاتهم بعد انتهاء الصلاة مباشرة، واشتقتُ لأمّي، لقسوتها وضعفها ولإلحاحها في كل شيء. اشتقتُ لكل ما أكره، اشتقتُ لرؤوف، وبكيتُ طويلًا.

كنتُ أَخرِج مع الدموع آخر ما تبقّى لي هناك، وأُخرِج الخوف الأخير من فعل الأشياء دون قلق ولا حسابات.

انتابتْني هواجس حول آرنو، طردتُها بمحاولة التفكير بمصلحتي، سأستفيد ممّا فعله لي، هو أقلّ البشر الذين عرفتُهم خطورة، هو قادر على تغيير مسار حياتي بما يفعله، ولكنه غير قادر على أذيّتي.

خشيتُ من ساعات الكتابة والأسئلة والصراحة التي قلتُ له فيها كل شيء. ولكنه أكد لي أن كل شيء سيكون كما أحبّ، والأهمّ "مستقبلي"، هذه الكلمة التي لم أسمعها إلا من آرنو.

سأقول كل ما يحلو لي، مخاطرة أخرى ككل حياتي، وسأترك لآرنو خيار أن يفعل ما يريد في ما أقول ونكتب، فليعدّل كما يشاء.

لن أخسر شيئًا. بعد كل ما خسرتُه، هل لا أزال أفكّر بالخسارات المحتملة، ما الذي لديّ لأخسره؟!

إشاعات الناس في البلد وأقاويلهم واتّهاماتهم، كذب صغار الصحفيين ونمائم الإذاعات المحلّيّة، وبيانات الشرطة وتحقيقاتها، أفدح بكثير من الحقيقة، هم أودوا بي إلى السجن والانتهاك، أما الحقيقة أو شيء منها؛ فسيخلّصني من كل عذاب.

سأبدأ برؤوف، بل برحيله.

أنظر إلى آرنو. يقود السيّارة بالتركيز نفسه.

يد على المقود، ويد على ناقل الحركة. بباطن كفّيه يحتضن الاثنين.

تنبّهتُ إلى أنني لم ألاحظ أنه فقد قليلاً من الوزن، واكتسب مزيدًا من العضلات، تلك التي أحبُّها في الذراعين. تحديدًا في عضده؛ حيث بان جزء من العضلة الصغيرة البارزة من تحت القميص الخفيف.

يتعلّق بصري هناك، وشم صغير بدا لي للمرّة الأولى.

أحرّك يدي المرتجفة بهدوء، وأرفع طرف القميص لأرى الوشم كاملاً، حرف N أتحسّسه بطرف أصابعي بسعادة عجيبة. يلتفت آرنو إليّ، ويبتسم قائلًا باعتزاز ودلال: "نور".

لا يدري أن هذا الاسم اختاره رؤوف لي. بدلًا من صهيب، اسمي الحقيقي. أتأكد من أن رؤوف أبقى من أن أنساه.

أبتسم، أفكّر بالأمور من زاوية آرنو فقط. هل كنتُ أتخيّل أنه يضع حرف اسمي الأول وشمًا! أواصل تحسّس الحرف، رغبة به، وبالعضلة الصغيرة.

أحرّك بصري على جسد آرنو، والتعب والنعاس يطبقان عليّ.

أتمنّى ألا تتوقّف السيّارة، الوجهة غير مهمّة، أريد ألا نتوقّف، أن نمضي في أراض وتضاريس بعيدة لا تنتهي، ولا يوقفنا فيها أحد.

الدنيا تختلف في هذه السيّارة، وفي دقائق تأمّل آرنو. كل شيء يغدو أجمل فأجمل. أسمح لنفسي بتخيّل حياة جميلة قادمة. أسمح لنفسي للحظات بالأمل.

في الثواني الأخيرة قبل هبوط النوم عليّ، أهبط بيدي عن ذراع آرنو، وأمدّها فوق فخذه الأيمن، وأدسّ أصابعي بين رجليه...

وأنام.

(١١)
وسام

٢٤ كانون ثاني ٢٠١٣
الشـــاباك يعلـــن أنـــه لـــم يُقتَـــل طـــوال العـــام ٢٠١٢ أي إسرائيــــلي في الضفّــــة الغربيـــة، وهـــي المـــرّة الأولى منـــذ عـــام ١٩٧٣

وكالة وطن للأنباء

استقال من عمله بدَفْع من رسائل واتّصالات تستفسر عن عودته، وانكفأ في بيته لا يتصل بأيّ بشري. يأكل ما يبقيه قادرًا على النوم والاستيقاظ. لا يجد في عقله ما يفكّر به. إخفاقه في العثور على إجابات كان يزيد من تعقّد حاله، بل إن الإخفاق في إجابة سؤال واحد كان يعني أن القدرة على حلّ السؤال اللاحق أقلّ وأشحّ.

ينظر من النافذة لدقائق، يرى الأشياء كما هي للحظات، ثمّ يقتنع أنها تغيّرت. كل شيء ناقص. نقص يحكم كل ما حوله. البناية تلك فيها شيء ناقص، المطر ناقص، طلاب المدارس فيهم شيء ناقص، رفوف البضاعة في السوبرماركت القريب فيها شيء ناقص.

ومضاعفات زيارة الطبيب الوحيدة ظهرت. زادت مساحة المعركة مع كل ما يحدق به. كل شيء يتحرّك ضدّه، في كل شيء يجدها، علبة السّكّر وغطاؤها، يتذكّرها تؤنّبه، وتذكّره بإغلاقها، طريقتها في تفقّد جيوب معاطفها

حين تخرج من أي مكان، نطقها الغريب لبعض الكلمات، كيف تغطّي ما بان من صدرها، دقائق جلوسها على طرف السرير حين تستيقظ، توتّرها من صوت ارتطام الملعقة بالزجاج، كرهها لملكانات محلات الملابس، وامتعاضها من لبس البني مع الأسود، تعليقاتها الكثيرة عن الطقس، وهَوَسها بقراءة لافتات المحلات بصوت مرتفع وهما يتمشيان في الشوارع. كانت من نوع النساء اللواتي يفخّخن كل شيء بذكرى، فيغدو قابلاً للانفجار في أية لحظة.

ظلّ يحلم بها، تنويعات كثيرة على حلم محدّد، هي واقفة في زقاق يشبه ذاك الذي قُتلتْ فيه، وهو في الجهة الأخرى، كلّما اقترب منها صغُرتْ، وكل ما ابتعد عنها كبرتْ وغدتْ أوضح. لا تعرف الأحلام قواعد الفيزياء. كلّما اقترب منها بدتْ غائمة وتفاصيلها أقلّ وضوحًا وحجمها مصغّرًا، حتّى يتخيّل أنه لو استمرّ بالاقتراب، فستتلاشى في اللحظة التي يلمسها بها.

لم يكن يرَ الفاعل في الحلم، لم يكن الحلم سخيًا؛ ليمنحه دليلاً على ما جرى ولماذا جرى، ولكنه كان يرى كل ما يحيل إليه، بقعة الدم الشارع الخالي، وركضه المستمرّ جيئة وذهابًا.

سأل نفسه مرارًا ما الذي كان يمنحه الدافع للمواصلة، لفعل أشياء الحدّ الأدنى، غسل وجهه صباحًا وأكل طعام يزوّده بالطاقة، وتنظيف جسده، صحيح أنه لم يغتسل لمدّة طويلة، ولم يغيّر ملابسه الداخلية إلا حين شمّ بنفسه رائحته. ليس كل العَرَق متشابهًا، هنالك عَرَق الإجهاد البدني، وهنالك عَرَق الخوف، وعَرَق التوتّر، وعَرَق الاستثارة، وعَرَق الذهن المتعب، وعَرَق الحرارة المرتفعة، وعَرَق الحزن.

يميّزها مَن يمرّون بمأساة طويلة، يشمّون روائح جديدة لا تدفعهم بالضرورة للاغتسال وتنظيف أنفسهم، تلك الرائحة تشبه أوجاعهم، تصبح رائحتهم حتّى يفلحوا في النجاة ممّا هم فيه.

سأل نفسه، ما الذي يمنع أشياء الحدّ الأدنى من التكاثر حتّى تعود الحياة إلى طبيعتها، أو على الأقلّ طبيعتها دون وجودها في حياته؟

كان واعيًا للسؤال وواعيًا للإجابة التي تزيده استحكامًا، مشكلة أشياء الحدّ الأدنى مع واحدة مثلها أنها ربطتْها بها، تلك الملاحظات الصغيرة والمزحات العابرة والأحاديث المقتضبة التي تلتصق بالأشياء العادية واليومية، فتصبح منها تجعل فعلها العادي البسيط العابر غير يسير. كل ملاحظة على تسريحة شعره، طريقته في شرب الماء، خياراته في المطاعم، وطريقته في مَسْح فمه من بقايا الطعام، وإطالته استخدام قشّة تنظيف الأسنان، ونسيانه المتكرّر لإطفاء ضوء السيّارة عند إيقافها، ونسيانه قول عبارات الشكر والامتنان بعد أيّ معروف يُقدّم إليه، شكل وجهه أول الاستيقاظ، عدم اهتمامه بحمل المحارم وطلبها المتكرّر منها، إصراره المستمرّ على علكة خالية من أيّ نكهة، وإصرارها على علكة بنكهات، عباراته السوقية، وتأنيبها المستمرّ.

كل هذه أشياء الحدّ الأدنى التي علقتْ بها وبملاحظاتها، وصار فعلها أو تذكّرها وهي حاضرة دومًا، يعني تفكيرًا بالفقد وتوابعه، وتوابعه في هذه الحالة كانت أهمّ. الأسئلة المريرة عن كيف ولماذا.

كيف يمكنه التخلّص من سؤالها البسيط حين تراه متعبًا، تمسك بيده، وتقول: "شو في؟ مالك؟ إيديك تعبانين!". ينظر الناس في الوجوه وفي الأعين، ويقولون وجهك متعب، عيناك مرهقان، إلا هي كانت تربط التعب بيديه، وتحسّ تعبه منهما.

كيف سيتخلّص من هذه الذكرى حين ينتابه أيّ تعب؟! بل كيف سيتخلّص منها حين ينظر إلى يديه، ويعلك قلبه الندم على عدم سؤالها لماذا كانت بخلاف كل البشر ترى التعب في اليدين لا في الوجوه والأعين؟!

ندم على الأسئلة البسيطة كلها التي خطرتْ له، ولم يسألها لأنه كان مستمتعًا بأنه لا يعرف، مستمتعًا بتعامله مع أشيائها كأشياء غير قابلة للفَهْم.

"إيديك تعبانين!" صارت حالة لا نهاية لها منذ رحلتْ، وما عاد قادرًا على الإحساس بالضغطات الخفيفة من كفّيها على باطن يده وظهرها.

وبعد ذلك كله وحين يفلح في فعل الأشياء العادية يبدأ وخز ما يتكالب عليه، يتوهّم أنه يفعل محظورات عظيمة، "المأساة تُحوِّل الأشياء العادية إلى أحداث فارقة ومصيرية"، في هذه أصاب الطبيب، تفقد عاديّتها بضغط من كل شيء.

تمامًا كاللحظة التي جلس فيها في مطعم صغير لبيع الشاورما، وطلب وجبته، جلس ينظر إلى الشارع المزدحم في تلك الساعة، ينظر بحياد تامّ.

خاف بعد لحظات، خاف من شعوره بأن الحياة كما هي، والناس يعيشونها دون أن يتغيّر شيء، خاف من مشهد الحشود المسالمة، وهي تعبر الشارع منشغلة بأشيائها، ولا تبدو عليهم أيّ علامات غير مألوفة.

خاف من نفسه ومن الآخرين، من القدرة العجيبة على الاعتياد، والتعايش مع أكثر الأحداث قسوة.

لم يأكل، هرب من المطعم، واخترق الحشود صوب بيته؛ ليجلس وحيدًا وجهًا لوجه مع مأساته وأسئلته.

وفي البيت وفي مواجهة الأسئلة. وصل إلى يوتيوب.

يوتيوب كان مكانًا غير متوقّع للحصول على بعض الإجابات، كيف يتصرّف الناس عادة في مواقف شبيهة؟ ملايين الفيديوهات عن جرائم اعتداء وقَتْل، مصوّرة بكاميرات المراقبة الرديئة، ولكنها تفي بالغرض.

بدأ يحفظ الفيديوهات؛ ليشاهدها، ويفكّر.

كيف يتصرّف مَن في الفيديوهات حين يشهدون جريمة أو اعتداء؟ هل ينشغلون باللحاق بالمعتدي؟ أم بإنقاذ المعتدى عليه؟

هذا كان موضوع التفكير الأهمّ. الفيديوهات المفيدة قليلة، تلك التي

تنطبق عليها الظروف التي يبحث عنها. اعتداء وشخص يشهد الحادثة ومعتد يهرب.

وجود أكثر من شخص في مكان الحادث يعني تقاسمهم للأدوار، أحدهم يحاول اللحاق بالمعتدي، والآخرون ينشغلون بالإسعاف.

وسام كان وحده.

امتلاك المجرم لوسيلة قَتْل كالمسدّس أو البندقية يعني أنه قادر على إيذاء مَن سيلحق به، ولذلك يخاف كثيرون في الفيديوهات.

وسام لم يكن خائفًا، ولكنه لم يلحق بالقاتل.

شاهد الفيديوهات المتبقّية عشرات المرّات. وكانت النتيجة متعبة، وتزيد حيرته، النصف تقريبًا حاولوا اللحاق بالفاعل، والنصف الآخر انشغلوا بإنقاذ الضحية. ٥٠٪ لا تقول شيئًا.

شاهد فيديوهات محدّدة لقطة لقطة، ليلاحظ أي شيء فاته. اختار الفيديوهات التي تقول صراحة إن الضحية على صلة بمَن كان في موقع الحادثة ليرى كيف يتصرّف هؤلاء تحديدًا. اعتبر أن هذا محدّد مهمّ جدًا، وينطبق على حالته. ولكنْ؛ رغم ذلك لم تكن الإجابات وافية. لم يكن الحصول على نمط تصرّف ممكنًا.

ثمّ فكّر ما فائدة هذا كله؟ إن وجد أن الجميع لاحقوا المجرم؟ وإن وجد أن الجميع انشغلوا بإنقاذ الضحية؟ هل هؤلاء الظاهرون في الفيديوهات يملكون الإجابة؟ عاد للتفكير في ما أوصله إلى البحث في يوتيوب.

ما قيمة هذا كله إن كان الفعل السليم هو ما لا يفعله غالبية البشر عادة؟ ما قيمة معرفة كيف يتصرّف الناس في ظرف شبيه؟ هل يخفّف هذا من وجع السؤال؟ وهل ما ينفع مع بقية الناس سينفع في حالته؟

لم يكن متأكدًا، ولكنه واصل البحث عن فيديوهات جديدة لليال. كان الشيء الوحيد الذي يفعله.

في أكثر من فيديو تجمّد الناس. ظلّوا واقفين في أماكنهم، ولم يتحرّكوا ولو خطوة واحدة، لا باتّجاه المجرم، ولا باتجاه الضحية. شلل تامّ. على الأقلّ، هو تحرّك. ركض ككلب تائه دون جدوى. هل هنالك فرق بين رَكْضه وشَلَلهم التامّ؟ لم يجد فرقًا.

ما قيمة الإجابات الصحيحة حين تأتي متأخّرة؟

ستكون مفيدة للآخرين، فقط.

هل أصبح شخصًا آخر يريد الإجابة؛ ليخفّف أوجاعًا ضميرية وتأنيبًا داخليًّا، خلّفه فيه شخصه السابق، سابقه الذي لم يعده.

لم يشك للحظة أنه معها إنسان وبدونها إنسان آخر.

كان "هو" الحاضر يحاول تصفية الحساب مع "هو" الماضي. وإجابة السؤال كانت بمثابة إقفال للحساب المفتوح. ولكنها لم تكن متوفّرة، وظلّ الحساب مفتوحًا، والتصفية معلّقة.

هل يتلهّى بالأسئلة ليتجنب الاعتراف المباشر الواضح بحزنه، بعدم قدرته على أن يكون هو بدونها؟ لم يكن في حال تسمح له بترف الخروج من نفسه ومراقبتها والوصول لخلاصات وتقييمات دقيقة.

في المساء، حين يفقد الشعور بنفسه، تتناهى إلى سمعه أصوات تدريبات قوّات الأمن في المعسكر القريب، صيحة جماعية كل ثانيتين، لا صدى لها، تنتقل على مراحل في الفضاء الأحمر الكئيب، كان يقرّب أذنه من النافذة؛ ليسمع الصوت بشكل أفضل، بدا له الصوت في رتابته واختناقه كسعال عجوز مريض.

لم يكن متأكدًا، ولكنه واصل البحث عن فيديوهات جديدة للبال. كان الشيء الوحيد الذي يفعله.

في أكثر من فيديو تجمّد الناس. ظلّوا واقفين في أماكنهم، ولم يتحرّكوا ولو خطوة واحدة، لا باتّجاه المجرم، ولا باتجاه الضحية. شلل تامّ. على الأقلّ، هو تحرّك. ركض ككلب تائه دون جدوى. هل هنالك فرق بين رَكْضه وشَلَلهم التامّ؟ لم يجد فرقًا.

ما قيمة الإجابات الصحيحة حين تأتي متأخّرة؟

ستكون مفيدة للآخرين، فقط.

هل أصبح شخصًا آخر يريد الإجابة؛ ليخفّف أوجاعًا ضميرية وتأنيبًا داخليًّا، خلّفه فيه شخصه السابق، سابقه الذي لم يعده.

لم يشك للحظة أنه معها إنسان وبدونها إنسان آخر.

كان "هو" الحاضر يحاول تصفية الحساب مع "هو" الماضي. وإجابة السؤال كانت بمثابة إقفال للحساب المفتوح. ولكنها لم تكن متوفّرة، وظلّ الحساب مفتوحًا، والتصفية معلّقة.

هل يتلهّى بالأسئلة ليتجنب الاعتراف المباشر الواضح بحزنه، بعدم قدرته على أن يكون هو بدونها؟ لم يكن في حال تسمح له بترف الخروج من نفسه ومراقبتها والوصول لخلاصات وتقييمات دقيقة.

في المساء، حين يفقد الشعور بنفسه، تتناهى إلى سمعه أصوات تدريبات قوّات الأمن في المعسكر القريب، صيحة جماعية كل ثانيتين، لا صدى لها، تنتقل على مراحل في الفضاء الأحمر الكئيب، كان يقرّب أذنه من النافذة؛ ليسمع الصوت بشكل أفضل، بدا له الصوت في رتابته واختناقه كسعال عجوز مريض.

في صدره، ومع مرور الأيّام، كان هنالك شيء يكبر ويتّسع، يتمدّد ببطء، ويضغط على تنفّسه، يشعره بوهن وعجز، ورغبة ملحّة بالنوم، فارقتْه الأنفاس الطويلة، وحلّت محلّها أنفاس متقطّعة قصيرة، لا تشفي غليله من التنهّد.

هنالك فراغ يملأ صدره. فراغ ثقيل، الفراغ لا وزن له إلا حين يكون في الصدر.

في داخل ذاك الفراغ المتّسع يسبح كل شيء لها، تسبح صورها ولحظاتهما وكلماتها، وتسبح رغبته بها وشوقه لها، ووزن الفراغ يزيد.

وزن الفراغ أحاله إلى كتلة من الإرهاق، يغدو مجهدًا من أيّ نشاط بدني، مهما كان بسيطًا.

لم يجد تفسيرًا لحاله إلا أنها أخذتْ معها من داخله شيئًا ما. أو ترك رحيلها في داخله بذرة فراغ تنمو وتحيل حياته إلى لحظات بطيئة ثقيلة، يحاول جاهدًا جرجرتها معه.

كل ما كان ممكنًا له معها لم يعد كذلك.

ينظر إلى نفسه، ويفكّر في كل الأشياء التي لم تعد ممكنة.

يشتهيها. يشتهي كل شيء فيها.

يفكّر، هل هنالك أقسى من اشتهاء ميت!

وحين يهرب من الصحو إلى النوم، يستيقظ وقد استيقظت كل رغباته بجسدها قبله؛ لتُشعره بما فقد. فيتملّكه بؤس لا ينطفئ إلا بنحيب صباحي، تُطفئ مرارتُه اشتهاءه ورغبته.

(١٢)
وسام

١٨ شباط ٢٠١٣
فريق بحثي في جامعة ساوثرن كاليفورنيا يطوّر بطارية يمكن شحنها بالكامل خلال عشر دقائق
د ب أ

قالت والدته وهي تحمل مظلّة من خلف الباب، وتنظر إليه محدقًا في التلفاز دون أن يعي شيئًا حوله.

"وسام.. أنا طالعة، بدّكْ شي؟"

تنتظر دون ردّ.

أرادت الخروج بكل ما فيها من طاقة، رغم بؤسها الكامل على حال ابنها، ولكنها كانت تحاول التخلّص من الجحيم الذي حوّل البيت إليه. تريد الهروب من هذا القهر والعجز عن مساعدته. ادّعتْ أن هنالك زفافًا لقريبة لها، ولا بد أن تحضر، كانت تحاول إشعاره أن الدنيا لا تزال كما هي في الخارج، تسير، فعلها الأهمّ، وأن الناس لا يزالون كما عرفهم يمشون مع الدنيا، ولكنْ؛ عبثًا. لذلك قرّرت الهرب لا إلى الزفاف الزائف، بل إلى بيت أختها حتّى لا تخسر نفسها أيضًا. هي أيضا ككثيرين حوله لم تجد وصف "حبيبته" كافيًا ليَحدث له كل ما يحدث منذ رحلتْ، كأن الناس تعوّدوا على الخسارات، فباتوا يُنكرون تفجّع مَن تنزل بهم.

قبل أن تُغلق الباب قالت له بكل الرجاء الممكن:

"صرلكْ ٣ شهور. بكفي.."

مضتْ، وظلّ في العتمة وحيدًا.

نظر إلى هاتفه؛ ليتأكد فعلاً من التاريخ. ٣ أشهر بالضبط، ربّما لم تقصدها والدته بهذه الدقّة. لم يحفظ التاريخ كما كل تواريخه معها، يوم جلستْ إلى جانبه، ويوم لم يرَ غيرها، ويوم قبّلها، ويوم ذاقَ جسدها، ويوم وعدها بحياة طويلة، عيد ميلادها، عيدهما معًا.

تأكد من التاريخ مرّة أخرى. سمّاه عيد ميلاد الدمع في عينيها، الدمع الذي لم يعرف سببه، ولن يعرف سببه. قرّر أن ينتظر لساعة، علّ إجابات تتوفّر، يرسلها الله أو الشيطان أو أي شيء.

كان عيد ميلاد شهريًّا للأسئلة التي تقتله ببطء.

تمدّد الليل سريعًا، خرج للجلوس في الشرفة في مدخل البيت الحجري القديم، ينظر إلى الحديقة الصغيرة والمسرب الصغير بين البنايات الذي يصل إلى فسحة البيت في قلب المدينة.

كان بيت العائلة من تلك البيوت القديمة في وسط المدينة التي لا يُلاحظها العابرون المسرعون، تختفي خلف البنايات الحديثة، وحول البيت حديقة كبيرة نسبيًّا، في وسطها شجرة جوز، لطالما قالت له أمّه، إن الجوز يزيد من الذكاء، ويغذّي الدماغ، فشكله من الداخل شديد الشبه بالدماغ.

كان يصدّق الأمر وهو صغير، وقبل أي امتحان يبدأ بتكسير الجوز والتهامه، إن توفّر؛ ليزيد من ذكائه، ويحرز علامات متقدّمة. وحين لا يتوفّر، في غير مواسمه، حين يكون أخضر أو غير جاهز للقطاف، يظلّ يمازح أمّه بأنه لم يأكل من الجوز كفايته، ولذلك لم يُفلح في الامتحانات.

تلك الشجرة الهائلة، التي تبدو وكأنها ميتة في السنوات الأخيرة كادت تُنسى، لولا أنه أطال النظر إليها في تلك الليلة.

ستنام أمّه عند أختها بعد العرس المزيف، والبيت الذي يملأ عن آخره صيفًا، فارغ إلا منه، وهو على الشرفة يحدق في شجرة الجوز حتّى اتّخذ قراره.

ترك فجوة تبدأ من هاتفه المفتوح على صورة ربا تنزل درجات الحضانة ضاحكة، وتنتهي عند حديث عامل نظافة.

"كنتُ أنظّف الشارع ككل يوم، وكالعادة نظرتُ من الزقاق إلى البيت، فانتبهتُ إلى غصن الشجرة المكسور حديثًا، استغربتُ، فاقتربتُ قليلًا، فوجدتُ جسده على الأرض والحبل على رقبته، والدم يملأ الكرسيّ الحديدي".

قالت الشرطة لوالديه، إنه حاول شنق نفسه، حبل على غصن شجرة، وكرسي يركله برجله، ويتعلق بالهواء.

الغصن لم يحتمل، انكسر، فسقط على الكرسي الذي انغرست إحدى قوائمه في فخذه الأيسر من الخلف.

صحيح أن الغصن انكسر، ولكن الوقت كان كافيًا ليموت شنقًا، وانكسار الغصن جاء بعد مفارقته للحياة.

لم تكن أمّه بحاجة لتحقيق في أسباب إقدامه على قَتْل نفسه، ولم تبكه حينها؛ لأنها بكتْ معه طويلًا في الأسابيع الماضية. وحين عبرت الزقاق صوب سيّارة أقارب العائلة؛ لتبتعد عن البيت إلى غير رجعة، نظرتْ مرّة أخيرة إلى الشجرة، وتخيّلتْ للحظات رأسه حبّة جوز كبيرة جدًا، لم يحتملها الغصن.

(١٣)

١١ أيار ٢٠١٤

في العدد القادم، نستعرض الكتاب والفيلم التوثيقيين للكاتب آرنو بريير العائد من الشرق الأوسط، وهذه المرّة الحكاية من الأراضي الفلسطينية. كيف ترك الشابّ "رؤوف الخطيب" صديقه، وانتهى به الأمر معتقلًا عند الأمن الإسرائيلي، ومتّهمًا بالتنسيق والتخطيط مع جماعات مسلّحة لتنفيذ اعتداءات إرهابية في المنطقة. شهادات طويلة مع صديق الخطيب الذي قدم مؤخّرًا إلى فرنسا

مجلة Miroirs الفرنسية